جمهورية مصر العربية
وزارة الاعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

كتب مترجمة
٧٧٣

الخفايا السورية

تأليف : شارل سان برو

شارل سان برو

الخفايا السورية

السياسة في الشرق الأوسط

من عام ١٩٧٠ الى عام ١٩٨٤

الخفايا السورية

الناشر

ألبان ميشيل

ديباجة :

بالسلم والرعب :

باريس في ٢١ يوليو عام ١٩٨٠

كانت الحرارة شديدة فعلا فى صباح ذلك اليوم من الصيف ، وكانت الساعة العاشرة ، ولكن ميدان هوش لا يعانى من الاختناقات المعتادة لان عددا كبيرا من سكان باريس سافروا لقضاء عطلاتهم ومن تبقوا لا يسرعون كالعادة ، وقد توجه رجل قصـير يناهز الستين من عمره بخطوة سريعة نحو مكتبه بالمبنى رقم ٦١ ، وقد ضم تحت ابطه رزمة من الصحف ، وراح يفكر فى مقالته الأخيرة التى نشرها فى صحيفته الأسبوعية « الاحيـاء العربى » والتى تدد فيها بشدة بمساوىء نظام حكم الرئيس حافظ الأسد خصمه القديم ، ثم عبر مدخل المبنى .

وقبل بلوغ باب مكتبه ببضعة أمتار ظهر أمامه فجاة رجـل أخفى وجهه خلف نظارة سميكة سوداء وفى ثانية أدرك الرجـل القصير الأمر ، فهو ينتظر تلك اللحظة منـذ ما يربو عن خمسة عشر عاما ، وقبل ذلك ببضعة اسابيع كنا قد التقينا على رصيف أحدى مقاهى الشانزيليزيه حيث أفضى الى بأنه يعلم أن حيـاته مهددة ، وصرح بأنه ما يزال على استعداد لتحمـل ذلك الخطر قـائلا :

لقد امضيت ما يربو عن اربعين عـاما من حيـاتى ادافع عن آرائى ، ولا يسـعنى الا أن أواصـل ، فقد بلغ الوضـع فى سوريا حدا لا يحتمل ، نظرا لان الديكتاتورية تزداد دمـوية كل يوم ، ولأن نشاط حافظ الأسد على الصعيد الدولى أصـبح سبة للقضية العربية .

ومن اجل التنديد بهذا الوضع أنشأت صحيفتى ، اذ يجب ان ينصح احد عن الحقيقة .

بيد ان المخاطر كبيرة ، وفى ذلك اليوم يوم ٢١ يوليو عام ١٩٨١ ، دوت طلقات النيران ، وسقط الرجل وتبعثرت صحفه على الأرض ، ولم يعد يكتب بعد ذلك سطرا واحدا ضد نظام الحكم السورى ، وهذا الرجل الذى كان ممددا فى بركة من الدماء يدعى صلاح الدين البيطار ، وفى اليوم التالى تحدثت الصحف الفرنسية بصورة موجزة عن اغتيال ذلك الرجل الذى كان من أهم الشخصيات العربية فى النصف الثانى من هذا القرن ، رئيس وزراء سوريا الأسبق وبصفة خاصة شريك ميشيل عفلق فى تأسيس حزب البعث العربى الاشتراكى .

وفى يوم ٢٥ يوليو أعلن الرئيس الأسد أمام اللجنة المركزية للحزب الحاكم فى سوريا ان جميع أولئك الذين سيعارضون نظام الحكم سوف يبادون ... وسوف نقتفى أثرهم اينما وجدوا .

بيروت فى ٤ صبتمبر عام ١٩٨١

كان ذلك يوم جمعة ، وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بقليل وقد غادرت السيارة البيجو ٦٠٤ سيارة لوى ويلامار سفير فرنسا لتوها نيلادى بينز حيث توجد مكاتب السفارة بالحى الغربى للعاصمة اللبنانية ، ووصلت السيارة مدخل شارع فؤاد الأول ، واجتازت أول متاريس الجيش السورى ولاحظ الراكب أن القوات النظامية قد تضاعفت بميليشيات سرايا الدفاع التابعة للعقيد رفعت الأسد شقيق الرئيس السورى .

ولم تكن هناك سوى بضع مئات من الامتار لتجتازها السيارة قبل بلوغ مقر الرئاسة . وفجأة حاصرت سيارة « بى ام دابليو » السيارة البيجو واندفع رجلان يشهران بنادقهما الرشاشة . فاوقف السائق اللبنانى وهو سائق مؤقت بديل يدعى طرطور – محرك السيارة ، وانبطح خلف عجلة القيادة وادرك لوى ويلامار الامر ، فقد كان يعرف منذ بضعة ايام انه مهدد اذ ابلغه الفلسطينيون فى منظمة التحرير الفلسطينية بان ثمة مؤامرة تدبر بغية اختطافه .

فقد كانت أجهزة المخابرات السورية تريد حمله على الحديث عن علاقاته مع مختلف الشيع اللبنانية وعلى الأخص عن اللقاء الأخير الذى تم بين الرئيس عرفات وكلود شيسون والذى قام بتنظيمه بنفسه ، ولم يلق تقديرا من جانب الرئيس الأسد . واتخذ السفير قراره . فلن يسقط حيا بين ايدى أجهزة المخابرات السورية ، وقام باغلاق الابواب ، فثارت ثائرة المعتدين فى الخارج ، وحاولوا كسر الأقفال . وعلى بعد بضعة أمتار وقف الرجال الموجودون عند المتاريس السورية ، ويتألف معظمهم من ميليشيات سرايا الدفاع وقفوا يشاهدون العملية دون تأثر . وحاول احد ضباط الجيش النظامى التدخل ، ولكن ميليشيات رفعت الاسد صدته بقوة .

وامام السيارة تخلى الارهابيون عن فتح الابواب واطلقوا وابلا من النيران قبل ان يهموا بالفرار ،وفتحت المتاريس السورية بسرعة أمام السيارة الـ « أم بى دابليو » التى عادت الى مقر حركة امل فى هذا الحى الشيعى ببيروت ، ونزل زعيم القتلة ويدعى عبد الواحد حسين وروى الأمر لزعمائه ، وهم محمد ياسين قائد القوات الخاصة السورية ، واحد الايرانيين باسم صادق موسوى (ويجب التمييز بينه وبين حسين موسوى زعيم جماعة أمل

التورية الموجودة في بعلبك) وهو أيضا عضو من أعضاء القوات الخاصة السورية ، ومن اهم منسقى جميع العمليات الارهابية السورية الايرانية مع محمد احمد حضرى السورى .

وفى المكان الذى وقع فيه الاعتداء، تلقى السفير حوالى عشر طلقات عن كثب ،ونقل على عجل الى مستشفى بابير ،وتوفى بعدها ببضعة ساعات قبل أن يسترد وعيه ،وبعد ذلك بثمانية ايام اتهم الزعيم ياسر عرفات صراحة اجهزة المخابرات السورية بتدبير عملية الاعتيال وقام بتسليم السلطات الفرنسية ملف القضية .

باريس فى يوم الخميس ٢٢ ابريل عام ١٩٨٢

فى الساعة الثامنة وخمسة وخمسين دقيقة بشارع ماربيف بالقرب من الشانزيليزيه ، كالمعتاد فى صباح كل يوم كان جمهور العاملين يسير بخطى حثيثة فى هذا الشارع المزدحم الذى يوجد به عدد كبير من المكاتب وتوقفت نيللى جيوريم — امراة شابة تناهز الثلاثين من عمرها — لحظة امام كشك فى زاوية من زوايا الشانزليزيه وعاودت سيرها ، والقت نظرة عابرة الى واجهة مطعم « ش بيبير » وفجاة وفى الساعة التاسعة ودقيقتين مزق السكون انفجار مروع . ورات المراة الشابة باقة ضخمة من النيران الحمراء ، وسقطت على الارض ممزقة الجسم،واصيب ايضا بضعة عشرات من المارة، وتحطمت واجهات بعض المحلات ، واحترقت أحدى السيارات تماما امام المبنى رقم ٣٣ حيث يقع مقر صحيفة« الوطن العربى اللبنانية » وهى صحيفة اسبوعية لا تخفى عداءها حيال نظام الحكم السورى ، وقد تضمن عددها الأخير بعض التفاصيل عن عملية الاعتداء على لوى ويلامار .

وفى راى نبيل مغربى رئيس تحرير الصحيفة ان عملية الاغتيال تحمل توقيع مرتكبيها اذ يقول : انها عملية مدبرة من اجهزة المخابرات

السورية . وهذه ليست على اية حال المرة الأولى التى تدبر فيها تلك الأجهزة اعتداء على صحيفتنا . ففى شهر ديسمبر تمنا بنزع فتيل قنبلة وضعت امام بابنا ، وقد سمح التحقيق بتوجيه أصابع الاتهام الى ميشيل كسوحة الملحق الثقافى بالسفارة السورية .

والحقيقة ان اختيار مكان الاعتداء له دلالته الرمزية : فقد تم امام صحيفة لبنانية مؤيدة للعراق والتى تقيم معها فرنسا علاقات طيبة ، وكان التحذير واضحا ، اذ دعيت فرنسا للكف عن انتهاج سياسته فى منطقة الشرق الاوسط لا تروق لدمشق . وفى اليوم التالى لعملية الاعتداء تم طرد دبلوماسيين من السفارة السورية فى باريس وهما على حسن الملحق العسكرى وميشيل كسوحة .

بيروت فى ٢٣ من اكتوبر عام ١٩٨٣ :

كانت الساعة تقترب من السادسة صباحا . وقد أشرق النهار بيد أن جو البحر المتوسط كان لايزال رطبا باردا . وكان الحارس الذى يتولى الحراسة امام الموقع المسمى « وراكار » يسير ذهابا وايابا فى انتظار البديل . وهو شاب مجند من السرية الاولى المتمركزة بمدينة بو والتى وصلت اخيرا الى العاصمة اللبنانية للمشاركة فى قوة الامن المتعددة الجنسية ببيروت . وراى الجندى الفرنسى شاحنة صغيرة شبيهة بتلك التى تقوم بتوزيع الخبز على السرية كل صباح ، الا ان المركبة لم تبطء السير ، وقد أتاح الوقت للحارس فرصة ملاحظة رجل يرتدى لباسا ابيض وقد انكمش خلفه عجلة القيادة . وتذكر تحذيرات ضباطه :

« احترس من الاعتداءات الانتحارية ، فالانتحاريون الشيعة يرتدون عادة لباس الشهداء الابيض الذى يضمن لهم دخول الجنة» .

ولكن فات الاوان ،اذ اصطدمت الشاحنة بالسور ومزق الجو انفجار مروعا . ورغم تعود سكان بيروت على الحرب التى استمرت

ثمانية أعوام الا ان القلق أخذ يستبد بهم ، فلم يحدث ان وقع انفجار بمثل هذه الشدة . . . وبعد ذلك ببضعة لحظات دمرت عملية اعتداء أخرى المقر العام للكتيبة الثامنة للقوات البحرية .

وتحت انقاض الموقع « وراكار » ، عثر القائمون بعمليات الانقاذ على جثث ثمانية وخمسين شابا . فرنسيا ، معظمهم ينتمون الى السرية الاولى التابعة للقائد توماس الذى كان من بين عدد الضحايا وكانت المحصلة مثيرة بقدر اشد لدى الجانب الامريكى حيث زاد عدد القتلى عن ٢٤٠ قتيلا وقد توصل التحقيق الذى قامت به الاجهزة الفرنسية والامريكية الى أن الرجال الانتحاريين الذين قاموا بعمليتى الاعتداء اعضاء فى الجماعة الشيعية المتطرفة المنشقة عن حركة امل بقيادة نبيه برى وهى منظمة أمل الثورية بزعامة حسين موسوى ويقع مركز تلك الثورة الارهابية فى مدينة بعلبك بالقرب من الحدود السورية فى منطقة يسيطر عليها جيش دمشق سيطرة تامة والمدربون هم ضباط من سراى الدفاع التابعة لرفعت الاسد ، والمناضلون من الايرانيين واللبنانيين ، والمتطرفون من حرس الثورة الذين اوفدهم الخمينى .

فقبل ذلك ببضعة ايام كان أحد آيات الله قد صرح فى طهران قائلا : « ان فرنسا ستدفع ثمن سياستها فى الشرق الاوسط بالدم والرعب » وفى يوم ٢٤ اكتوبر وصل الرئيس فرانسوا ميتران الى بيروت تكريما للقتلى ، وصرح قائلا فى حزم : « أن فرنسا ستظل ملتزمة بتعهداتها » .

ولم يتسن للجمهور الكبير أن يدرك الصلة بين الاحداث المثيرة التى تم سردها آنفا ابتداء من اغتيال صلاح الدين البيطار فى باريس حتى عملية الاعتداء على العسكريين الفرنسيين والامريكيين فى بيروت نهذه الصلة موجودة ولها قاسم مشترك : وهى السلطة القائمة فى دمشق .

ولعل الوقت قد حان اليوم للكشف عن بعض المعلومات التى تلقى الضوء على اللعبة السياسية فى الشرق الاوسط ولكنها تثير ايضا مشاعر جمة بالمرارة .

فياترى هل جميع الحقائق يجب الافصاح عنها ؟

لقد قررت ابان حصار مدينة طرابلس فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٣ ، وتحت وابل قنابل نظام الحكم السورى والبحرية الاسرائيلية ان اكتب هذا الكتاب نظرا لان هناك صمت حذر ، قريب كل القرب من الجبن .

وهذا الكتاب لا يعد مع ذلك تنديدا ، كما انه ليس تسوية حسابات رغم الوقائع فان ماذكر فى الصفحات التالية ليس — على وجه الدقة — وثيقة اتهام انه مجموعة من الوثائق « وقائع » مجرد وقائع لا اكثر « على حد تعبير المؤرخين فى الماضى » ويكفى سردها ، وتوضيح الروابط — الغامضة فى بعض الاحيان — التى تربطها لكى يستنبط المرء منها بسهولة التحليل السليم ، وهكذا يمكن للقارىء ان يحكم بناء على مستندات اصبحت فى متناول يده .

وكمراقب دقيق لشئون الشرق الاوسط ، حاولت ان استغل خبرتى — احيانا عند بلوغ المعارك اشدها مثلما فى بيروت ابان صيف عام ١٩٨٢ او فى طرابلس فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٣ — لكى يتسنى لى الاحاطة باوجه غموض سياسة نظام الحكم السورى وخفاياها ، التى تحتل مكانة بارزة على مسرح الشرق الاوسط ، فالسياسة غالبا ماتشبه الجبال الجليدية ، والجانب الخفى منها أهم من الجانب المرئى ويجب أن نتساءل عن الدور الخفى وعن الاسباب الغامضة التى أدت الى تلك الاحداث والتى توجد وراء ما يقال او ما يجرى فى وضح النهار ، والجميع يعلم — على سبيل المثال — ان عملية الاعتداء التى وقعت فى ساراجيفو ضد فرانسوا فردينان ارشيدوق النمسا ؟

يوم ٢٨ يونيو عام ١٩١٤ لم تكن الا ذريعة لنشوب الحرب العالمية الاولى وان دوافع تلك المجزرة الهائلة كانت اكثر تعقيدا بكثير .

واليوم يجب ان نتساءل عما يوجد وراء التصريحات المجلجلة ونشر القوى ، وما يستتر وراء الاشتباكات التى يقتل فيها بعض الحمقى التعساء فى خدمة مصالح واهداف هم ابعد ما يكونون عن الشك فيها هذا علاوة على ان السلام فى الشرق الاوسط يعنينا بطريق مباشر لاننا جيران على جانبى البحر المتوسط ، ولان روسيا والولايات المتحدة تخوضان ، بواسطة بعض البلدان ، والجماعات السياسية او الدينية او الاشخاص لعبة قوى رهيبة من شواطىء خليج سيرت وخليج بيروت حتى شواطىء الخليج العربى ومضيق هرمز .

وفى تلك اللعبة يقوم احد الرجال منذ فترة طويلة بدور من اهم الادوار ، وقد أقام هذا الرجل — الذى يتمتع بقدرات غير عادية على المناورة — سلطة رهيبة فرضت سيادتها داخل سوريا ، وفى لبنان ، ثم لدى الفلسطينيين ، واصبح المتحدث الرئيسى لدى جميع اولئك الذين يعملون او يعيشون فى هذا الجزء من العالم .

والفصول التالية ليس لها هدف سوى استبيان الامور . استبيان ماحدث فى سوريا ، والاهداف التى يصبو اليها نظام الحكم السورى ورئيسه حافظ الأسد وفهم تلك الشبكة من التحالفات التى اتفق عليها ، او الاتفاقات الموضوعية التى تمت بعيدا عن الخطب الرسمية ، وفهم السبب الذى جعل الرجل العلمانى حافظ الاسد افضل حليف لآية الله الخمينى الرجل المتصوف داخل دولة ارهابية حقيقية . « الشرق المعقد » كما كتب الجنرال ديجول ، فترى هل التعقيد هو ثمرة الصدفة ، أو الدسائس او التنازلات التى كثيرا ما انقاد اليها نظام حكم المحسوبية ؟

الواقع ان ممارسة الحكم فى سوريا منذ عام ١٩٦٦ ، وبصفة خاصة منذ عام ١٩٧٠ ، تمثلت فى ظاهرتين :

فى القمع الداخلى فى جميع الاتجاهات : ضد حزب البعث نصير الحكم الشرعى ، وضد الوطنيين (الناصريين المستقلين) ، وضد القوى الاسلامية (الاخوان المسلمين وغيرهم) من جانب ، ومن جانب آخر فيما يجب ان نسميه بغموض التدخلات على مسرح الشرق الأوسط : مثل دخول لبنان فى عام ١٩٧٦ بناء على دعوى من الميليشيات المسيحية ، والموقف ازاء الحرب الاسرائيلية الفلسطينية فى صيف عام ١٩٨٢ ، ومسالة طرابلس فى خريف عام ١٩٨٣ ، والتحالف مع الخمينى وتأليف شبكة من الارهابيين .

وكلتا الظاهرتين مرتبطتان ، وجميع اولئك الذين يعرفون الشعب السورى يعلمون انه يتبنى فى دخيلته مطالب تقليدية مثل الحرية والوطنية ، وانه شعب عظيم وكريم له تاريخ مجيد يعى دوره الاساسى فى خدمة قضايا العرب ومثل هذا الشعب غير مستعد لقبول سياسة غامضة فى ظل الصدام الكبير القائم بين الامة العربية والهيمنة الامريكية والدولة الاسرائيلية التابعة لها ، كما انه غير مستعد للرضوخ للاتحاد السوفيتى ، ولفرض مثل تلك السياسة ، كان يجب اسكات اولئك العاملين ، والفلاحين ، والمثقفين وصغار التجار ، وتلك الملايين من الرجال والنساء الذين توارثوا روح سوريا العربية الاصيلة ، واذا كانت البورجوازية التجارية — عدا بعض الاستثناءات النبيلة — تستطيع ان توافق على قبول التنازلات الوطنية بشرط أن تحقق مصلحتها ، فان الشعب الذى لا مصلحة له الا فى الوطن والكرامة الوطنية لا يمكن ان يوافق عليها ، ويذكر ميشيل عفلق ، احد السوريين والعرب النظام ، قائلا : « كان يجب على نظام الحكم السورى كى يحقق ضرباته السيئة ضد الأمة العربية ان يقوم بتحييد الشعب السورى » .

وقبل ان نحلل كيف تم هذا « التحييد » ، ونلاحظ انه اطلق بالفعل العنان للسلطة السورية كى تقود سياسة عربية يعارضها الكثيرون ، يجب أن نقوم بدراسة نظام الاسد ، فمن

يكون هذا الرجل الذى اعترف الجميع ببراعته التامة وحنكته الدبلوماسية الفائقة ؟ من يكون ذلك الرجل الذى اصبح لديه من الورق اكثر مما لدى جميع رؤساء الدول العربية الآخرين منذ وفاة ناصر والذى اثار مثل تلك المعارضة وتلك المجادلة ؟ وما هى – بصفة خاصة – أسباب غموض سياسته ، الى الحد الذى يستوجب معه الحديث عن وجود سر خفى ؟ فهناك فى الواقع سران سوريان كبيران .

فى ميدان السياسة الداخلية ، قد تعجب للصمت الذى يكتنف القمع الذى يحدث فى هذا البلد ، فقد كانت مذبحة مدينة حماة والتى أسفرت عما يزيد على ١٥٠٠٠ قتيل – ذروة هذا القمع – بيد ان الأمثلة الأخرى وفيرة : بدءا من تصفية المعتقلين السياسيين فى سجن بالمير الى عمليات الاعدام المنتظمة الى عمليات الاعتقال بلا محاكمة . فلو ان أى دولة أخرى انتهجت هذا النمط من التصفية على مستوى واسع لكانت فريسة لحملة دولية ، ويمكن أن نتخيل الضجيج الذى كان يمكن أن تحدثه ابادة ١٥٠٠٠ شخص فى مدينة سانتياجو أو جدانسك ، ويكفى أن نتذكر أن نظام حكم الامبراطور بوكاسا قد اطيح به تحت وطأة الضغط الدولى على اثر الاعلان بأن ضابط الجيش الفرنسى السابق قام باعدام بعض الاطفال فى مدينة بانجى . غير أن نظام الحكم السورى لا يخشى شيئا من ذلك . كل ما هنالك أن صدرت بضعة مقالات صحفية لا أكثر سرعان ما اغفلت ، أو تقرير لمنظمة العفو الدولية ليلحق بكومة من الملفات وضعت على الرف ، ويقول الاستاذ بازل يوسف ، أحد المحامين السوريين ، وعضو لجنة حقوق الانسان (وبازل يوسف عضو فى حزب البعث ، لجأ الى بغداد ، وهو مؤلف كتاب حقوق الانسان فى رأى حزب البعث الذى نشر باللغتين العربية والفرنسية ببغداد عام (١٩٨٣)

« انه حاول مرارا أن يثير مشكلة انتهاكات حقوق الانسان فى سوريا أمام لجنة الامم المتحدة فى جنيف ، ولكن هذه اللجنة لم تتحقق فيها أبدا الأغلبية التى تسمح بادراج المشكلة فى جدول الاعمال . فقد امتنعت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا عن التصويت ، بينما صوت الاتحاد السوفيتى ضد تلك المسالة بينما تردد عدد كبير من الدول » . وفيما يختص بهذا التواطؤ الصامت ذكر أندريه بوتار فى صحيفة الاكسبريس (٢٥ فبراير عام ١٩٨٢) بعد مذبحة حماة قائلا : « يبدو أن الاسد يتمتع بمساندة محسوبة من قبل الاتحاد السوفيتى بقدر ما يتمتع بشىء من العطف الغربى ، وعلى وجه الخصوص من جانب الولايات المتحدة » فلماذا هذا الصمت ؟ ولم ذلك التواطؤ شبه العام ؟ ولم ايضا نفس هذا الصمت بينما تبدو أجهزة المخابرات السورية متورطة فى بعض عمليات الاعتداء الدولية ؟ سواء فى باريس مثل الاعتداء على (صلاح الدين البيطار ، بشارع ماريوف) أو فى بيروت مثل الاعتداء على (لوى ويلامار ، والاعتداء على رجال المظلات الفرنسيين والقوات البحرية الامريكية) ؟ .. هذا هو السر السورى الأول .

بيد أن هناك سرا آخر أكثر مدعاة للحيرة . فما هو الدور الصحيح الذى قام به الرئيس الاسد على المسرح العربى والشرق الاوسط . بعد أن بدأ يمارس مسئوليات كبرى كوزير للدفاع فى الفترة من عام ١٩٦٦ الى عام ١٩٧٠ وكرئيس دولة منذ عام ١٩٧٠ ؟ ان خصومه يتهمونه بانه تخلى عن الجولان فى عام ١٩٦٧ ، وأنه خان الفلسطينيين فى عام ١٩٧٠ ، وأنه احبط هجوما عراقيا ضد الاسرائيليين فى عام ١٩٧٣ ، وأنه شجع على مذبحة الفلسطينيين فى تل الزعتر (عام ١٩٧٦) كما قام بتفتيت الحركة الوطنية اللبنانية ، ويسعى الى اثارة الفرقة بين صفوف المقاومة الفلسطينية ، وسدد خنجرا فى ظهر العراق

العربى عندما اعتدت عليه ايران الخمينى ، وحاول تصفية قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات فى طرابلس عام ١٩٨٣ غير أن الدراسة المنهجية لتلك الاحداث المتباينة لا تساعد بالطبع على اثبات مسئولية نظام حكم الرئيس الاسد الكاملة فى كل حالة. بيد انه لا تزال هناك بالنسبة للبعض شكوكا كثيرة ومواطن يكتنفها الظلام .. ما هى حقيقة الدور الذى يقوم به الرئيس الاسد ؟ وماذا يريد ؟ وما مقابل هذه التواطؤات ؟ ذلك هو السر السورى الثانى والأكثر خطورة نظرا للمكانة التى يحتلها ذلك البلد فى المنطقة . يؤكد خصوم حافظ الاسد — السوريون ، والفلسطينيون واللبنانيون والعراقيون — انه صنيعة الامريكيين ، واحد «عملائهم» وهذا النوع من التفسيرات رائج جدا فى الشرق الأوسط لدرجة أن المرء لا يستطيع تقبوله على علاته والحقيقة أن الامور تبدو كالعادة اكثر تعقيدا . ان صلاح البيطار الذى سألته هذا السؤال قبل اغتياله ببضعة ايام اجابنى بقوله : « ان العبرة بالنتائج ، ولا يهم اذا كان الأسد قد تواطأ فى بادىء الأمر مع الولايات المتحدة أم العكس ، وسواء كان الاسد متواطئا ، أو عميلا أو محدثا مفضلا لدى السياسة الامريكية ، وبالتالى لدى السياسة الاسرائيلية ، فان واشنطون تعتبر الأسد الذى يلعب دورا مزدوجا مع الاتحاد السوفيتى محدثها المفضل ولا يجب أن يسقط بأية ثمن ، لأن سقوطه معناه نهاية نظام حكمه . وقيام حكومة أشد وطنية تقطع الطريق على السياسة الاسرائيلية العربية فى المنطقة وليس هذا الا مطمع الاسد ايضا ، فهو لا يريد سوى البقاء فى الحكم :

وبغض النظر عن الدور الذى يجدر بنا ان نحتفظ به للدعاية فان الاحداث تدعو الى الحيرة ، ذلك ان تاريخ الحكم السورى منذ عام ١٩٧٠ يبيح للمرء طرح الكثير من التساؤلات .

وكى أسبر أغوار تلك الأسرار قمت بزيارة لجميع العواصم، وجميع الاماكن الهامة من بيروت الى دمشق ، من تونس الى

القاهرة ، من بغداد الى عمان ، ومن طرابلس — فى لبنان — الى وادى البقاع دون التغاضى عن لقاء اولئك الذين اضطروا الى مغادرة وطنهم الى اوروبا لمواصلة النضال ، او للنجاة من الموت. والتقيت ببضع عشرات من الشهود الذين حضروا تلك المأساة والمسئولين عنها : بعض السوريين من كافة المشارب — من الرئيس الأسد الى ابسط المعارضين — فلسطينيين ، ولبنانيين وعراقيين ، واردنيين ، وكويتيين ، واسرائيليين وديمقراطيين وغير صهاينة ، ولم أغفل أى اتجاه من الاتجاهات السياسية او الدينية التى تتحرك على مسرح الشرق الأوسط مثل البعثيين ، والناصريين والمسلمين المتطرفين ، والشيوعيين ، والسنيين ، والشيعة ، والمسيحيين باختلاف شيعهم ، والفلسطينيين من حركة فتح ، والصاعقة ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وجبهة التحرير المسلحة ، والمستقلين .

وهدفى من نشر هذا الكتاب ان اقدم بعض الايضاحات والتفسيرات التى من شأنها خدمة قضية نهضة الأمة العربية . تلك القضية التى يجب — شأنها كشأن جميع القضايا العادلة — ان نتبين حقيقتها .

الفصـــــــل الأول

البعث فى سوريا

(من عام ١٩٤٧ — الى عام ١٩٦٦)

من المحال ان نفهم اهمية الدور الذى يلعبه الرئيس حافظ الأسد فى شئون الشرق الأوسط دون ان نضع فى الاعتبار المكانة التى تحتلها سوريا فى المنطقة ، فهذا البلد هو — عن وجه حق — قلب القومية العربية ، ويشكل علاوة على ذلك حاجزا استراتيجيا اساسيا يتحكم فى المرور من بلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية الى البحر المتوسط ، كما انه اخيرا لا يمكن تسوية اى مشكلة فى لبنان او فى فلسطين دون الموافقة السورية . وهو ما ادركه حافظ الاسد تماما حين استغل موقع بلاده الأساسى اقصى استغلال .

ومن المؤكد ان سوريا الحالية ، بتعداد سكانها البالغ ٩ر٥ (١) مليون نسمة ، ومساحتها التى تبلغ ١٨٥ر٠٠٠ كيلو متر مربع تختلف عن سوريا الكبرى التى امتدت منذ العصور القديمة على اراض شاسعة كانت تتقاسمها كل من سوريا الحالية ولبنان وفلسطين والاردن ، وقد تام انطون سعادة مؤسس الحزب الشعبى السورى الذى ناضل من اجل تلك الدولة السورية الكبرى ايضا بضم العراق وقبرص الى الهلال الخصيب .

وتفتتت سوريا الكبرى — بلاد الشام — عقب نشوب الحرب العالمية الأولى ، فى الوقت الذى كانت تعد مهد الثورات العربية الاولى ضد الامبراطورية العثمانية ومركز القومية العربية الحديثة مع المنظمات السرية (مثل الوطنية ، والعهد ، والفتاح) التى كانت سبب اندلاع الثورة الكبرى ضد تركيا فى الفترة ما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٤ .

---

(١) ٧٥٪ من المسلمين السنيين ، ١٠ الى ١٢٪ من العلويين ، ٧ الى ٨ ٪ من المسيحيين ، ٤ ٪ من الدروز .

والواقع انه بعد الحرب رفض الحلفاء — ولا سيما البريطانيون — الوفاء بالوعود التى منحـوها للشريف حسين وللأمير فيصل ، ولم يعد هناك اذن مجال للحديث عن وحدة الأمة العربية ، او حتى عن الاستقلال ، وهكذا تم ايفاد الجنرال « جورو » الى المشرق فى مهمة للاطاحة بحكومة الأمير فيصل الذى عين ملكا على سوريا الكبرى (سوريا ، لبنان ، فلسطين والضفة الشرقية لنهر الأردن) من قبل مؤتمر وطنى عقد بتاريخ ١١ مارس عام ١٩٢٠ .

وقد نفذ الحلفاء بالفعل خيانتهم تجاه العرب فى شهر ابريل عام ١٩٢٠ وذلك بالعمل على تفتيت أوصال سوريا التاريخية واقامة نظام الانتدابات على أراض رسمت حدودها بطريقة تعسفية .

وعهد الى فرنسا بالانتدابات على لبنان الجديدة وسوريا، بينما احتصت بريطانيا العظمى بالانتداب على فلسطين ، والضفة الشرقية لنهر الاردن والعراق ، وفى شهر يوليو عام ١٩٢٠ استولى جيش « جورو » على دمشق وقام بطرد الملك فيصل الذى نودى به ، فيما بعد ، ملكا على العراق .

غير ان فرض الانتداب الفرنسى على سوريا المجزاة والدور الغامض الذى لعبه البريطانيون الذين شجعوا — منذ تصريح بلفور (١٩١٧) بعض الجماعات الصهيونية — القادمة من أوروبا الشرقية او الغربية على دخول فلسطين ، كل هذا اثار خيبة امل شديدة لدى العرب ولاسيما لدى السوريين الذين شنوا ثورات مسلحة عديدة على الدولة المنتدبة ، وعلى الصعيد السياسى فقدت فرنسا ايضا سيطرتها على الموقف ، ففى عام ١٩٢٨ انتخبت جمعية تأسيسية باغلبية وطنية وتم حلها فى عام ١٩٣٠ ، ولم يحظ الشعب السورى الا باستقلال شكلى فى عام

١٩٤١ بسبب الخلاف بين فرنسا الحرة وحكومة المارشال « بيتان » .

غير ان فرض الانتداب الفرنسى على سوريا المجزاة والدور الغامض الذى لعبه البريطانيون الذين شجعوا — منذ تصريح بلفور (١٩١٧) بعض الجماعات الصهيونية — القادمة من اوروبا الشرقية او الغربية على دخول فلسطين ، كل هذا اثار خيبة امل شديدة لدى العرب ولاسيما لدى السوريين الذين شنوا ثورات مسلحة عديدة على الدولة المنتدبة ، وعلى الصعيد السياسى فقدت فرنسا أيضا سيطرتها على الموقف ، ففى عام ١٩٢٨ انتخبت جمعية تأسيسية باغلبية وطنية وتم حلها فى عام ١٩٣٠ ، ولم يحظ الشعب السورى الا باستقلال شكلى فى عام
١٩٤١ بسبب الخلاف بين فرنسا الحركة وحكومة المارشال « بيتان » .

واستؤنفت المظاهرات وبصورة اشد عقب عام ١٩٤٥ ، واصدر الجنرال ديجول أمرا بوقف اطلاق النار وغادر الفرنسيون البلاد يوم ٣٠ ابريل عام ١٩٤٦ ، واخيرا نالت سوريا استقلالها بالفعل ودخلت منظمة الامم المتحدة ، ومنحت دستورا برلمانيا وانتخب شكرى القوتلى رئيسا لها فى عام ١٩٤٣ .

بيد ان « استقلال سوريا لم يجمل الشعب السورى ينسى واجبه حيال البلدان العربية الاخرى » — كما اعلن ميشيل عفلق زعيم حزب البعث الفتى — ومن ثم عارضت سوريا خطة تقسيم فلسطين التى عرضت على منظمة الامم المتحدة يوم ٢٩ اكتوبر عام ١٩٤٧ ، واشتركت فى حرب فلسطين الاولى فى عام ١٩٤٨ ، واحرز الجيش السورى ، الذى عرف ببسالته ، بعض النجاح وارغم العدو الاسرائيلى على التقهقر ، الا ان الشعب السورى شعر بسخط بالغ بسبب الكارثة النهائية التى

نجمت عن عدم التنسيق بين الجيوش العربية ، وتجلى هذا الشعور بالحنق حيال حكومة دمشق ، ودخلت البلاد حقبة من التوتر الشديد ، وفى عام ١٩٤٩ بدأت سلسلة مذهلة من الانقلابات العسكرية رسمت صورة موجزة فعلية للحياة السياسية فى البلاد فى الفترة ما بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٧٠ ، أن تاريخ سوريا المعاصرة بالكامل هو تاريخ الصدام بين العسكريين والمدنيين الذين سعوا الى اقامة نظام حكم ديمقراطى .

ويعتبر انتصار حافظ الاسد النهائى فى عام ١٩٧٠ شاهدا على نجاح الحكم العسكرى الذى تمثل فيما بعد فى رجل وجماعة .

فقد تم اول انقلاب فى شهر مارس عام ١٩٤٩ على يد لواء عائد من الجبهة الفلسطينية هو حسنى الزعيم .

وفى شهر اغسطس من نفس العام قام العقيد سامى الحناوى بطرده وحاول اعادة الاحزاب السياسية والحياة الدستورية بتسليم السلطة الى هاشم الاتاسى ، احد المدنيين ، فاقام هذا الاخير حكومة وحدة وطنية ضم اليها ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث ، وقد مارس فيلسوف حزب البعث منصب وزير التربية الوطنية على مدى بضعة اشهر ، وهو المنصب الحكومى الوحيد الذى شغله فى حياته السياسية . بيد أن الجيش الذى لم يحتمل ان يبعد عن الحكومة احدث انقلابا بقيادة العقيد الشيشيكلى الذى تولى السلطة من شهر ديسمبر عام ١٩٤٩ الى شهر فبراير عام ١٩٥٤ ، وابتداء من ٢ ديسمبر عام ١٩٥١ ، اشتدت ديكتاتورية الشيشيكلى وقام بحل الجمعية الوطنية ، وفى شهر يوليو عام ١٩٥٣ نصب نفسه رئيسا للجمهورية فى الوقت الذى قاطعت الاحزاب السياسية الانتخابات ، ونظمت المعارضة صفوفها ، وطالبت بالعودة الى الديمقراطية ، واصبح الحزب الرئيسى هو حزب البعث العربى والاشتراكى الذى نشأ عن اتحاد حزب

البعث العربى بقيادة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار والحزب الاشتراكى بقيادة اكرم الحورانى ، واصبحت تلك الاسماء الثلاثة منذ ذلك الحين لا تنفصل عن تاريخ سوريا . وتم اعتقال عفلق والبيطار والحورانى فى عام ١٩٥٣ ، ولكنهم تمكنوا من الهرب بفضل تواطؤ بعض الضباط البعثيين ولجاوا الى لبنان . واخذ الوضع يتدهور فى البلاد . وفى يوم ٢٧ فبراير ١٩٥٤ فضل رئيس الدولة مغادرة البلاد ، وللمرة الوحيدة خلال خمسة وثلاثين عاما شهدت سوريا تغيير نظام الحكم فيها بدون اراقة الدماء او حدوث انقلابات . وفى اول مارس عاد الرئيس السابق الاتاسى الى دمشق ليعيد دستور عام ١٩٥٠ والحياة البرلمانية . وفى شهرى سبتمبر واكتوبر عام ١٩٥٤ سمحت الانتخابات الحرة للاحزاب بالتعبير عن نفسها . انه العهد الذهبى للديمقراطية فى سوريا ، والذى استمر اربعة اعوام .

وقد شهد هذا التاريخ أول ظهور له ثقله لحزب البعث العربى والاشتراكى على المسرح الوطنى . اذ عهدت حكومة الوحدة الوطنية بوزارة الخارجية لصلاح البيطار الذى سلك على الفور طريق الوحدة مع مصر ، طبقا للمذهب الوحدوى العربى للحزب .

ومنذ تلك الفترة لم تنفصل الحياة السياسية السورية فعلا عن تطور حزب البعث الذى دعى — علاوة على ذلك — للقيام بدور هام على المسرح العربى ، ولاسيما فى العراق حيث أخذ يمارس السلطة الفلسفية والسياسية وبجميع المفكرين العظام الذين برزوا فى تلك الفترة أمثال ، ماركس ، وتولستوى ، ودستوفسكى ، ونيتشه ، وموراس ، وبرجسون ، ومونييه » وقام ايضا بتأسيس اتحاد الطلبة العرب فى فرنسا والذى استهدف الدفاع عن الافكار المنادية باستقلال ووحدة الامة العربية . وفى باريس التقى بسورى آخر مسلم من دمشق

له اهتمامات قريبة جدا من اهتماماته وهو صلاح الدين البيطار .

وبعد ان حصل على شهادة الليسانس فى التاريخ فى عام ١٩٣٢ عاد ميشيل عفلق الى دمشق وبدأ فى التدريس ، وظل يتابع حياة مناضلة نشطة من اجل الاستقلال . وقامت السلطات الفرنسية بالقبض عليه لبضعة ايام فى عام ١٩٣٨ . وفى عام ١٩٣٩ قرر بالاشتراك مع صلاح الدين البيطار ، تاسيس حلقة للفكر السياسى حول القومية العربية : « الاحياء العربى » ، و « البعث العربى » . وبعد ذلك بفترة وجيزة انضم عفلق والبيطار الى زكى الارزوزى وهو علوى من مدينة الاسكندرونة . وفى عام ١٩٤٢ ترك ميشيل عفلق التعليم ليكرس نفسه للسياسة ، وفى عام ١٩٤٦ قام بالاشتراك مع البيطار بتأسيس صحيفة البعث اليومية التى سرعان ما اصبحت صحيفة الحزب الجديد الذى اعلن ميلاده رسميا فى عام ١٩٤٧ .

وعقد اول مؤتمر لحزب البعث العربى فى شهر ابريل عام ١٩٤٧ فى دمشق . ويعتبر هذا التاريخ هو التاريخ الرسمى لتاسيس الحزب ، ويحتفل به ، بهذه الصفة ، جميع المناضلين اينما كانوا فى السلطة او فى المعارضة ، فى السر او فى المنفى . وعند نشوب الحرب الفلسطينية الاولى (فى عام ١٩٤٨) جند الحزب الفتى نفسه للنضال وتطوع ميشيل عفلق للقتال بين صفوف المتطوعين العرب . وفى عام ١٩٥٣ اتحد حزب البعث مع الحزب الاشتراكى العربى الذى اسسه اكرم الحورانى احد السنيين من مدينة حماة وهو يعيش اليوم فى المنفى فى باريس . وصار هذا الحزب هو حزب البعث العربى الاشتراكى ، واعتبارا من عام ١٩٥٤ شارك فى الحكم فى سوريا .

وقد اثر هذا الحزب بأيديولوجيته ، التى تتميز بنوعية خاصة للغاية ، تأثيرا شديدا على التاريخ الفكرى والحياة السياسية للامة العربية طوال الشطر الثانى من هذا القرن وعلى الاخص فى سوريا ، وكذلك فى العراق ، ولبنان ، والاردن ... فحزب البعث هو فى الاصل مذهب وقد اجرى على المستوى الايديولوجى والفكرى تجديدات عميقة تدور حول فكرتين رئيسيتين : هما وحدة الامة العربية ، وفكرة معينة عن الانسان . فميشيل عفلق « فيلسوف الحزب » يرى ان الانسان هو محور جميع الاهتمامات وانه يجب خلق « انسان عربى جديد » يمكن ان يرد على تحديات الحاضر والمستقبل ، وفى رأى عفلق ان الانسان هو الاساس على خلاف ما يؤكده الفكر الماركسى ، وبصفة أعم ما تؤكده جميع الافكار الشمولية فهو ليس اداة الثورة وانما الثورة هى اداة فى خدمة الانسان .

وحول الامة العربية والانسان العربى — اى حول هاتين الفكرتين الرئيسيتين — قام مفهوم ثلاثى ايديولوجى مثالى هو : « الوحدة ، والحرية والاشتراكية » . واهم تلك المفاهيم الثلاثة بلا شك هو مفهوم الوحدة .

وينادى حزب البعث بالوحدة العربية ، اى بتوحيد الامة العربية كلها ، من « المحيط الاطلنطى الى الخليج » . وشعار الحزب هو « امة عربية لها رسالة خالدة » . وكما يؤكد : « ان العرب يشكلون امة واحدة من حقها الطبيعى ان تعيش فى ظل دولة » .

وكثيرا ما اثارت فكرة قيام امة عربية جدلا . فاذا اعتبرنا ان اى امة هى اشتراك المصائر العامة يميزه شعب ولغة وحضارة فى اطار اراض تاريخية محددة ، فمن الواضح انه توجد أمة عربية ،

حتى وان كانت تلك الامة لا تنطبق تماما مع معايير الدولة ، تلك المعايير التى نلاحظها بصفة عامة فى اوربا(١) .

وتتمثل مهمة حزب البعث الاساسية فى العمل على توحيد العرب حيث انه « طليعة » الشعب العربى فى مسيرته نحو وحدته . كما يتعين على الحزب أن يعمل على خلق الظروف اللازمة لقيام « انقلاب » . وهو اللفظ الذى فضله ميشيل عفلق على لفظ الثورة . حيث اوضح أن المقصود بانقلاب هو انقلاب تام فى الوضع العربى « يجب أن يستهدف اطلاق طاقات الأمة العربية التى كانت مكبوتة حتى الآن »(٢) ، وهى نفس الفكرة التى نادى بها نيتشه ، والتى وردت فى تلك العبارة : « عبر عن ذاتك » ، ولكن هذا النداء موجه فى هذه المرة الى الانسان العربى .

وفى انتظار حدوث تلك الثورة حدد حزب البعث لنفسه ، كخطوة اولى ، رجوع العرب الى تاريخهم . وذلك بحثهم على ان يتكتلوا ويصونوا التركة العربية التى تشكل استمرارية روحية حافظت على الصلة الحتمية بين الماضى والحاضر ، وفى راى الدكتور ايلياس فرح — وهو واحد من اهم المنظرين الحاليين — ان القومية العربية « هى ، من جهة ، انطلاق نحو الوحدة ، ومن جهة اخرى ، هى تاكيد لكياننا بتاكيد مسئوليتنا عن التراث العلمى والفنى والروحى الذى يعبر عن التطور التاريخى لشعبنا(٣) .

وبما ان حزب البعث يناضل من اجل الكرامة ، ويكافح جميع

(١) انظر كتاب دى بلومين « الأمم الرومانتيكية » وتاريخ القومية الجزء الثانى للناشر فايار باريس .

(٢) كتاب « فى سبيل البعث » بيروت ١٩٤٣

(٣) حديث مع الكاتب بمجلة دراسات العلاقات الدولية رقم٢٧ الصادرة فى شهر ابريل ١٩٨٠ .

عوامل استعباد الانسان ، فهو يمثل انبعاث الشخصية : انه يمثل القومية بصفة كلية . وتلك النظرة القومية لا تثبت وجودها بمخالفة غيرها ، وانما تثبتها « بذاتها ومن أجل ذاتها »(١) ، ففى حين ان الايديولوجيات الدولية او العالمية تعد نظريات تجريدية فان النظرية القائمة على الامة — ذلك الاطار التاريخى والواقعى لمستقبل الانسانية — هى النظرية الوحيدة الواقعية التى يمكن للانسان بلوغها . فالقومية هى مذهب انسانى لانها تاكيد لرسوخ كيان شعب .

ويجدر بنا ان نذكر هنا الدور الذى عينه حزب البعث للاسلام . ان حزب البعث ، على خلاف ما يزعمه معارضوه ، لا ينكر الظاهرة الاسلامية رغم أنه يعتبر حزبا علمانيا .

فهو يعتبر بالطبع اول حزب عربى علمانى كبير يستبعد فكرة أن يكون هناك دين للدولة . ويأبى ان يتخذ الدين كاساس تشريعى او كاساس اخلاقى . وهو فى هذا الصدد بالفعل حزب حديث ومجدد . بيد ان هذا لا يعنى على الاطلاق رفضه للاسلام .

ويعتقد ميشيل عفلق أن الاسلام هو الوسيلة التى ادت الى نشر القومية العربية ، لانه كان الدافع الحيوى الذى كشف للعرب عن القوى الخفية الكامنة فيهم ، والتى دفعت بهم الى مسرح التاريخ . ويقول ميشيل عفلق « ان الاسلام هو افضل تعبير عن رغبة الامة العربية فى البقاء والعالمية ، فالاسلام عربى من حيث الواقع ، وعالمى من حيث مثله العليا » (٢) .

(١) « فى سبيل البعث » الكتاب السابق الاشارة اليه .

(٢) من خطاب له فى ذكرى الرسول — صلى الله عليه وسلم (دمشق ٥ ابريل ١٩٤٣) ترجم بالعدد رقم ٢٧ من مجلة «دراسات العلاقات الدولية » الصادرة فى شهر ابريل ١٩٨٠ صفحة ٥٧ وما بعدها .

وهكذا يرى مؤسس حزب البعث ان العرب لا يمكن ان ينظروا الى الاسلام على انه مجرد دين ، فهو يشكل جانبا هاما من تراثهم الثقافي والتاريخي ، وهو احد عناصر القومية العربية والكيان العربي . ونظرا لاهتمام حزب البعث بالجانب التقدمي والثوري للدين الاسلامي ، فقد يكون الحزب هو المذهب الوحيد في العالم الثالث الذى يولي المسالة الدينية مثل تلك المكانة الهامة في عملية التقدم والحرية .

وتتمثل الركيزة الثانية للفكر البعثي في الحرية اى في الاستقلال والرد على تحديات الأمة العربية الراهنة .

وقد ناضل حزب البعث — الذى ولد في الفترة الاستعمارية — اولا من اجل الحرية الوطنية ، ولم يفرق بين مشكلة الحرية ومشكلة الاستقلال وقد وجد نفسه في نفس الوقت في مواجهة صورة جديدة من صور الاستعمار (الامبريالية) تتمثل في قيام كيان صهيوني في نهاية الحرب العالمية الثانية وفي مواجهة التحالف بين الامبريالية الجديدة — امبريالية الولايات المتحدة — والدولة الصهيونية التى سلبت جزءا من أراضي الشعب العربي .

ففي الوقت الذى اصبحت وحدة الأمة العربية هي الهدف الاسمى المراد بلوغه بين ترتيب الأهداف الاستراتيجية ، اتخذ النضال من اجل الحرية طابعا اوليا على مر الأعوام . فكان من الضروري مواجهة التحديات الراهنة للأمة العربية ، اى مكافحة الامبريالية والصهيونية كما كان يتعين علاوة على ذلك تحقيق الظروف اللازمة لاستمرار الاستقلال الذى تم نيله اخيرا ويرجع الفضل لحزب البعث في انه تجاوز اطار الاستقلال الشكلي سعيا لتحقيق الظروف اللازمة للحفاظ على الكيان الوطني في الميادين السياسية والثقافية والاقتصادية . ولم يغفل حزب البعث ابدا الجانب الاقتصادي ، ودعا الى ايجاد حلول مناسبة ليس فيها اى

محاكاة للأنظمة او الايديولوجيات الأجنبية الغربية او الماركسية . انه نظام اشتراكي ذات نوعية خاصة .

ويميل قادة حزب البعث — الذين يتجنبون عادة المحاكاة الايديولوجية والشعارات المجردة — الى التأكيد بأن مذهبهم هو « نهج عربي نحو الاشتراكية » . ويعتبر حزب البعث نتاجا خاصا لفكر علمي مطبق على اطار اشتراكي محدد : هو الأمة العربية والفكر الاشتراكي لحزب البعث ليس بفكر دوجماتي ولا بفكر ميتافيزيقي ، وانما يمكن تعريفه بأنه نظرية تجريبية ايجابية .

عندئذ لا تبدو الاشتراكية كنظام مثالي ، وانما كأداة للتقدم والنمو ، انها أداة لتشييد مجتمع جديد ، وليست نظاما بيروقراطيا كما انها تفرد مكانا واسعا للانسان .

ولم يغفل ميشيل عفلق ابدا ان يؤكد على اهمية الفرد ، وهو ينتقد بعنف « الفلسفة الشيوعية لأنها فلسفة مادية لا تهتم الا بالجماعة ولا تولي الفرد الا مكانة ضئيلة »(١) . وتلك احدى نقاط الخلاف العديدة مع النظريات الماركسية التى يرفضها حزب البعث باسم النوعية الخاصة التى يتميز بها فكره . « فلا شأن لنا بالدولية البروليتارية ، فنحن قوميون عرب» هذا ما يقوله البعثيون الذين لا ينظرون الى الاشتراكية الا في اطار الواقعية الوطنية ويعتبر حزب البعث ردا حقيقيا على الدولية التى تنكر اهمية الواقع الوطني ويقول ميشيل عفلق : « ان الماركسية هي نتاج الفكر الأوروبي .. ولا توجد اى صلة ولا اى قرابة بين الشيوعية وتقاليد العرب الثقافية (٢) .

---

(١) كتاب في سبيل البعث .

(٢) نفس المصدر السابق .

فلا محاكاة ، ولا استعمار نفاق كما كان الحال دائما فى المغرب حيث تبنت « الطبقة المثقفة » النهوج التقانية التى ينتهجها اليسار الغربى . ولما كان ميشيل عفلق هو رائد نظرية حيوية وواقعية ذات نوعية خاصة ، فربما يعتبر احد آباء نظرية « النهج الثالث » نحو التنمية والاستقلال . ومن ثم سجل حزب البعث مساهمة اساسية فى تطور القومية العربية ، وكذلك فى حركة التحرر الكبرى فى عصرنا .

وعلى غرار الديجولية والناصرية فقد أثر حزب البعث تأثيرا شديدا على حركة التحرر الوطنى الحديث .

وفيما يتعلق بالأمة وهى الساحة المميزة لاعمال الحزب التطبيقية يقول البروفسور بيرك :ان حزب البعث هو أكثر الحركات حجية من الناحية النظرية (١) فهو يمثل مرحلة اساسية فى تطور الشعور القومى العربى ، وعلى غرار الناصرية سجل الحزب تحولا لا رجعة فيه فيما يختص بالمستقبل العربى ، اذ وضع دعائم من المحال انكارها او تجاهلها ان لحزب البعث ايضا اهمية أكبر ذكرها الجنرال روندو بصورة دقيقة على النحو التالى : « لقد تبين الحزب بصفة تدريجية رسالته التى امتدت خارج نطاق الامة العربية الى جميع بلدان العالم الثالث » . وحزب البعث هو فى الحقيقة نظرية من نظريات العالم الثالث تكيفت مع الطابع العربى الخاص . وهو يعرض نفسه على جميع البلدان النامية كنهج انسانى وايجابى ثالث نحو الاستقلال السياسى والتقدم الاشتراكى الاقتصادى .

واخيرا يعد حزب البعث اسهاما فى الفكر العالمى المعاصر لانه

---

(١) حديث مع شارل سانت برو فى مجلتى الشرق الاوسط والعالم الثالث يونيه ١٩٨٣ .

بصفة اساسية تأكيد للكيان فى مواجهة أنظمة مادية تسوى بين الطبقات ، انه محاولة من جانب شعب لاسترجاع تاريخه ، وبهذه الصفة يعد حزب البعث على وجه الدقة مذهبا انسانيا .

بيد انه لا كرامة لنبى فى وطنه ، اذ ان احد الرجلين اللذين قاما بتأسيس حزب البعث — وهو صلاح الدين البيطار مات مغتالا فى باريس فى شهر يوليو عام ١٩٨٠ ، اما الآخر فيلسوف الحزب ومؤسسه فيعيش فى المنفى فى بغداد بمارس وظيفته كسكرتير عام الحزب ، وكمسئول أول عن القيادة القومية (العربية) ، الا انه فى عام ١٩٥٤ رأى ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار جهودهما تكلل بالنجاح بفضل التجربة الحرة واسترداد المدنيين لسلطتهم على البلاد فى ظل رئاسة شكرى القوتلى وأحيا الحزب صحيفته « البعث » بقيادة البيطار الذى ظل حتى مماته الصاحب الشرعى لتلك الصحيفة اليومية والتى استولى عليها فيما بعد نظام حكم الرئيس الاسد . ونال حزب البعث ستة عشر مقعدا فى الانتخابات البرلمانية ، وخاض نشاطا مكثفا على الجبهة الداخلية فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى حيث تولى وزارة الاقتصاد ، وعلى الصعيد الخارجى تولى وزارة الخارجية (صلاح الدين البيطار) ، وهكذا هاجم الحزب حلف بغداد (الموالى لامريكا) ، هجوما شديدا أو بصفة خاصة مسألة السويس فى عام ١٩٥٦ .

وفى تلك الفترة تطور موقف البعثيين حيال نظام حكم العقيد ناصر بصورة مؤيدة ، وفكروا فى انشاء جبهة قومية عربية معارضة للاحلاف الغربية والتدخلات بكافة أشكالها — من الغرب أو الشرق التى تستهدف ربط نظام الحكم بمنطقة نفوذ احدى الدولتين الكبيرتين ، وقد صرح ميشيل عفلق بقوله : اننا نأبى أن نكون حجرا من أحجار الشطرنج فى اللعبة التى تلعبها هاتان الدولتان

او تكون منطقة حساسة من مناطق مصادماتهما ، فالاتحاد بين الدول العربية هو ضرورة استراتيجية ويمثل عاملا من عوامل الاستقلال لانه سيتعذر على أى من الدولتين المهيمنتين التهام تلك اللقمة .

ومن ثم وفى يوم ١٧ ابريل عام ١٩٥٦ اطلق ميشيل عفلق الشعار التالى : « الوحدة الشعبية بين مصر وسوريا » . متصديا بسورة مباشرة لصعود الحزب الشيوعى بقيادة خالد بكداش الذى دعا من جانبه الى الانحياز الى موسكو ، وبذل حزب البعث جهودا كبيرة من اجل الاتحاد مع مصر ، وعمل على التغلب على تحفظات عبد الناصر وصرح ميشيل عفلق قائلا :« ان الحكومة السورية وجدت صعوبة فى تبديد المخاوف الاخيرة التى استبدت بالرئيس والذى كان يعتقد أن المسألة ليست ناضجة بعد ، لذلك اضطررت الى التوجه بنفسى الى القاهرة لكى أدعو عبد الناصر الى التعجيل بالحركة .. وبعد ثمانية واربعين ساعة ، كانت المسألة قد تمت ، (١) .

وفى اول فبراير عام ١٩٥٨ ولدت الجمهورية العربية المتحدة وفى يوم ٢٢ فبراير أتى استفتاء عام بناصر على رأس الدولة الجديدة ، وتالفت حكومة يوم ٦ مارس عام ١٩٥٨ تضم خمسا من البعثيين من بينهم أكرم الحورانى وصلاح الدين البيطار ، الا انه سرعان ما اتضح أن تلك الوحدة التى كان من المفروض ان تحقق أمانى القادة البعثيين ذاخرة بالعقبات ، فقد وقعت خلافات تكتيكية هامة بين البعثيين والمصريين وذكر ميشيل عفلق قائلا : « ان الحزب اصيب بخيبة امل شديدة حين راى مشروعه الوحدوى قد حرف عند تطبيقه (٢) ، والواقع أن شخصية جمال عبد الناصر

(١) « الربيع العربى » لجاك بنواميشان .

(٢) حديث لمؤلف الكتاب مع الشخصية المذكورة .

القوية — ولكن بصفة خاصة البيروقراطية المصرية الهائلة سرعان ما كتما انفاس الطرف السورى الذى اعتبرته القاهرة باستخفاف اقليمها الشمالى ويذكر جان بيير ديرنييك أن الاتحاد الذى تحقق بشروط ناصر يعنى ضم سوريا لمصر ٠٠ مصر التى يمثل تعداد سكانهاخمسة أسداس تعداد سكان الجمهورية العربية المتحدة واقام بعض كبار الضباط الموظفون فى دمشق ، وشرعوا فى توطيد أسس جهاز الدولة المصرى « الموجه » ... ولم يحتمل السوريون نظام الدولة المصرى وسرعان ما تكشفت خيبة الآمال ، ولا نقصد الاساءة الى ذكرى هذا الرجل الوطنى العظيم الذى تمثل فى عبد الناصر حين نقول انه كان يريد حينذاك أن يكون سيد الوفاق المطلق، وانه كان يرىأن وزن مصر نفسها يبيح لهأن يبسط سيادته على سوريا لا أن يعتبر حلفاءه شركاء بصفة كاملة ، بيد انه من الواضح أيضا انه قد قامت فى الخمسينات منافسة حقيقية بين تطبيقى القومية العربية : الناصرية والبعث ، وعارض ناصر قيام الاحزاب السياسية بل أنه دعى الى حل تلك التشكيلات من أجل تأليف حزب واحد هو حزب الاتحاد القومى ، وارتكب حزب البعث ذلك الخطأ التاريخى بموافقته ، مما لم يكن من شأنه سوى تعزيز السلطة الفردية التى يندد بها من جهة أخرى ، هذا علاوةعلىأن حل تلك الاحزاب لم يسمح للقيادة المدنية فى حزب البعث بمواجهة الخطر المستمر من جانب العسكريين الذين بداوا من جانبهم ينظمون صفوفهم .

وقام ناصر بترقية عدد كبير من الضباط السوريينالمعروفين بولائهم لحزب البعث فى القاهرة ، لكى يتسنى له احكام سيطرته عليهم ، وقام أولئك الضباط بتشكيل « لجنة عسكرية » سرية فى مصر ومارست تلك اللجنة دورا كبيرا فى المستقبل ، وكان لنشأتها عواقب خطيرة على حياة الحزب فيما بعد ، ذلك الحزب الذى كان دائما يعتبر نفسه حزبا مدنيا يعارض هيمنة الزمرات

العسكرية ، وبعد استبعاد اللجنة العسكرية من القيادة الشرعية للحزب الذى تم حله ، فوق ذلك ، شهدت اللجنة نزعة مناوئة للوحدة وللناصرية ولعفلق تنمو بداخلها ، ومن بين الرجال الذين قادوا ذلك الاتجاه ، صلاح جديد احد العلويين ، وقد لعب دورا رئيسيا ، بالاشتراك مع محمد عمران ، وبين جماعتهم كان يناضل ضابط طيار شاب وهو علوى ايضا يدعى حافظ الاسد .

وفى دمشق تمت القطيعة بين حزب البعث ونظام الحكم المصرى فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٩ باستقالة الوزراء البعثيين ، فى الوقت الذى لاذت قيادة الحزب الى بيروت ، ومن لبنان نددت الصحف البعثية بالاوتوقراطية فى مصر المخالفة للتقاليد السورية « وادانت علاوة على ذلك روح السيطرة لدى المصريين ورغبتهم فى الهيمنة ، والواقع أنه فضلا عن شخصية ناصر الاسطورية كان النظام المصرى وعجرفته حيال شقيقه السورى ايضا موضع هجوم ، ولم يحارب حزب البعث الوحدة التى كان ينشدها ، وانما حارب الاتجاه السىء الذى اتخذته تلك الوحدة .

واشتدت حدة الغضب لدى الشعب السورى بسبب المشاكل الاقتصادية الخطيرة ، وذكر شبلى العيسامى احد أعضاء الطليعة التاريخية فى حزب البعث يقول : ان محاولة سيطرة احد طرفى الاتحاد على الآخر مهد للقطيعة التى تمت بالفعل بقيام انقلاب ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١ » (١) ، بيد أن حزب البعث بقيادة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار اصطدم فى الحال بنظام

---

(١) حديث لمؤلف الكتاب مع الشخصية المذكورة .

حكم الكسبرى الذى دفن كل فكرة للوحدة العربية ، والغى التأميمات ، واوقف الاصلاح الزراعى واعاد سلطة الطبقة المحافظة

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٦٢ قام نظام الحكم الجديد بحظر صحيفة الحزب ، بل حكم بالاعدام على بعض الضباط البعثيين لموقفهم الوحدوى . وفضلا عن ذلك شجع نظام الحكم الجديد اعداء حزب البعث التقليديين من الاخوان المسلمين بقيادة عطار والحزب الشيوعى بقيادة بكداش .

واخذ الموقف يتدهور مما ادى الى قيام انقلاب جديد يوم ٢٨ مارس عام ١٩٦٢ جاء بخالد العظم الى الحكم ، واتخذ ميشيل عفلق على الفور قرارا باعادة تشكيل الحزب ، بيد أن هذا الاخير أصبح يتألف من فرع مدنى وحدوى عربى (عفلق والبيطار) ، ومن اتجاه اقليمى سورى مناهض للوحدة (جديد والاسد ..) داخل اللجنة العسكرية ، وكان ذلك بداية فترة من الغموض دامت امدا طويلا ، كما كان تجسيدا للصراع الذى قام داخل حزب البعث أهم الاحزاب السورية بين الجانب المدنى والجانب العسكرى والذى هز البلاد منذ الاستقلال .

وكى نكون اكثر دقة فيما يختص باللجنة العسكرية ، يجب أن نشير الى أن تلك اللجنة لم تكن متجانسة ، وقد أوضح المشير امين الحافظ (١) رئيس الجمهورية الاسبق (١٩٦٣ — ١٩٦٦) يقول : « أن اللجنة التى كنت أيضا أحد اعضائها كانت فى الحقيقة منقسمة الى قسمين على الأقل : من جانب الضباط البعثيين الموالين لخط الحزب ولقيادة مؤسسيه ، ومن جانب آخر اتجاه يمكن اعتباره اتجاه منحرف اذ بادر بتدبير سلسلة من الدسائس أسفرت عن انشاء حزب داخل الحزب .

---

(١) حديث لمؤلف الكتاب مع الشخص المذكور .

بيد انه فى عامى ١٩٦٢ — ١٩٦٣ لم يكن هذا الناصل واضحا بعد . واعاد مشيل عفلق وصلاح الدين البيطار تشكيل الحزب وقاما بوضعه تحت قيادة اقليمية(١) . واصبحت اللجنة العسكرية تابعة لتلك القيادة من حيث المبدأ .

وفى يوم ٨ فبراير عام ١٩٦٣ تولى حزب البعث الحكم فى العراق . بعد أن اطاح باللواء عبد الكريم قاسم وصدر ميثاق ثلاثى يوم ١٧ ابريل من أجل قيام الوحدة السورية العراقية المصرية ، وعمل على معاونة رفاقه السوريين ، وبعد ذلك بشهر وفى يوم ٨ مارس عام ١٩٦٣ استولى الضباط البعثيون الذين حصلوا على مساندة الناصريين على الحكم دون عناء او اراقة دماء ، وأقيم مجلس وطنى لقيادة الثورة يضم عشرين ممثلا من جميع الحركات الوطنية ، مثل حزب البعث بما يشمله من ضباط ومدنيين ، والناصريين وبعض المستقلين التقدميين ، وعهد برئاسة الحكومة الى صلاح الدين البيطار الذى قام باستدعاء اللواء البعثى أمين الحافظ المستشار العسكرى فى الارجنتين لشغل منصبى وزير الداخلية ، ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، بينما عهد برئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة الجمهورية الى اللواء الأتاسى .

ودارت محادثات مع القاهرة من أجل اقامة اتحاد ثلاثى يضم مصر وسوريا والعراق ، بيد أن الوفاق بين حزب البعث ونظام الحكم المصرى لم يدم طويلا ، وخاض الطرفان مفاوضات عنيفة

---

(١) المفهوم البعثى للاقليمية او القطرية يشمل دولتى سوريا والعراق فى حين ان تعبير القومية يشمل مجموع الامة العربية .

اتهم فيها كل منهما الآخر « بالانتهازية » و « الخيانة » رغم الميثاق الذى وضع يوم ١٧ ابريل عام ١٩٦٣ ، والذى طالب بايعاز من البعثيين العراقيين بقيام جمهورية عربية متحدة جديدة بين دمشق وبغداد والقاهرة . ولكن لم ينته الخلاف .

وشجع ناصر — الذى كان ينشد هذا الاتحاد بشرط ان يكون زعيمه — على قيام انقلاب ١٨ يوليو فى دمشق ، واستمر حلم الوحدة ، وخاب امل اللواء الاتاسى ، فقدم استقالته يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٦٣ ، وحل محله اللواء أمين الحافظ فى رئاسة مجلس قيادة الثورة ، وبموجب الدستور الذى صدر يوم ٢٥ ابريل عام ١٩٦٤ اصبح اللواء أمين الحافظ رئيسا للجمهورية يوم ١٤ مايو .

ومن جانبه ظل صلاح الدين البيطار يشغل منصب رئيس الوزراء وبقى حزب البعث فى الحكم وسعى الى تطبيق أفكار فيلسوفه ميشيل عفلق . كما كان عفلق والبيطار قائدا القيادة القومية (العربية) للحزب ، ولم يغفلا فكرتهما الرئيسية الا وهى تحقيق الوحدة العربية ، وسعيا الى استئناف الحوار مع ناصر ، عندئذ تكشف الاتجاه الانعزالى الشهير المناهض للوحدة الذى انتهجته اللجنة العسكرية ، فقد كانت اللجنة تريد أن تقود الدولة بمفردها بواسطة القيادة الاقليمية (السورية للحزب) حيث تتمتع بنفوذ بالغ . فهى ملتفة حول مجموعة من الضباط من ابناء الفلاحين من منطقة اللاذقية العلوية .

وتحت ستار النزعة الاقليمية السورية قامت بنشر روح طائفية علوية خطيرة وكان الرجل القوى فى تلك المجموعة هو صلاح جديد الذى كان يقود عصبة عسكرية من العلويين والدروز . ولتبرير معارضته اشترك فى مزايدة يسارية داعيا على سبيل المثال الى افكار بعيدة تمام البعد عن أفكار حزب البعث مثل صراع الطبقات او تاميم صغار التجار ، وادانت القيادة القومية التى ضعفت

بسبب الاطاحة بحزب البعث فى العراق (فى شهر نوفمبر عام ١٩٦٣) تلك الشطحات .

وحاول صلاح الدين البيطار رئيس الوزراء أن يحد من قوة العسكريين ، وان يعيد الجيش الى ثكناته من أجل اعادة النظام فى الحزب ، واراد علاوة على ذلك ان يوسع المجلس القومى لقيادة الثورة بمعاونة شبيلى عصامى . وتبين المعارضون الخطر ، وقرروا الاطاحة بقيادة الحزب التاريخية .

وفى يوم ٢٣ فبراير عام ١٩٦٦ اطلق اللواء صلاح جديد قوات العقيد سليم حاتوم لمهاجمة مقر رياسة الجمهورية حيث حاول الرئيس أمين الحافظ المقاومة بلا جدوى ، وأصيب فى ساقه ، وتم القبض عليه ، وطرد المسئولين التاريخيين فى الحزب ، واعدم الضباط الموالين للحكم .

وظهر خلف صلاح جديد الرجل القوى الحقيقى فى نظام الحكم الجديد رجل عسكرى علوى آخر هو اللواء حافظ الأسد الذى عين وزيرا للدفاع ، وعهد برئاسة الجمهورية لاحد المدنيين البعثيين هو الدكتور نور الدين الاتاسى وبرئاسة الوزراء ليوسف زعيم ، وكانت أول مهمة يقوم بها نظام الحكم الجديد ـ الذى انتهج الخط المتطرف الذى كان يتبناه صلاح جديد ـ أن عمد الى تصفية القادة التاريخيين فى الحزب واقصاء مؤسسيه ، ولاذ ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار الى العمل فى الخفاء ، واستغل الحكم الجديد محاولة الانقلاب المضاد الذى قام به العقيد حاتوم الذى اراد اعادة البيطار ، وفى يوم ٨ سبتمبر عام ١٩٦٦ شدد الحكم الجديد عمليات تمعية ؛ فأجريت بعض الاعتقالات بين كوادر الحزب ومناضليه وتم اعتقال مشيل عفلق وشبيلى عصامى ، وعندئذ لجأ صلاح الدين البيطار الى بيروت .

ولم يكن هناك شك بالنسبة للبعثيين الموالين للحكم فى ان الانقلاب يعتبر خيانة للحزب ، وقد ذكر شبيلى عصامى (١) الذى يقيم حاليا فى بغداد حيث يشغل منصب أمين عام مساعد القيادة العربية قائلا : انه على الرغم من التصريحات « اليسارية » التى ادلى بها نظام الحكم الذى نشأ عن انقلاب ٢٣ فبراير ، الا ان نظام الحكم لم يكن يشارك حزب البعث العربى الاشتراكى تطلعاته القومية والثورية . فالقائمون بذلك الانقلاب ـ رجال اللجنة العسكرية ـ كانوا دائما يمثلون مصالح خاصة ، انهم اقليميون تماما (سوريون) ، ولا يلتزمون على الاطلاق بمبادىء الحزب .

واضاف عصامى : ان الزمرة الحاكمة كى تبرر ذلك الانشقاق الحقيقى خلعت على نفسها صفة « اليسار » ولجأت الى مزايدة شفهية غريبة حول المسائل الاجتماعية والوطنية ، وبتلك الافعال أثبتت مخالفتها لمبادئها المزعومة ، مما أدى فى عام ١٩٧٠ الى استيلاء أحد اتباعها على السلطة ، نفس ذلك الشخص الذى كانت الزمرة الحاكمة تتأهب لمحاكمته بسبب الخيانة .

وهنا تبدأ محاكمة ذلك الذى كان سيصبح بالفعل سيد سوريا القوى ، فالذين تولوا التحقيق فى الدعوة هم ـ وهو الأمر الغريب ـ من مناضلى حزب البعث وقادته ، فى الوقت الذى احتفظ المسئولون الجدد فى سوريا لأنفسهم بشارة الحزب ومؤسساته ، وكل بلبلة ذلك العهد الفريد تبدأ اعتبارا من عام ١٩٦٣ . وحرصا على التوضيح ، يجب اذن أن نطلق صفة حزب البعث نصير الشرعية على الفريق الذى قام بتأسيس الحزب وأنصاره الذين عارضوا انقلاب عام ١٩٦٦ ، واستيلاء

(١) حديث للمؤلف مع الشخصية المذكورة .

حافظ الأسد بصفة خاصة على الحكم . ويقول هذا الفريق ان القطيعة مع اللواء الأسد كانت تامة ، ذلك أنه – على حد قول الدكتور ايلياس فريح (١) – من الخطأ التحدث عن وجود فرعين معارضين فى الحزب . فليس هناك اى خلاف بين اتجاهى حزب البعث . انما هناك حزب البعث بمؤسسيه وكوادره التاريخية ، وقادته ومناضليه من جهة ، وهناك من جهة أخرى جهازا اغتصب صفة الحزب البعثى لاحتياجه اليها حتى يخفى أنه لا هدف له سوى الحكم من أجل الاستمتاع بالحكم .

والواقع انه اذا كانت بعض الأحزاب أو بعض رجال السياسة السوريين قد أقاموا علاقات غامضة مع نظام حكم الرئيس حافظ الأسد ، بانتقالهم من المعارضة الى التعاون ، فقد اعتبر حزب البعث التاريخى ونصير الشرعية القطيعة مع حافظ الأسد قطيعة تامة ، وان مناضليه يشكلون أشد المعارضات دأبا واصرارا لنظام الحكم منذ عام ١٩٦٦ وخاصة منذ عام ١٩٧٠ .

وصارت الادانة منذ المؤتمر القومى (العربى) الخامس للحزب الذى انعقد فى شهر مارس عام ١٩٦٨ فى لبنان ، فى حضور ميشيل عفلق امينه العام ، ادانة تامة لارجعة فيها .

« فقد كرر المؤتمر ادانته للتمرد الذى قام يوم ٢٣ فبراير عام ١٩٦٦ . اذ يشكل هذا التمرد حركة عسكرية اقليمية مشبوهة هدفها تخريب دعائم الحزب من الداخل باعلان انتسابها اليه ،

---

(١) ولد فى حلب بسوريا ويعتبر من أهم فلاسفة حزب البعث وهو يشرف على مدرسة كوادر الحزب فى بغداد ، وقد أصدر عدة كتب منها « تطور الايديولوجية العربية المعاصرة » (ترجم الى الفرنسية) وكتاب « الفكر العربى أمام التحديات المعاصرة » وأخيرا كتب تحليلا لكتاب « ميشيل عفلق على طريق التجديد » .

وتحريف فكره ، وتشويه صورته حتى يصبح حزب البعث مكروها من الشعب العربى » .

وكى يثبت المؤتمر رغبته فى المضى فى طريق الوحدة العربية من جهة ، والاطاحة بنظام الحكم الانقلابى من جهة أخرى ، عهد المؤتمر الى صلاح الدين البيطار بتكوين جبهة وطنية شعبية بالاشتراك مع قوى الثورة العربية الاخرى ، ولا سيما الناصريين الذين يطاردهم أيضا نظام الحكم الجديد فى دمشق . بيد أن هذه الجبهة أصبحت لها مهمة أوسع بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، اذ وضعت لنفسها هدفا يتمثل فى تجميع كافة القوى الوطنية من أجل التحرر العربى .

ويقول شبيلى عصامى «ان حزب البعث ظل اذن قائما على الرغم من المحن ، ورغم رغبة القائمين بانقلاب عام ١٩٦٦ الشرسة فى القضاء على حزبنا الا انهم لم يتمكنوا من الحيلولة دون بقائه ومواصلة نضاله ، كما لم يتمكن انقلاب عام ١٩٧٠ من الحيلولة دون استمراره » .

بيد أنه فى عام ١٩٦٦ لم يأت الانقلاب – الذى قام فيه حافظ الأسد بدور ثانوى – بجماعة موحدة فعلا الى الحكم . اذ تصدت طغمة عسكرية أخرى التفت حول وزير الدفاع (حافظ الأسد) « للنزعة اليسارية » الديماجوجية بقيادة صلاح جديد . واخذت العلاقات بينهما تتدهور بسرعة ، نظرا لاعتراض حافظ الأسد فى نفس الوقت على الاصلاحات الجذرية فى المجال الاقتصادى وعلى سياسة صلاح جديد الخارجية المنحازة لموسكو . ولم يتردد اللواء حافظ الأسد عن استغلال غضب الاغلبية السنية التى بدأت تتشكك فى الجماعة الحاكمة ، تلك الجماعة التى يشكل أصلها الدينى اقلية وهى « علوية ودرزية » بيد ان أول مناوشة وقعت بين حافظ الأسد وحكم جديد والاتاسى بمناسبة العدوان

الفصل الثانى

نظام الأسد

الاسرائيل فى شهر يونيو عام ١٩٦٧ ، فقد اتضح فى ذلك الحين ان الاوامر التى أصدرها وزير الدفاع ساعدت الجيش الاسرائيل على احتلال الجولان . ومنذ ذلك الحين ألقى الشك حول موقف وزير الدفاع ، بيد أن القطيعة لم تتضح الا بعد ثلاثة اعوام ، حيث ادت الى سقوط صلاح جديد .

وعند تدخل جيش الملك حسين ضد الفلسطينيين فى شهر سبتمبر عام ١٩٧٠ ، اصدر صلاح جديد أمرا للجيش السورى بمعاونة المقاومة الفلسطينية . بيد أن اللواء حافظ الأسد رفض تنفيذ هذا الأمر ، ولم يتخذ التدابير اللازمة له . وعلى الفور أدانه الحكم ، كما ادانه مؤتمر غير عادى الحزب حيث قرر دعوته للمثول امام سلطة قضائية ونقله ، وبعد تعرضه للهجوم عقد اللواء الاسد العزم على أن تكون له الغلبة ، فحصل عندئذ على مساندة مصطفى طلاس رئيس اركان الجيش .

وفى يوم ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠ أطاح بالرئيس نور الدين الأتاسى وصلاح جديد والقى بهما فى جب سحيق بسجن دمشق حيث لا يزالان قابعين حتى الان (١) .

وبعد الانقلاب الثانى لم يعد حزب البعث السورى سوى ظل لما كان عليه من قبل . ولدواعى عملية وسياسية قرر اللواء حافظ الأسد ان يسمى انقلابه « بحركة اصلاح » للحزب الذى هددته بعض التيارات اليمينية (فى عام ١٩٦٣) واليسارية (فى عام ١٩٦٦) المنحرفة . فقام الاسد بتعيين قيادة جديدة للحزب تضم اتباعه ، واصدرت تلك القيادة بيانا لتبرير الانقلاب « وحركة الاصلاح » . وتلك كانت بداية عهد الاسد ، كما كانت ايضا تجسيدا لتصفية حزب البعث الشرعى فى سوريا .

---

(١) مما يجدر ذكره أن الاتحاد السوفيتى لم يتقدم بأى مبادرة لصالح صلاح جديد الذى يعد من اوثق المناصرين له .

من الطبيعى أن نلاحظ أن الرئيس حافظ الأسد قد صار منذ خمسة عشر عاما شخصا هاما على مسرح الشرق الاوسط ، الذى ضم ، ولا يزال ، يضم شخصيات هامة عديدة ، وقد كتبت صحيفة « ليبراسيون » اليومية الصادرة يوم ٥ يناير عام ١٩٨٤ تقول :

« ان عام ١٩٨٣ كان عام الأسد ، لأنه هو الذى افسده منذ البداية حتى النهاية » ، ونشرت صحيفة « لوبوان » الاسبوعية الصادرة يوم ٢٦ ديسمبر عام ١٩٨٣ بدورها تحت عنوان : « عام سوريا » حديثا . صحفيا للرئيس الاسد الذى عاد للظهور بعد غياب استمر بضعة اسابيع . فبعد أن أختفى سيد دمشق يوم ١٢ ديسمبر عشية لقائه مع أمين الجميل — حيث أعلنت أيضا بعض الشائعات نبأ وفاته على اثر تعرضه لعملية اعتداء او اصابته بأزمة قلبية — عاد الى الظهور امام تليفزيون بلاده قبل عيد الميلاد بفترة وجيزة ، وقد بدا نحيفا منهكا ولكنه كان حيا يرزق بابتسامته الماكرة الشهيرة ، فالرجل طويل القامة ، وجهه مستقيم الزوايا ، مشدود البنية ، يبدو مهذبا ولكنه متحفظ الى حد الخجل ، على قدر نادر من الذكاء ولكنه يبدو لغزا غامضا ، شديد المكر ، ولكنه على قدر غير عادى من الصراحة .

ولرب الأسره الحنون هذا خمسة اطفال ، وهو يقود بلاده فى الواقع بيد من حديد ، وقد نجح كمخطط بارع فى ان يفرض على سوريا وعلى المنطقة بأكملها نظاما مطلقا مرهوبا ، وفى مذكراته اشاد به هنرى كيسنجر ، اذ رأى فيه واحدا من اعظم رؤساء الدولة الذين التقى بهم . وذكر عميد الدبلوماسية السابق فى عهد نيكسون : « ان الأسد كان يتفاوض بجرأة وصلابة الى ان يتأكد أنه حصل على آخر ما يمكن الوصول اليه من تنازلات » ورسم له كريم باكرادونى (١) — منظر حزب الكتائب اللبنانى — صورة

(١) كتاب « السلام المفقود فى لبنان » — بيروت ١٩٨٣ .

ندعو الى الاعجاب ، فكتب يقول : ان الأسد « لا يفصح عن اى شيء من نواياه أو مطالبه ، وكمخطط غامض يدع محدثه يتكهن ويتوقع ، ويتهيأ لكى يدفع له ثمنا لم يطلبه من قبل ، انه مفاوض يصعب التكهن بأفكاره ، انه داهية » .

ولد حافظ الاسد فى عام ١٩٢٨ فى قرية « كرداها » على مقربة من ميناء اللاذقية ، الميناء السورى الكبير ، وهو ينحدر من اسرة ريفية تنتمى الى مذهب العلويين أو النصيرى .

وتمثل نسبة النصيريين ما يتراوح ما بين ١١٪ الى ١٢٪ من السكان السوريين ، وهم يتجمعون فى المنطقة الجبلية التى ترتفع كالراية موازية للساحل ما بين البحر الابيض المتوسط وباقى ارجاء البلاد . ويسمى هذا الجبل بجبل « الانصرية » . ويعتبر هذا الجبل ابتداء من مدينة اللاذقية فى الشمال وحتى مدينة طرطوس فى الجنوب اقطاعية العلويين . وهم معروفون ايضا باسم العالم الدينى محمد بن نصير (الذى توفى عام ٨٧٣) ومؤسس تلك الطائفة الشيعية .

وعلى غرار طوائف كثيرة مجهولة وسرية (كطائفة الدروز ايضا) ترسم لطائفة النصيرى فى بعض الأحيان صورة هزلية غير صحيحة ، وتنسب لهم — فى كثير من الأحيان عن غير حق — كافة اشكال العادات الغريبة ، والمعتقدات الباطلة ، وبعض الأفعال مثال تقديس جنس النساء أو دفع بناتهم الى احتراف البغاء .

والنصيريين ابعد عن الاسلام التقليدى من غيرهم من الشيعة (١) ، وهم يدينون باسم العلويين الذى يطلق عليهم لانهم مثل جميع الشيعة متحزبين لعلى صهر الرسول الذى يدعى انصاره « بأشياع على » . بيد ان النصيريين لا يكتفون باعتبار

(١) كتاب شارل برمت « حرب الخليج » باريس ١٩٨٣ وكتاب « الشرق الأوسط والعالم الثالث » .

على امامهم ، فهم يعتبرونه الهم ، وتقترن عقيدتهم بعبادة فريدة تمزج بين بعض المبادىء الاسلامية والوثنية والمسيحية ، وهم يجمعون فضلا عن ذلك بين الاعياد المسيحية والاعياد الشيعية فى طقوسهم .

ويقول بيير روندو : « ان مذهب وطقوس النصيريين يجمع بصورة مبهمة بين المبادىء الاسلامية والوثنية والغنوصية (نزعة فلسفية دينية تهدف الى ادراك كنه الأسرار الربانية) بل والمسيحية وتضعهم تلك التوليفة على الطرف الأقصى للاسلام(٢) ، وفى عام ١٩٢٢ جعلت فرنسا من أراضى النصيريين دولة علوية عاصمتها اللاذقية ، بيد أن « حكومة اللاذقية » عاشت حياة قصيرة وغامضة اذ عادت لتنضم الى سوريا فى عام ١٩٣٦ . ومن العدل أن نقر بأن تلك المنطقة ظلت طويلا أكثر البلاد فقرا ، وأن سكانها عانوا من كثرة الاستهزاء .

وعلى غرار كثير من الفلاحين العلويين الفقراء قرر الشاب حافظ الأسد العمل فى الجيش ، وقام بتسجيل اسمه فى الكلية العسكرية بمدينة حمص فى عام ١٩٥١ وتخرج منها ضابطا طيارا فى عام ١٩٥٥ ، وبعد انضمامه الى حزب البعث فى عام ١٩٤٧ اصبح مشبوها ، وكان واحدا من الضباط الذين نقلوا الى القاهرة ابان الاتحاد السورى المصرى فى عام ١٩٥٨ ، ورغم انه لم يمارس دورا مؤثرا داخل الحزب ، والتقى حافظ الاسد عندئذ بصلاح جديد ، وهو رجل عسكرى علوى آخر ، اقام معه اتصالات ودية كما التقى بمحمد عمران .

وفى القاهرة انضم الى اللجنة العسكرية التى لعبت دورا اساسيا فى الانقلاب البعثى الذى تم فى عام ١٩٦٣ ، بيد أنه

(٢) كتاب « الاسلام والمسلمون اليوم » باريس ١٩٨٥ .

لا يعد من اعضاء الحزب المؤثرين ، وفى شهر ديسمبر عام ١٩٦٤ رقى الى رتبة لواء طيار ، ثم اصبح بمساندة رفيقه القديم صلاح جديد قائدا أعلى للطيران .

وبهذه الصفة شارك حافظ الأسد مع صلاح جديد فى القضاء على حكومة الرئيس أمين الحافظ وحزب البعث الشرعى يوم ٢٣ فبراير عام ١٩٦٦ ، وبعد تعيينه وزيرا للدفاع قام حافظ الاسد بتعيين اعداد كبيرة من الرجال العلويين من اتباعه فى مناصب هامة بالجيش . وبتدعيم « جناح عسكرى » داخل الحزب حيث يزعم صلاح جديد ــ الذى قام بطرد عفلق والبيطار ــ انه يمثل جناحا مدنيا يساريا ، ونشب خلاف بين حافظ الاسد وصلاح جديد حول طريقة سير حرب ١٩٦٧ ضد دولة اسرائيل ، وضياع جبل الجولان .

وازداد الخلاف فى عام ١٩٦٨ و ١٩٦٩ وبلغ ذروته ابان المصادمات التى وقعت بين الجيش الأردنى والفلسطينيين فى شهر سبتمبر عام ١٩٧٠ ــ وعندئذ رفض حافظ الاسد مساعدة الفلسطينيين . وبعد مهاجمة المؤتمر الاقليمى (السورى) السابع لحزب البعث له استولى حافظ الاسد على السلطة بمعاونة الجيش يوم ١٦ نوفمبر والقى بصلاح جديد فى السجن .

واصبح حافظ الاسد سيد البلاد المطلق ، ولتبرير انقلابه اعلن أن « حكومة الاصلاح » تستهدف وضع للأخطاء الماضية واستطرد موضحا : « لقد تولت بعض العقول الجامدة فى فترة من الفترات قيادة الحزب ، وكبحت تلك العقول المتخلفة جماح النضال وخلقت الانقسامات ، وشلت عمل المناضلين .. اما حركة ٢٣ فبراير عام ١٩٦٦ فقد حررت الحزب من هيمنة تلك القيادة اليمينية الانتهازية ، بيد ان آمال القاعدة خابت مرة اخرى ــ اذ

ان القيادة الجديدة(١) فرضت الخمول والخنوع ومارست ديكتاتورية مطلقة على الحزب ، واستخدمت اسلوب الرعب حيال المناضلين ، واستخفت بقرارات المؤتمرات ، واقامت نظاما للمستقلين وللامتيازات غير المشروعة .

وادت تلك التصرفات الى عزل الحزب عن الشعب .. وكان على القوى النشطة فى الحزب ان تستبعد تلك القيادة السيئة من المسرح السياسى ، وقام الرفاق من ثم بتشكيل قيادة اقليمية مؤقتة » .

وبالفعل بادر اللواء حافظ الاسد بتعيين قيادة اقليمية (سورية) جديدة تدين له بالولاء التام ، وكانت مهمتها تتمثل من الوجهة الرسمية فى تطبيق « برنامج الاصلاح » ، بيد أنها كلفت بصفة خاصة باقصاء جميع من عارضوا حافظ الاسد خلال المؤتمر الاخير من المناصب الهامة وبصفة أعم الموالين للحزب .

ويقول بازل يوسف المحامى : « ان حركة التصحيح ليست سوى ذرا للرماد فى العيون ، وأن التبريرات الايديولوجية لا يمكن تصديقها ، وكلما عدنا بادراجنا بعيدا فى حياة حافظ الاسد الماضية نجد انه لم تكن له أية اهتمامات مثالية : فهو ليس مفكرا سياسيا ، ولا حتى مناضلا مؤمنا بنظرية ، انه يريد الحكم من اجل الحكم » .

والواقع أن حافظ الأسد متعطش للحكم وليس الى الثروات، وقد جعل من الحكم هدفه الأسمى ، ويمكن أن تطلق عليه العبارة التى استخدمها جورج ادرويل فى مؤلفه (١٩٨٤) ، « ففى رايه ان السلطة ليست وسيلة بل هى غاية ، ولا تقام ديكتاتورية من

---

(١) بقيادة صلاح جديد الذى شارك الاسد فى الاستيلاء على السلطه فى عام ١٩٦٦ .

اجل اقامة ثورة وانما تقام ثورة من أجل ديكتاتورية » ، ذلك هو النظام الشمولى بصورته المطلقة .

ويذكر شيبلى عصامى أحد المسئولين التاريخيين فى حزب البعث واحد السوريين الذين لجأوا الى بغداد : « ان حافظ الاسد عمد الى المزايدة الديماجوجية واستخدم العبارات الرنانة لكى يبرر انقلاب عام ١٩٧٠ » .

بيد اننا لو تناولنا عبارات بيانه الصادر فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠ ، بنصه الحرفى ، لتبينا انه يهاجم — مقدما — النظام الذى سيفرضه على سوريا وجميع الأخطاء التى سيرتكبها على مر الأعوام ، وسواء رضى أو لم يرض ، فقد نشأ نظامه عن انقلابين : انقلاب عام ١٩٦٦ ، وانقلاب عام ١٩٧٠ ضد حزب البعث ، وهو نظام غير شرعى على الاطلاق .

الا ان سيد سوريا الجديد أراد أن يضفى الصيغة الشرعية على حكمه وان يحافظ على الشكليات ، وفى شهر فبراير عام ١٩٧١ ، قام بتعيين جمعية تأسيسية هى مجلس الشعب ، ودعاه الى التصويت على تعديل يصرح بانتخابه فى استفتاء عام لرئاسة الجمهورية ، وبالفعل تم انتخابه لمدة سبعة أعوام يوم ١٢ مارس عام ١٩٧١ بنسبة ٩٩ر٢٥٪ من الاصوات . وبصفة تدريجية اراد الرئيس الجديد أن يثبت هيمنته على الحزب .

ويذكر شيبلى : « انه لم يقم بتصفية حزب البعث تماما كى يخفى مطامعه الشخصية ، واعتنى بالاحتفاظ بأحرفه الأولى وبمؤسساته ، واكتفى بتشويه فكرته واهدافه(١) » ، واقر المؤتمر

(١) حديث مع المؤلف ، والسيد عصامى هو الأمين العام المساعد لحزب البعث ويأتى فى المرتبة الثالثة بعد عفلق وصدام حسين .

الاقليمى (السورى) الخامس تلك الهيمنة على السلطة فى التنظيم البعثى فى شهر مايو عام ١٩٧١ ، ومنذ شهر نوفمبر عام ١٩٧١ عمل حافظ الاسد على القضاء على المعارضة بادماج اهم الأحزاب السياسية داخل جبهة وطنية تقدمية ظهرت الى الوجود بصفة رسمية يوم ٨ مارس عام ١٩٧٢ .

وقد شملت الجبهة فضلا عما تبقى من حزب البعث — الحزب الشيوعى بقيادة خالد بكداش ، والاتحاد الاشتراكى العربى (الناصريين) ، والاشتراكيين العرب (المنشقين عن الحورانى) ، والحركة الوحدوية الاشتراكية (المنشقين عن حزب البعث) الا انه كى تكون الأمور واضحة فيما يتعلق بحقيقة الحكم تعهدت مختلف الاتجاهات فى الجبهة تعهدا قاطعا بعدم ممارسة اى نشاط فى الجيش ، « نظرا لأن الجيش هو العامل الاساسى فى حماية نظام الحكم التقدمى(١) » .

ويتعين علينا أن نشير الى انه بمجرد تكوين تلك الجبهة تفتت الاحزاب التى انضمت اليها كما تفتت حزب البعث نفسه ، فكان هناك فى جانب ، انصار الرئيس الاسد الذين احتفظوا بالمؤسسات والأحرف الأولى الرسمية للتنظيمات السياسية ، وفى الجانب الآخر معظم القادة والمناضلين الذين انتقلوا الى المعارضة .

وهكذا حدث انشقاق قادة رياض ترك داخل الحزب الشيوعى ضد قيادة خالد بكداش الذى لاقى معارضة فى عام ١٩٧٢ رغم مساندة موسكو ، ونفى أكرم الحورانى (الاشتراكى) الى فرنسا . وانقسم الاتحاد الاشتراكى العربى (الناصريين) الى شقين فى عام ١٩٦٨ ، فكانت هناك فى جانب ، قيادة محمد الجراح (وهو اليوم أحد المسئولين فى تجميع المعارضة ضد نظام حكم حافظ الأسد) .

(١) ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية .

وفى الجانب الآخر قيادة جمال الاتاسى الذى غادر الجبهة الوطنية التقدمية فى عام ١٩٧٣ ، وبقيت أقلية ضئيلة داخل الجبهة الحكومية ببقاء فوزى الكيالى الذى دخل هو أيضا فى المعارضة عام ١٩٨١ ، والذى حل محله يوسف سويدان .

ويوجز لنا محمد الجراح(١) الموقف على النحو التالى : لقد احتفظ نظام الاسد « بشارات » جميع الأحزاب مثل حزب البعث والحزب الشيوعى ، والاتحاد الاشتراكى الخ .. فهناك اذن داخل الجبهة الوطنية التقدمية المزعومة تنظيمات تسمى بحزب البعث والحزب الشيوعى ، أو الاتحاد الاشتراكى ، وترجع تلك التنظيمات الى شعارات حزب البعث ، والحزب الشيوعى أو الاتحاد ، بيد أنها ليست حزب البعث أو الحزب الشيوعى أو الاتحاد ، انها لا تمثل غير المتعاونين مع الزمرة العسكرية العلوية التابعة لجماعة الاسد .

ومن جانبه واصل حافظ الاسد عملية التطبيع التى انتهجها ، وفى يوم ٣١ يناير عام ١٩٧٣ قام باعتماد دستور جديد أدى الى نشوب أول نزاع داخلى كبير فى نظام الحكم .

والواقع أن نص الدستور الجديد لم يذكر ضرورة انتماء رئيس الدولة الى الديانة الاسلامية ، وقد فسر ذلك الاغفال على أنه رغبة من جانب السنين فى تثبيت جذور السلطة العلوية ، ونشبت مظاهرات واسعة فى جميع أرجاء البلاد فى شهر فبراير عام١٩٧٣ ، ولا سيما فى مدينتى حمص وحماة .. واضطر نظام الحكم الى تقديم تنازل (وهو التنازل الوحيد الذى قدم فى ظل حكم الرئيس حافظ الاسد) ، وأوضحت ديباجة الدستور « ان الاسلام هو دين رئيس الدولة » . وأحيل مشروع الدستور الى استفتاء عام يوم

(١) حديث مع المؤلف : وهو مسئول ناصرى ومن مناضل الاتحاد الاشتراكى العربى .

١٢ مارس عام ١٩٧٥ ، واعتمده ٨٩ ٪ من المقترعين ، رغم قيام حملات مضادة عنيفة فى مدينة حمص وحماه وحلب ، ادت الى امتناع الكثيرين عن التصويت وقام على اثرها الحكم بتنظيم انتخابات تشريعية حصلت فيها الجبهة الوطنية التقدمية على ١٢٧ مقعدا من ١٨٨ مقعدا ، الا أن ثمة معارضة بدات تتكون بصفة خاصة فى المعاقل التقليدية بالمدن الشمالية ، ونشبت حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ فى الوقت المناسب لكى تتيح لحكم الرئيس الأسد فرصة ابعاد الخطر .

وفى عام ١٩٧٤ تجددت المشاكل الداخلية ، ودارت حول محورين : معارضة حزب البعث الشرعى التى كانت تشجعها بغداد ، كما تدهورت العلاقات بين سوريا والعراق ، والمعارضة الطائفية ، وقد تمثلت اعنف صورها فى معارضة رابطة الاخوان المسلمين .

ومنذ عامى ١٩٧٩ و ١٩٨٠ اصبحت تلك المعارضة هى شغل نظام الحكم الشاغل ، ولمواجهتها قام نظام الحكم بتعزيز امكانياته بتركيز السلطة بين يديه بصورة قصوى ، وبتاسيس جهاز للقمع ، ويشكل هذا الجهاز السمة الرئيسية المميزة لنظام حكم الاسد ، كما يمثل احد اسباب دوامه ، على حد قول احد المسئولين من الاخوان المسلمين — الذى اضاف قائلا : « ان أول نظام اقامته الطائفة الحاكمة هو نظام القمع والنظام الثانى هو نظام الفساد » .

اتراها طائفة ؟ ..

ان الاتهام واضح ، اذ يستهدف اصل الرئيس الاسد واصل اسرته ، واشد مؤازرى نظام الحكم ولاء .. فلم تنعم القبيلة العلوية ابدا بسمعة طيبة فى سوريا ، بيد أنه من الخطأ

على الرغم من ذلك أن تزعم أن العلويين اضطهدوا ، ومن المؤكد أن البورجوازية السنية او المسيحية كثيرا ما ابدت ازدراءها لأولئك الفلاحين الفقراء البدائيين الى حد ما ، الذين استخدمت بناتهم كخادمات ، بيد أن هذا الازدراء لم يتجاوز اى رد فعل طبقى ، ولم يستهدف فى الحقيقة طائفة دينية بعينها .

وعلى غرار أهالى مدينة (بريتانى) الفرنسية لاذ العلويون الى الجيش اذ كان يمثل الفرصة الوحيدة للافلات من قسوة حياة الفلاحين والوصول الى مرتبة اجتماعية معينة ، ومن ثم فقد ضم سلك الضباط وصف الضباط نسبة عالية من العلويين اما الجنود فكانوا يخضعون لنظام الخدمة العسكرية (ومدة الخدمة العسكرية هى ثلاثة اعوام ونصف) .

وكثيرا ما اتهمت المعارضة الرئيس حافظ الاسد بأنه ادى الى زيادة سطوة العلويين على المناصب العليا التى يتولاها العسكريون البعثيون ، فقالت :« ان ما يربو على ٧٠ ٪ من المناصب الرئيسية يتولاها ضباط علويون ، ولكى يبعد حافظ الاسد الضباط والجنود السنيين أ والمسيحيين ، ويحكم سيطرته على الجيش اشترك فى المغامرة اللبنانية فى عام ١٩٧٥ ، وفى نفس الوقت شاهدنا قيام مؤسسات علوية بحتة مثل سرايا الدفاع التابعة لرفعت الاسد والوحدات الخاصة التابعة لحيدر ، وشباب على (حركة النشء) ، وميليشيا الدفاع الذاتى التابعة لفرسان الجبل الاخضر فى منطقة اللاذقية ، وكذلك قيام حزب سياسى علوى (اكتوبر عام ١٩٨١) ، وجمعية مرتضى الخيرية التى يراسها جميل الاسد احد اشقاء الرئيس .

ويتهم الاخوان المسلمون ، من جانبهم ، النظام بأنه اثار المشكلة الطائفية ، ويقول عدنان سعد الدين احد المسئولين

الاخوان المسلمين فى سوريا (١) : « انه قبل عام ١٩٧٠ لم تكن هناك اية شقاقات طائفية . اذ اننا نعتبر العلويين مسلمين بصفة كاملة ، كما ان الاحصائيات من جهة اخرى تحسبهم دائما بين المسلمين ، وتتمثل مسئولية نظام الحكم فى انه ادى الى تزايد تلك النزعة العلوية الخاصة ، التى لن يكون من شأنها سوى الاساءة الى تلك الطائفة » .

ويقول كريش كوتشيرا (٢) : « ان عددا كبيرا من السوريين يقرون — كامر مسلم به — بضرورة ارساء دعائم معقل علوى يستند الى الجبل ، يبدأ من مدينة اللاذقية حتى مدينة طرطوس ، معقل يمكن ان يلجأ اليه العلويون فى حالة سقوط نظام الحكم ، وذلك بهدف احياء الدولة العلوية التى كانت قائمة فى ظل نظام الانتداب الفرنسى » ، واخذت اخطاء واستفزازات نظام الحكم العديدة تؤكد تلك الفكرة وتحفز الهوة بين الطوائف ، وهذا الامر يثير قلق بعض العلويين .

ويرى احد المحامين بمدينة اللاذقية على سبيل المثال : « ان تمثيل نظام الحكم الحالى — الذى لا يتمتع باى شعبية — بالعلويين قد ينقلب ضد طائفتنا التى لا تستفيد فى الحقيقة من هذا الحكم . هذا كما أن المساومة التى يجريها نظام الحكم ، علاوة على ذلك مساومة وقحة حيث يطالب العلويون بضرورة التطلع الى دوام نظامه والا سوف يتم تصفيتهم ، وهى الدعاية التى ينخدع بها عدد كبير من الناس المساكين . وهو ايضا مايعتقده اكرم الحورانى احد مؤسسى حزب البعث والذى يقول من منفاه فى باريس : « انه من السخف الاعتقاد بأن الشعب السورى يمكن أن يغرق فى حربه اهلية طائفية .

---

(١) حديث مع مؤلف .
(٢) مجلة لوموند ديبلوماتيك مارس ١٩٨٣ .

والحقيقة ان نظام حكم الأسد يحاول اقناع الطائفة العلوية بأنها مهددة ، ولكن هذا غير صحيح ، ان ما يهدد تلك الطائفة هو وجود مثل ذلك النظام كما انه يهدد سوريا برمتهـا ، وهـو السبب الذى جعل الاخوان المسلمين ، وكذلك كل المعارضـة المنضمة الى التحالف الوطنى من اجل تحرير سوريا ، تديـن الاعمال الطائشة التى ارتكبت ضد بعض العلـويين العاديين . فقد استنكروا بصفة خاصة الاعتداء الذى وقع فى مدينـة حلب فى شهر يوليو عام ١٩٧٩ ضد الطلبة العسكريين العلويين ، والـذى قامت به جماعة منشقة من الاخوان المسلمين ، وهى جماعة عدنان عقلة ، حيث أوضح عدنان سعد الدين قائلا : ان الارهاب الاعمى مهما كانت تبريراته _ لا يشكل حلا على الاطلاق ، واولئك الذين نقصدهم ليسوا العلويين ، وانما « الجماعة » الحاكمة فممن تتكون تلك « الجماعة » !

اولا من الرئيس الاسد واشقائه ، ولا سيما رفعت الأسـد شقيقه الأصغر ، الذى يدعى « بالرجل القوى فى سوريا » ، وهـو غالبا اشد رهبة من أخيه ، وقد ولد فى عام ١٩٣٧ فى مدينة كرداحا وتلم ببعض الدراسات فى اللاذقية ودمشق قبل أن يصبح موظفـا فى الجمارك ، وبعد الانقلاب الذى وقع فى عام ١٩٦٦ ، عينه شقيقه الذى اصبح وزيرا للدفاع ملازما فى سلاح المشاة ، وسرعان ما رقى الى رتبة نقيب . وقد لعب دورا هاما فى الانقلاب الذى وقع فى ١٣ نوفمبر عام ١٩٧٠ ، وعمل على مطاردة انصار صلاح جديد .

وبصفة تدريجية اضطر نظام الحكم الى مواجهة معارضـة اكثر نشـاطا ، ولم يعتمـد فى ذلك على الجيش ، وكلف رفعت الأسد بتنظيم ميليشيا مهمتها الدفاع عن الحكم ضد أى محـاولة تستهدف الاطاحة به ، وقامت الوية الدفاع (سرايا الدفـاع) بتكوين جيش حقيقى يقدر عدده بحوالى أربعين الف رجل جندوا

من العلويين ، وله ميزانية كبيرة يديرها رفعت الأسد ، ولا تتبع احدا سواه ، وبعد ان رقى رئيس سرايا الدفاع الى رتبة عقيد فى عام ١٩٧٤ قام بتزويد ميليشيته بعتـاد حديث من دبابات ومدافع رشاشة وطائرات عمـودية _ وتثير تلك الميليشـيا _ التى تصدر صحيفتها الأسبوعية الخاصة « الفرسان » _ رهبة كبيرة فى جميع أرجاء البلاد ، حيث يعتبر رفعت الأسد مسـئولا عنها ، لا يتورع عن القيام بأى عمل ، حتى بين كوادر نظام الحـكم التى ترتاع من بطش ذلك الذى لا تدعوه الا « بشقيق الرئيس » وكنت أسأل احد القادة المهمين من قادة حـزب البعث الحـاكم عن شخصية رفعت الأسد ، « فلم يجيبنى الا من داخل سيارته » ، وهى المكان الوحيد الـذى لم يـكن فيه « ميكروفون » ، ورسـم لى صورة رهيبة عن ذلك كأن يعتبره « الصورة القبيحة للنظام » .

بيد أن انشطة « شقيق الرئيس » لم تقتصر على المحافظة على النظام ، فرفعت الأسد رجل أعمال بارع يقيم علاقات عديدة فى الوسط التجارى والمالى الدولى ، وهو يملك ايضا مسكنا فى دائرة باريس ، ومسكنا آخر فى الولايات المتحـدة ، ويتهمه خصومه _ وهم كثيرون _ بأنه يحقق مكسبا شخصيا بسبب وجود شقيقه على رأس الدولة ، وبأنه يحصل على نسبة على جميع العقود التى يتم ابرامها مع سوريا .

وفى الميدان السياسى تبدو مواقف رفعت الأسد غامضـة ، فبعد اقامة طويلة فى موسكو فى عام ١٩٧٤ حصل خلالها على شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية ، استغل عملية التطهير الكبـرى التى أجريت داخـل الحزب بمناسبة انعقـاد المؤتمر الاقليمى (السورى) السادس فى ١٤ ابريل عـام ١٩٧٥ ليحمل أقـرانه على اختياره بين أعضاء القيادة الواحد والعشرين ، وظل رفعت الأسد طيلة بضعة أعوام يمارس مزايدة يسارية عنيفة موالية للسوفييت .

وفى رسالة الدكتوراه التى تدور حول التنمية الاجتماعية والسياسية فى سوريا فى الفترة ما بين عامى ١٩٤٦ و ١٩٦٣ ، قال رفعت الأسد على سبيل المثال ، « ان الحل النهائى للتناقضات القائمة داخل المجتمع السورى يتمثل فى الاشتراكية » ، كما اعلن تأييده لبعض اشكال الديمقراطية » ، و « للتعاون مع البلدان الاشتراكية » بيد أن هذا « الملياردير » « الاشتراكى » يقيم منذ بضعة اعوام علاقات طيبة مع الولايات المتحدة ، حيث أصبح صاحب ملكية شاسعة فى عام ١٩٨٣ .

وعندما اتخذت المشاكل الداخلية فى نظام الحكم طابعا خطيرا ازداد دور رفعت الاسد ، وبدا فى المؤتمر الاقليمى السابع للحزب (الذى عقد فى ٥ يناير عام ١٩٨٠) انه الرجل الثانى الحقيقى فى نظام الحكم ، وبصفته نصير التطهير واسلوب العنف قام باعتماد قرار يوصى بتشديد محاربة الخونة والمجرمين والمعارضين ، وعلى الأخص الاخوان المسلمين الذين يصفهم « بعملاء اسرائيل » ، وبعد ذلك ببضعة اشهر شارك العقيد الأسد فى اعدام بضعة مئات من المعتقلين السياسيين فى سجن بالمر قبل أن يقود بنفسه عملية تدمير مدينة حماة فى عام ١٩٨٢ .

وفى شهر ديسمبر عام ١٩٨٣ ، فى الوقت الذى راجت فيه شائعات خطيرة حول صحة الرئيس الأسد ، بدا رفعت الأسد لجميع المراقبين على أنه خليفته المرجح فى اطار استمرارية نظام الحكم .

وعلى اثر مرض الرئيس الخطير ، نشبت حرب حقيقية حول الخلافة فى دمشق بين شقيق الرئيس والتشكيلات العسكرية ، ونشبت الأزمة فى ليلة ٢٦ الى ٢٧ فبراير عام ١٩٧٤ بين العسكريين (شهابى وعلى دوبا ، وعلى حيدر) وسرايا الدفاع التابعة لرفعت

الأسد ، الذى ربما يكون قد اظهر تعجله الشديد لفرض نفسه كخليفة . الا ان الرئيس الأسد الذى اضعفه المرض تمكن رغم ذلك من فرض حل وسط يوم ١١ مارس باجراء تعديل وزارى وتعيين ثلاثة نواب للرئيس وهم : خدام (صديق العسكريين) ، ورفعت ، ومحمد زهير مرشاقة الذى يمثل قيادة الحزب ، والحق أن مشكلة الخلافة لاتزال قائمة دون تسوية ، وهو ما اوجزه احد الدبلوماسيين الغربيين باقتضاب قائلا : « ان الصراع على السلطة سينشب بعد الأسد . والواقع أن رفعت الأسد الذى يتمتع بتأييد الولايات المتحدة والسعوديين (اذ يرتبط ارتباطا شديدا بعبد الله ولى العهد) ويحتفظ بكل فرصة فى تولى الحكم فى مواجهة العسكريين الذين يكرهونه ، والذى ازداد اتجاه بعض عناصرهم نحو الاتحاد السوفيتى .

بيد أن مثل تلك الخلافة — فى راى المعارضين — قد تعجل بانتهاء النظام ، ذلك أن رفعت مكروه من الجيش والشعب والادارة بل ومن الحزب ، علاوة على انه لا يتمتع بذكاء شقيقه ، ولا بالثقة التى يتمتع بها على الصعيد الدولى . كما يقول عدنان بدر الصحفى السورى الذى يتساءل عما اذا كان من الممكن حكم بلد باكمله بحرس طاغية » .

الا ان هناك رجالا آخرين يمارسون نفوذا ملحوظا بين الطائفة الحاكمة . وهؤلاء الرجال ليسوا بالضرورة اولئك الذين يشغلون المناصب الحكومية ، ومن الواجب هنا ايضا ان تميز بين اولئك الذين يحملون القابا رسمية واولئك الذين يتولون الحكم الحقيقى .
فمنذ شهر يناير عام ١٩٨٠ تولى رؤوف قاسم — احد كبار البورجوازيين فى دمشق — منصب رئيس الوزراء ، وقد تم تعيين هذا الجامعى المشهور وعمدة دمشق فى هذا المنصب لكى يضع حدا للاتهام الموجه لنظام الحكم بزيادة اصطباغه بالصبغة الطائفية لصالح العلويين . وربما يكون عبد الحليم خدام

ائب رئيس الوزراء الذى شغل منصب وزير الخارجية هو الرجل السنى الوحيد الذى يمارس نفوذا حقيقيا على مستوى السلطة .

لقد ولد عبد الحليم خدام فى عام ١٩٣٢ فى مدينة بانياس على ساحل البحر المتوسط ، وهو ينحدر من اسرة سنية تنتمى الى البورجوازية الصغيره ، وكان ابوه معلما ، وتربطه منذ الطفولة علاقات صداقة مع حافظ الأسد الذى كان تلميذا لدى والده ، وهو مناضل سابق فى حزب البعث ، عين عمدة لمدينة حماه فى عام ١٩٦٣ ، ثم انتخب عضوا فى القيادة الاقليمية للحزب وفى عام ١٩٦٩ كان واحدا من اعضاء القيادة القلائل الذين ساندوا الاسد ضد الاعضاء الذين يمثلون الأغلبية فى الحزب .

وقد لاقى هذا الرجل الديناميكى المرح ذو النزعة الاستبدادية الذى يتمتع بقدر كبير من الذكاء ، نجاحا سريعا بعد عام ١٩٧٠ . ففى يوم ١٢ نوفمبر عين عبد الحليم خدام وزيرا للخارجية ، وفى عام ١٩٧٢ انضم الى اللجنة المركزية التابعة للجبهة الوطنية التقدمية ، وفى شهر سبتمبر عام ١٩٧٤ عين نائبا لرئيس الوزراء مع احتفاظه بوزارة الخارجية .

وهو الذى شجع بصفة خاصة على التدخل فى لبنان فى عام ١٩٧٦ . ودخل فى تلك الفترة فى صراع مع الوطنيين التقدميين اللبنانيين وهكذا عارضه كمال جنبلاط رئيس الحركة الوطنية اللبنانية معارضة شديدة ، واتهمه بانه يمثل راس حربة الجناح الموالى لامريكا فى نظام حكم دمشق .

وعندما بدات السياسة السورية تتجه نحو الغموض اتهم جنبلاط خدام بانه « عميل امريكا الذى يريد التفاوض على تسوية مع الاسرائيليين على حساب لبنان والفلسطينيين » ، غير ان جنبلاط اغتيل فى شهر مارس عام ١٩٧٧ ، واصبح عبد الحليم خدام — الذى بقى فى الحكم رغم جميع عمليات التطهير التى

قادتها جماعة الأسد اصبح اليوم واحدا من اهم صانعى السياسة السورية ، وعين نائبا اول لرئيس الجمهورية فى شهر مارس عام ١٩٨٤ بعد التعديل الوزارى الذى أعقب احداث شهر فبراير . وعدا هذا الاستثناء الواضح ، فان جميع الرجال الذين يتمتعون بنفوذ بين الطائفة الحاكمة عسكريون .

وكان من المفروض ان يكون وزير الدفاع احد اهم الاشخاص فى بلد يمارس فيه الجيش دورا هاما ، حيث انه يتواجد فى الخط الاول فى مواجهة اسرائيل ، غير ان مصطفى طلاس يعتبر شخصا غريبا ، فقد جهز منزله بدمشق بمجموعة غريبة من التحف التذكارية المختلفة التى لا يمكن ان نتصور ان يقتنيها اى عسكرى ، كصور بعض ممثلات السينما ، ومجموعات نادرة من الكتب ، ولوحات ذات ذوق رفيع .

ومصطفى طلاس شاعر ، اصدر مجموعة شعرية كبيرة لبعضها قيمة ادبية حقيقية ، وهو مؤلف لدراسات فى الشعر العربى ويؤكد معارضو نظام الحكم ان الشعر هو المضمار الوحيد الذى تتقبله جماعة الأسد من مبادرات وزير الدفاع ، وان هذا الأخير ليس الا سندا سنيا لنظام الحكم .

الا ان دور طلاس لا يقتصر على انه مجرد سند ، فقد ساعد هذا العضو السابق فى اللجنة العسكرية الشهيرة التابعة للحزب ، ساعد على الانقلاب الذى قام به صلاح جديد وحافظ الأسد فى عام ١٩٦٦ ، كما انه قام بصفة خاصة بدور نشط اثناء استيلاء حافظ الأسد على الحكم فى عام ١٩٧٠ . ومكافاة له على ذلك شغل منصب وزير الدفاع منذ عام ١٩٧٢ وقد اتخذ بصفة دورية مواقفا متشددة (ضد اتفاقات كامب ديفيد ، ومن اجل الحرب المسلحة ضد اسرائيل وضد العراق ومن اجل ايران ولارسال طائرات انتحارية ضد الاسطول الامريكى فى عرض بحر بيروت ..) وهى المواقف التى تشكل جزءا من العبارات الرنانة المستخدمة فى دمشق .

وبعد أن نجا طلاس من عملية الاغتيال التى تعرض لها فى عام ١٩٧٧ ، أيد القرار الحكومى الخاص بتصفية الاخوان المسلمين ، ورغم تمركز أولئك الشديد فى مدينة حمص مسقط راسه .

والى جانب اللواء طلاس يشغل سنى آخر هو اللواء حكمت شهابى منصب رئيس أركان الجيش ، الا أن المراقبين يقولون أن قيادة الجيش الحقيقية والأجهزة التابعة تتركز بين أيدى ثلاثة رجال من العلويين يدعون باسم « على » وهم على ارسلان نائب رئيس الأركان ، وعلى حيدر قائد السرايا الخاصة — وهى وحدات فدائية مسئولة عن المحافظة على النظام ، منافسين فى ذلك رفعت الاسد ولكن افرادها جندوا من بين العسكريين — واخيرا على دوبا على راس اجهزة المخابرات « الاجهزة السرية » ، واولئك الرجال الثلاثة الذين لا يظهرون فى اى من تنظيمات الحزب الحاكم هم بالفعل اهم سند لجماعة الأسد ، كما انهم — (بالاشتراك مع رفعت الأسد) — (المؤسسين لجهاز القمع الجهاز الرئيسى الاول فى نظام الحكم) .

ويعتمد هذا القمع اذن على تنظيم هائل يضم :

— سرايا الدفاع التابعة لرفعت الأسد (وهى ميليشيا علوية).
— والسرايا الخاصة التابعة لعلى حيدر (وهو علوى) وهى وحدات فدائية خاصة من الجيش .
— واجهزة الجيش السرية (اجهزة المخابرات) التابعة للواء على دوبا (وهو علوى) .
— واجهزة الأمن الداخلية بقيادة احمد دياب (وهو علوى) .

ويقول الأستاذ يوسف بازل : « ان تلك المجموعة الغريبة من أجهزة القمع هى احدى أسباب دوام نظام حكم الأسد . بيد ان هناك عوامل اخرى لدوامه هى ان نظام الحكم كون لنفسه

اعوانا كثيرين بفضل نظام الفساد الذى اصبح يشكل مؤسسة حقيقية » .

ورغم ان نظام الحكم السورى يدعو الى نظام اشتراكى بحت وصارم ، الا انه اقام نظاما اقتصاديا ذا فعالية بالنسبة للمستفيدين منه . وفى عام ١٩٧٠ حين راى الرئيس الأسد القضاء على « النزعة اليسارية » التى يقودها صلاح جديد بدأ يعمل على تحرير النظام الاقتصادى بأمل جذب رؤوس الاموال وعودتها . وعلى الرغم من تكدس رؤوس الاموال ومحاولات الانتعاش الاقتصادى الا أن النتائج لم تكن ايجابية . ويقول بشارة خضر مدير مركز الابحاث الخاص بالعالم العربى المعاصر بجامعة لوفان : ان الانفتاح الاقتصادى الذى انتهجه حافظ الأسد سرعان ما اتضح انه انفتاح مفجع ، وذلك ان التسهيلات التى منحت للقطاع الخاص ساعدت على ظهور طبقة من الانتهازيين والمستغلين الذين لا ضمائر لهم ونمو عددهم بصورة هائلة ، واستطاع هؤلاء بدون المجازفة بأموالهم الخاصة ، جمع ثروات طائلة باشتراكهم فى عمليات مضاربة متباينة .

ويبدو ان الفساد المنتشر فى كل مكان هو مصدر الثروات المريبة التى قام بجمعها كبار موظفى الدولة .

ويشير ابريك رولو احد الصحفيين بصحيفة لوموند فى تحقيق عن سوريا بدوره الى(١) : « ان عدد المسئولين فى القطاع العام ووجهاء نظام الحكم ينتمون الى ما تعارف على تسميته بالبورجوازية — البيروقراطية . وتقول احدى التقريرات ان الدولة ، فى غضون عشرة اعوام ، كونت حوالى خمسمائة الف مليونير جديد » . ويواصل

(١) جريدة لوموند فى اعدادها الصادرة ايام ٢٩ ، ٣٠ يونيه ، ١ ، ٢ يوليو ١٩٨٣ .

... حا ان النظام الذى أقيم هو نظام احرف الـ (١) الثلاث وهى : نظم السمسرة ، والفساد ، والتهريب . وهكذا نشأت طبقة بورجواريه جديدة حديثة النعمة تدين بكل شىء الى الاعيب نظام الحكم الذى ترتبط به ، وتعارضها طبقة البورجوازية التقليدية (وهى غالبا سنية) التى شعرت بالاختناق بسبب هذا النظام .

ويجب ان نقر بان الفساد بلغ حدا اضطرت السلطة معه الى اتخاذ بعض الاجراءات لتهدئة غضب الراى العام . وعليه قام المؤتمر السابع للحزب فى شهر يناير عام ١٩٨٠ بادراج مسألة محاربة الفساد فى جدول اعماله ، وقد اثار الموضوع مناقشات عنيفة ، وقد مست الفضائح المعلنة بعض الوزراء وكبار المسئولين كما اخذت الصحف نفسها تردد تلك الاتهامات . فلطخت سمعة عبد الله الاحمر ، أمين عام مساعد الحزب ، وكذلك رفعت الاسد ـ شقيق الرئيس ـ الذى شن هجوما مضادا ، حيث خاض مزايدة ديماجوجية ودعا الى عودة نظام اشتراكى صارم ، والى تطهير الحزب . وبايعاز منه تألفت لجنة للتفتيش والرقابة من خمسة أعضاء . وكان من سلطة تلك اللجنة ادانة المخطئين واقتراح العقوبات على الرئيس الاسد أمين عام الحزب .

وعقب المؤتمر تألفت حكومة جديدة لمكافحة الفساد يوم ١٥ ديسمبر عام ١٩٨٠ تحت مسئولية عبد الرؤوف قاسم . ويقول احد الصحفيين السوريين فى دمشق : « ان كل هذا لم يكن الا ذرا للرماد فى العيون . فالفساد مؤسسة اقامها النظام وتم تنظيمها على اعلى مستوى فى اسرة الرئيس نفسها » . ويتهم هذا الشاهد ـ وهو لايعتبر معارضا مطلقا لنظام الحكم ـ رفعت الاسد : « بأنه رمز البورجوازية الطفيلية التى استتبت فى البلاد والتى جمعت بين

---

(١) ثالث الحروف الأبجدية الفرنسية (المترجم) .

السلطة السياسية والمغالاة فى الاتجار . فهو يتقاضى نسبة على جميع صفقات الدولة ، ويفرض شروطه على جميع العمليات الأخرى فماذا تريدون ان تفعل الحكومة اذا كان الرجل الثانى فى نظام الحكم هو سيد الفساد ، ويمثله فى باريس عثمان الا احد التجار الاثرياء الذى كلف باجراء بعض العمليات الاستثمارية لحساب رفعت الاسد .

ويقول امين الحافظ رئيس الجمهورية الاسبق : « ان الطائفية والقمع ـ والفساد يمثلون نظام الأسد » وهذا الاتهام الثلاثى هو شعار المعارضة ، تلك المعارضة التى تزداد اتساعا بصورة مطردة رغم تعرضها اخيرا لضربات قاسية ، « فدولة الاسد تضرب وتضرب بشدة » . ويقول ايريك رولو الصحفى بصحيفة لوموند : انه باسم المصلحة الوطنية ترتكب تجاوزات وجرائم تحت ستار حالة الطوارىء التى مازالت قائمة منذ قيام نظام الحكم .

الفصل الثالث

الصراع الداخلي

ومذبحة مدينة حماه

(١٩٧٠ الى يوليو عام ١٩٨٢)

ورغم عمليات القمع والكتمان الفائقة الحد التى ينتهجها النظام السورى الا أن المعارضة السورية لم تكل ، ولا زالت مشاكل نظام الحكم الداخلية كثيرة . والقطبان الرئيسيان للمعارضة هما الحزبان التقليديان ولا سيما حزب البعث الشرعى (١) من جهة والمعارضة الدينية من جهة آخرى .

ومنذ استيلاء حزب البعث على السلطة فى العراق يوم ١٧ يوليو عام ١٩٦٨ ، وخاصة منذ اقامة ميشيل عفلق فى بغداد حيث يمارس منصب أمين عام القيادة انوطنية (العزبية) للحزب لا يمكن أن تتناول المشكلة السورية – حيث تزعم الحكومة انتماءها الى حزب البعث – دون أن تتطرق الى مسألة العلاقات المؤلمة بين البلدين .

وبعد الانقلاب الذى قام به اللواء الأسد فى عام ١٩٧٠ ، صرحت حكومة بغداد فى حذر قائلة : « ان مستقبل العلاقات بين البلدين الشقيقين يتوقف على الحكومة السورية الجديدة » . ورغم أن البعثيين فى بغداد يستنكرون عملية مطاردة المناضلين التاريخيين المتبعة فى سوريا ، الا أنهم يلتزمون الصمت على أمل حمل الجانب السورى على قبول مشروع اقامة اتحاد للتصدى للخطط الامريكية فى الشرق الاوسط . والواقع أنه فى شهر يونيو عام ١٩٧٠ تقدم ويليام روجرز وزير الخارجية الامريكى بمشروع لتسوية نزاع الشرق الأوسط اعتبرته العراق اساءة خطيرة لمصالح الأمة العربية ، وبصفة خاصة لمصالح القضية الفلسطينية . لقد توفى عبدالناصر فى شهر سبتمبر ، ولتنسيق الرد ، ودت العراق أن تساندها دولة من دول ساحة القتال ، وعلى الأخص البلد

---

(١) نظرا للغموض الناتج عن استمرار الرئيس الأسد فى الحكم باسم البعث ولمحاولة ايضاح الامور فان مسمى « البعث الشرعى » يستخدم هنا للتعريف بالحزب الذى انشاه ميشيل عفلق والذى يوجد مقره اليوم فى بغداد .

الذى يشكل امتدادها الطبيعى ، وهى سوريا . والفكرة من ذلك هى التوصل فيما بعد الى مشاركة الاردن فى اى اتحاد ، او على الأقل التوصل الى وفاق بين بلدان « الجبهة الشرقية » .

لذا اوفد أحمد حسن البكر — الرئيس العراقى — صدام حسين — نائب رئيس مجلس قيادة الثورة — الى دمشق . والتقى بالرئيس الأسد يوم ٢٤ مارس عام ١٩٧٢ ، الا ان الرئيس السورى رفض جميع مقترحات ذلك الذى لم يكن آنذاك سوى الرجل الثانى العراقى . وبدا التوجس بين الرجلين منذ ذلك الحين .

فعندما تحدث صدام حسين مع حافظ الاسد عن سياسة الوحدة والجبهة العربية المشتركة أجابه مطالبا بالثمن وهو تقسيم مياه نهر الفرات ، والعوائد البترولية . طالب السورى بثمن مياه نهر الفرات الذى ينبع من سوريا ، ويعبر العراق الى ان يلتقى بنهر دجله فى خليج شط العرب . والواقع ان العراق فى حاجة الى تلك الطاقة الطبيعية لكى تتمكن من تنفيذ اصلاحها الزراعى وتنميتها الكهربائية . وفضلا عن ذلك طالب الرئيس السورى بمضاعفة العوائد التى تحصل عليها بلاده مقابل نقل البترول العراقى الى البحر المتوسط . وعند عودة صدام حسين من دمشق صرح باحساس ينم عن المرارة : « لقد ذهبت أتحدث عن القضية العربية فحدثونى بلهجة تجارية » .

الا انه منذ بداية حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ اتجهت قوة عراقية على الفور الى سوريا ، واشتركت فى معارك الجولان . وقد أدى هذا الاشتراك العراقى الى خلاف خطير . ففى الوقت الذى كاد أن يشن فيه هجوما عراقيا ، وافق الرئيس الأسد على وقف اطلاق النار دون حتى أن ينذر خلفاءه العراقيين وبعد ذلك اختلفت بغداد ودمشق حول سياسة ما بعد الحرب وان استمرت العراق تمد سوريا بمعونتها المالية .

وفى عام ١٩٧٥ بدا الموقف يتدهور . اذ تذرعت السلطة السورية بالنزاع حول تقسيم مياه نهر الفرات والخلافات حول مشاكل الشرق الاوسط (حيث اتهمت بغداد دمشق « بتصفية القضية الفلسطينية » ، ومحاولة السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية) ، وراحت تساند الأكراد فى شمال العراق فى الوقت الذى قامت بغداد فى ٦ مارس عام ١٩٧٥ بتوقيع اتفاق الجزائر الذى تعهد فيه الشاه بوقف المعونة التى يقدمها للبرزانى قائد التمرد . وكان ذلك بالنسبة للعراق « ضربة خنجر فى الظهر ليس له أى مبرر » (صحيفة الفاينانشيال تايمز بتاريخ ٢٣ يونيو عام ١٩٧٥) .

وفى يوم ١٣ مايو شن نظام الحكم السورى ثانى هجوم على العراق باغلاق مجاله الجوى امام الطائرات القادمة من بغداد . وصرحت صحيفة الفاينانشيال تايمز يوم ١٩ مايو بقولها بان سوريا قررت دون سابق اخطار عودة العمال السوريين الموجودين فى العراق على الفور واغلاق مركزها التجارى فى بغداد . وفى يوم ٢٥ مايو تم حظر ميناء اللاذقية على البضائع القادمة او المتجهة الى العراق ، واشارت الصحف الدولية الى انتقال بعض الوحدات العسكرية السورية من الجولان الى الحدود العراقية . وفى يوم ٨ يوليو تقدمت العراق بشكوى الى جامعة الدول العربية ضد تعديات سوريا المستمرة ، ووجهت نداء لهذا البلد من أجل انشاء جبهة مشتركة فى مواجهة العدو الاسرائيلى .

ان نمو هذا الخلاف الذى يعد احد المشاكل الأساسية فى مستقبل الأمة العربية سيرد تحليله فيما بعد(1) . بيد أن تدهور العلاقات بين الدولتين كان له منذ ذلك الحين تأثير على الحياة السياسية

---

(1) انظر الفصل السادس .

الداخلية فى سوريا . فقد رفضت قيادة حزب البعث العراقى التدخل فى الشئون السورية رغم استنكارها للخط الذى انتهجه طويلا نظام حكم الرئيس الأسد . ومع تدهور الموقف ، تحرر المناضلون فى حزب البعث من التزامهم بالتحفظ واتيح لهم ان يتحدثوا عن خلافهم مع نظام الحكم السورى . وفى شهر ابريل عام ١٩٧٥ قام حكم الرئيس الأسد بقمع البعثيين الشرعيين بعنف ، وتقول صحيفة الجارديان الصادرة فى ١٠ ابريل أن ما يربو على ٢٥٠ من الكوادر المدنيين والعسكريين تم القبض عليهم « بسبب تجسسهم لصالح العراق » . ومنذ ذلك التاريخ استمر القمع ضد البعثيين الشرعيين ، بيد ان أولئك واصلوا نشاطهم وهددوا نظام الحكم داخل الحزب الحاكم نفسه حيث يتمتعون بنفوذ بين الكوادر الاقليمية فى المدن والقرى .

وفى شهر مايو عام ١٩٧٨ شنت « حملة قمع » (صحيفة لوموند الصادرة فى ١١ و ١٢ يونيو) ضد مائتين من العسكريين البعثيين المتهمين بموالاة العراق . وفى شهر يوليو التالى قامت حملة تطهير واسعة لكوادر حزب البعث داخل الجيش وبصفة خاصة بين السنيين والمسيحيين وكان المقصود بتلك الحملة نحو ثلاثمائة ضابط وتم تصفية بعضهم واقصاء أو نقل البعض الاخر . وفى شهر سبتمبر أعلن البوليس التابع لنظام الحكم اكتشاف شبكة من حزب البعث موالية للعراق وتصفية اثنين وعشرين من مناضليها . ورغم التقارب الذى بدأ بين سوريا والعراق (١) عقب توقيع اتفاقية السلام بين السادات ودولة اسرائيل ، الا أن نظام الحكم السورى ظل يقظا ، وفى يوم ٣ فبراير عام ١٩٧٩ اشارت صحيفة الايكونوميست البريطانية الى حملة تطهير جديدة داخل الجيش بين المتعاطفين مع حزب البعث الشرعى الذين كشفوا عقب التقارب السورى العراقى .

(١) أنظر الفصل السادس .

ولم يطل أمد هذا التقارب ايضا ولذلك سرعان ما ظهرت بعض المشاكل ولا سيما من جانب دمشق الا أن رجلا تابع بحماس محاولة المصالحة هذه التى ترمز الى كفاح حياته كلها . وهذا الرجل المولع بالوحدة » ، والذى راح شهيد الوحدة هو صلاح الدين البيطار الذى شارك فى تأسيس حزب البعث .

وعندما كان البيطار رئيسا للوزراء فى الفترة ما بين عامى ١٩٦٣ ، ١٩٦٦ اراد أن يقطع الطريق على التيار العسكرى الذى كان يقوده صلاح جديد وحافظ الأسد وقام بمحاولات عديدة للاصلاحات الداخلية من أجل تنشيط العملية الديمقراطية ، وانقاذ القيادة الشرعية لحزب البعث واذا كانت تلك المحاولات قد لاقت موافقة ميشيل عفلق فيلسوف الحزب ، الا أنه سرعان ما اتضح ان مآلها الى الفشل بسبب النفوذ الذى أحرزته « اللجنة العسكرية » والذى عجز البيطار عن الحد من دوره . وقد اراد البيطار ايضا أن ينفذ فكرة الوحدة مع مصر فى الوقت الذى جنحت « اللجنة العسكرية » نحو سياسة تنادى بسوريا المستقلة . وعندما وجه رئيس الوزراء نداء أخيرا الى الشعب فى هذا الصدد فى أول يناير عام ١٩٦٦ اطاح به الانقلاب العسكرى الذى وقع فى ٢٣ فبراير ، ذلك الانقلاب الذى شهد — كما قال البيطار فيما بعد — نهاية السياسة البعثية فى سوريا وتم القبض على البيطار وكذلك على بعض قادة حزب البعث الشرعى (ومنهم شبيلى عصامى) ، وبدأ عفلق يعمل فى السر . وفى اواخر شهر اغسطس عام ١٩٦٦ استغل صلاح الدين البيطار فرصة تواطؤ بعض المناضلين الموالين له للفرار واللجوء الى لبنان ، حيث قام بمتابعة نشاطه السياسى ، وبصفة خاصة نشاطه الصحفى . وفى عام ١٩٦٧ وضع نفسه خارج الحزب ، واوضح انه الآن فى « هجرة داخلية » . وفى بيروت خاض النضال ضد سياسة الرئيس الأسد ، ووجه نداءات الى قوى المعارضة الوطنية من أجل اتحادها وتعاونها ضد الأسد .

عندما دخلت القوات السورية غرب بيروت (فى القطـاع الاسلامى) تلبية لدعوة الميليشيات المارونية المتطرفة فى عام ١٩٧٦ غادر صلاح الدين البيطار الذى تعرض للخطر مرارا (حيث انفجرت سيارته قبل ذلك ببضعة اسابيع) وتوجه الى باريس حيث قام بنشر مقال طويل فى صحيفة لوموند ليدين غزو الجيش السورى للبنان . ونظرا لأنه كان يفضل التحدث من أرض عربية فقد سافر الى القاهرة حيث بقى حتى زيارة السادات للقدس المحتلة فى عـام ١٩٧٧ . واستنكر تلك الزيارة التى لن يستتبعها — على حد قوله — نتائج ايجابية بالنسبة للقضية العربية — وبصفة خاصة — بالنسبة للفلسطينيين . حيث رأى ان الرئيس المصرى قد تسبب فى خلق وضع حرج بالنسبة للأمة العربية بأكملها ، وانه اشترك فى المؤامرة الامريكية ، وانه يهيء لتصفية القضايا العربية . ولمواجهة مثل هذا الموقف لم ير صلاح الدين البيطار سوى حل واحد وهو الوفاق بين دمشق وبغداد ، وانشاء جبهة استراتيجية مراقبة ســورية فلسطينية . وبعد قمة بغداد (فى شهر مارس عام ١٩٦٩) الذى ادان الاتفاقية المصرية الاسرائيلية ودعا الى الوحدة الســورية العراقيه ، تملك البيطار أمل كبير . ونزل الى دمشق للقاء الأسد متحديا كافة المخاطر وذلك بعد ابلاغ القادة العراقيين بمشروعه الذى رحبوا به ولما انتقد الأسد زيارة السادات للقدس بشـدة ، اعتقد البيطار انه من الممكن اجراء حوار صادق ، وانه يمكن ان يقنع الرئيس السورى باقامة اتصال ايجابى مع العراقيين وبعـد انتظاره ثلاثة أشهر دون ان يحظى بلقاء الرئيس الأسد غادر البيطار دمشق ليعود اليها مرة اخرى بعد شهرين .

والتقى اخيرا بسيد سوريا ، وكان لقاء فاشلا . وعند خروج ذلك الشريك الذى اسس حزب البعث من لقائه اوجزه فى عبارة مقتضبة قائلا : « لم اجد اذنا صاغية لاهتماماتى فهذا الاسد لن يخدم بالطبع ابدا القضية العربية ولا حتى القضية السورية » .

وعاد المناضل القديم الى باريس ، وقد استبد الغضب بقلبه وقرر انشاء صحيفة اسبوعية هى صحيفة « الاحياء العربى » وهو أول اسم لحزب البعث . والاحياء مرادف لبعث ويعنى نهضة وتجديد او انبعاث . وبعدما استقر صلاح الدين البيطـار فى مكتبة الصغير بشارع هوش فى باريس اوضح (١) قائلا : ان لصحيفته اتجاها وطنيا عربيـا . فانا أصدر — بلا مجادلة ، ومع محاولة الاستفادة من تحربتى — جريدة ايديولوجية لأعيد تنظيم الافكار ، واندد بالاكاذيب والاحتيالات . واعيد تأكيد بعض المبادىء الهامة . وارسم الخطوط العريضـة بتواضع نحو مستقبل امتنا العربية . فانت تعلم أن جريدة البعث فى دمشق لا تزال باسمى قانونا . ولكن حتى اسمى لا يمكن ان يذكر فيها . وفكرة انشاء جريدة ايديولوجية لاعضاء الحزب او المتعاطفين معه هى أحد مشروعاتى القديمة وقد تقررت تنفيذها » .

وسرعان ما اضطر صـلاح الدين البيطـار الى التنديد بنظام الحكم السورى الذى دفن مشروع المصالحة مع العـراق كلية والذى شدد القمع ضد المعارضة . وفى صحيفته حـارب البيطار بشدة سياسـة الرئيس الأسد . فكتب يقول ان ســوريا مريضة ومريضة بشدة « واضاف يقول ان نظام الحكم السورى يمثل خطرا على الوحدة الوطنية بسبب طابعه الطائفى . واخيرا اكد على أهمية الديمقراطية كحل وحيد بديل « لنظام الحكم المحتال والمستبد » . ودعا مرة اخرى الى الوحدة — قائلا :

« انه لا يمكن ان يكون هناك خلاص بلا وحدة وطنيـــة حقيقية وحية يتآخى فى كنفها جميع المواطنين دونما اعتبار لأى خلافات دينية او طائفية او اجتماعية .

---

(١) حديث مع الكاتب .

« وحدة وطنية داخل الجيش على أساس المبادىء العظيمة مبادىء الشرف والاخلاص لقضية الدفاع الوطنى والمصلحة الوطنية والشعبية . ذلك أن الجيش ليس فقط جيش الأمة ولكنه أيضا جيش الشعب ، ولا يمكن بأى حال من الاحوال ان تستولى عليه جماعة أو فرد أو طائفة . والوحدة الوطنية داخل الجيش يجب أن تستبعد أى جماعة تثير الانشقاقات الطائفية بين المجتمع ، حيث انها تخلق بذلك الفرقة بين الشعب والجيش وتؤثر على الدفاع عن البلاد .

— وحده بين جميع المواطنين تقوم على القيم الوطنية والحرية والكرامة والمساواة بين جميع الاديان ، والتطلعات الشرعية نحو تقدم كل فرد .

« وهناك هوة بين مجتمع يقوم على تلك المبادىء والمجتمع الذى يفرضه نظام الحكم العسكرى والبوليس السائد ....

ان سوريا تعانى من هذا النظام » ..

ان تلك الدعوة الى الوحدة بين السوريين ، والى الوحدة العربية خارج بلده الصغير هى وصية صلاح الدين البيطار وفى يوم ٢١ يوليو عام ١٩٨٠ وفى باريس قتل صلاح الدين البيطار بطلقات الرصاص . وقد كان يناهز الثامنة والستين من عمره . ودفن فى بغداد حيث قاد ميشيل عفلق رفيقه القديم فى الكفاح مراسم جنائزية عظيمة ، ولم يعثر أبدا على قتلة البيطار من الناحية الرسمية ، بيد أن المعارضة اتهمت صراحة نديم عمران (١) الملحق العسكرى بسفارة سوريا فى باريس .

ومما لا ريب فيه أن تلك التصفية انزلت ضربة عنيفة بأولئك

---

(١) جريدة « لاتريبين » العدد رقم ٤ والصادر فى شهر مايو ١٩٨٠ ومجلة الدفاع عن الحريات فى سوريا .

الذين لا يزالون فى سوريا ، يؤمنون بحزب بعث مدنى وديمقراطى وتقدمى حقيقى ، والذين انضموا الى البيطار الذى يتمتع بصيت شهير .

الا ان المعارضـة السياسية والعلمانية ليست المعارضة الوحيدة التى تعرضت لضربات نظام الحكم . فقد تكونت شيئا فشيئا معارضة أخرى أشد عنفا وأكثر عددا ، معارضة التقليديين السنيين الذين لم يرهبوا « باستيلاء الاقلية العلوية » على السلطة . وقامت رابطة الاخوان المسلمين بتنسيق تلك المعارضة .

ومن بين الحركات الايديولوجية الرائجة فى الشرق الاوسط تعد رابطة الاخوان المسلمين احدى الحركات السياسية العربية التى لا يعرف عنها الا القليل ولم تساهم ظاهرة الخمينى فى الكشف عن حقيقتها . وانما على العكس ، بادر عدد كبير من المعلقين — عن جهل أو بعد حساب — بوصف حركات لا تجمعها أى صفة مشتركة بذلك اللفظ العام ، لفظ « التطرف » .

وفجأة سلطت الاحداث أضواءها على الاخوان المسلمين بمقتل أنور السادات فى شهر اكتوبر عام ١٩٨١ . فقد أثار التماثل بين رابطتهم ونظام الخمينى اهتماما شديدا الى حد جعل الصحفيين يبرزونه ، خاصة وانه فى نفس الفترة بدأ تيار متطرف يظهر فى المغرب ، ومنه بين العاملين المهاجرين فى أوروبا ومرة أخرى فقد ساعد المزج المبسط على مهاجمة الاسلام ، واتهامه بأسوأ الانحرافات ، دون أدنى اعتبار لان الخمينى لا يمثل سوى أقلية ضئيلة من المجتمع الاسلامى ، وفوق ذلك أقلية غير نموذجية فالمذهب الشيعى الفارسى له طابع حقيقى خاص ، وهو بالتأكيد لا يمثل الديانة الاسلامية لا بأفكاره ولا بتطرفاته . وفيما يختص بالاخوان المسلمين هم يتمسكون بالتشدد السنى والعربى وجميع

الاخوان المناضلين أو القادة الذين التقيت بهم يدينون التجربة
الايرانية بشدة وتلك بصفة خاصة ، حالة الاخوان المسلمين
فى سوريا الذين يندون ، على سبيل المثال بالتحالف بين حافظ
الاسد والخمينى ضد العراق .

فمن هم « هؤلاء الاخوان الذين يعملون فى خدمة الاسلام » ؟
يجدر بنا ان نكتشف عمليات الخلط المتعجلة والسهلة التى تمزج
بين حركة الاخوان التاريخية التى تتمثل مهمتها فى « العمل
كجماعة ضغط من اجل اضفاء الطابع الاسلامى على المؤسسات
والحياة » والتى تدعو الى تطبيق الشريعة الاسلامية ، وبين
الجماعات الصغيرة المتطرفة العنيفة التى تدرج خطأ بين الجماعات
المتمسكة باصول الدين » فى حين انها ثورية . لقد بسط الغرب
الامور كما هى العادة . فهو لا يرى سوى طائفة متعصبة
ورجعية تريد ان تقود ما يشبه الحرب المقدسة (١) ومرجع تلك
الحركة فى الاصل الى عمل رجل هو حسن البنا . وهو مصرى
ولد فى عام ١٩٠٦ فى المحمودية بالقرب من الاسكندرية وتقول
سيرة حياته التى قدمتها تلك الرابطة : « انه تخرج من جامعة
الاداب بالقاهرة ، وكرس نفسه للتعليم من مدينة الى آخرى داعيا
امته ان تعمل بما جاء فى القران وان تتمسك بسنة الرسول »
وانه قام بتاسيس اول دار للاخوان المسلمين فى مدينة الاسماعيلية
فى عام ١٩٢٨ موضحا اهدافهم : « علينا ان نعمل ، وعلى الله
التوفيق . ولنقسم على طاعة الله ، ولنكون جنود الرسالة
الاسلامية . نحن الاخوان المسلمون » . وقام بعد ذلك بزيارة المدن

(١) من الضرى ان نبرز ان كلمة جهاد لم تعن ابدا
الحرب المقدسة وهذه الاخيرة ترجمة حره وغير دقيقة يرجع
اصلها الى عهد الصليبيين . فكلمة جهاد تعنى النضال من اجل
العقيدة » .

القرى المصرية وسرعان ما اقيم فى كل مكان « بيت من بيوت
الرسالة » وقام حسن البنا بتأسيس صحيفة « الاخوان المسلمين »
فى القاهره عندما وقعت كارثة فلسطين (فى عامى ١٩٤٧ —
١٩٤٨) كانت « كتيبة الاخوان المسلمين » من اكثر كتائب المقاتلين
المتطوعين نشاطا ، ومنذ شهر ديسمبر عام ١٩٤٨ بدأت الحركة
التى تصدت للسيطرة الانجليزية الامريكية على الحكم تعمل فى
السر وتقول سيرة حياة حسن البنا الرسمية » ان الامبريالية
حضت على قتل حسن البنا ، وقد اغتيل فى عام ١٩٤٩ فى القاهرة
وترك مؤلفات غزيرة عن القتال ، ولا سيما مذكراته عن الرسالة
وعن المبشر ورسالاته .

ويقول أوليفييه كاريه وجيرار ميشو (١) أن البنا كان رجلا
مثقفا ، ابدى اهتمامه بعلماء الاجتماع الاوروبيين (مثل سبنجلر
وسبنسر ، وتوينبى) ، وقد كان مشغولا بنزعة مصر الاسلامية
العميقة وبالفعل ، وعلى خلاف ما يزعمون عادة ، فقد كان هدف
الحركة احياء الاسلام العربى الذى شهد فترة سبات طويلة فى ظل
الامبراطورية العثمانية ، وبدل أن تتخذ تلك الحركة طابعا رجعيا ،
حاولت أن تضع حدا لفترة خمول الفكر الاسلامى . وخلال مؤتمرها
الاول الذى عقد فى عام ١٩٣٣ بلغ عدد الاخوان فى مصر نحو
الف عضو جندوا من بين صفوف الطبقة المتوسطة وصغار التجار .
وعند وفاة حسن البنا قدر عددهم بمليون ، منهم ٤٠٠٠٠ من
الميليشيا ، وفى عام ١٩٥١ تعاون الاخوان المسلمون تعاونا وثيقا
مع حركة الضباط الاحرار لكنهم سرعان ما اصطدموا بناصر ، وفى
ظل عهد السادات قاموا بتكثيف نشاطهم ، وخاصة بعد زيارة
الرئيس للقدس المحتلة وتوقيع اتفاقية السلام الثنائية مع اسرائيل

(١) كتاب « الاخوان المسلمون » بدار نشر جاليمار بباريس
١٩٨٣ .

وفى الوقت الذى كانوا يطالبون فيه بالاعتراف القانونى بهم ، نددوا ، بنظام حكم السادات الفاسد ، وواصلوا نشاطهم الدائب فى الجيش والجامعة ، وفى شهر يونيو عام ١٩٨١ نشطت عملية القمع ضد الاخوان فى ظل نظام حكم السادات ، وفى ٦ اكتوبر عام ١٩٨١ قتل الرئيس على يد جماعة فدائية (كوماندوز) متطرفة يعد المهندس فرج مؤلف كتاب « تنظيم الجهاد الجديد » هو المحرض الرئيسى لها ولم يعلن الاخوان المسلمون مسئوليتهم عن عملية الاغتيال .

وفى سوريا اتسعت رابطة الاخوان المسلمين فى نفس الوقت الذى تزايد فيه عدد الاخوان المسلمين فى مصر وقد اسسها مصطفى السباعى أول مراقب عام لها ، حيث قام بجمع عدد من الجماعات الاسلامية تحت اسم « شباب محمد » ، وبعـــد أن أجرى بعض الاتصالات مع الاخوان المسلمين المصريين قرر اتخاذ اسم « الاخوان المسلمين » فى عام ١٩٣٧ ، واقامة تنسيق بينهم دون اى رابطة تبعية وتقوم هياكل الرابطة سواء — فى مصر أو فى ســوريا على النحو التالى : مراقب عـــام (رئيس) يرأس المجلس التنفيذى (الحكومة) يعينه مجلس تشريعى (البرلمان) وتنتخبه القاعدة المناضلة ، ويقوم المجلس التشريعى ايضا بانتخاب مجلس قانونى وهو شبه محكمة عليا مكلفة بالفصل فى الخلافات بين الاعضاء ومراعاة احترام الميثاق ، ويقول عدنان سعد الدين عضو المجلس التنفيذى ورئيس المكتب السياسى للاخـــوان المسلمين فى ســوريا « ان تكوين الاخوان المسلمين تكوين ديمقراطى تام والمناقشات الداخلية حرة » ، وقد نمت تلك الرابطة بصفة خاصة فيما بين فترة الاستقلال وعام ١٩٦٣ ، وضمت بعض النواب ، بل وبعض الوزراء حتى ذلك التاريخ ، وللاخوان المسلمين السوريين بالطبع نفس اهداف الاخوان المسلمين فى مصر ، بيد انهم اكثر اهتماما بمسالة

القومية العربية ، وغالبا مايربطون بين نضالهم من أجل الاسلام ونضالهم من اجل القضايا العربية مثل الاستقلال الوطنى وتحرير فلسطين .

وتتمتع الرابطة بنفوذ شديد فى المدن السنية التقليـــدية مثل مدينة حماه ، وحمص ، وحلب ، وكذلك فى دمشـــق ، هى تجند اعضاءها بصفة رئيسية بين الطبقات المتوسطة وعادة ما تشــكل اغلبية داخل النقابات المهنية (المحامين والمهندسين) كما انها تمارس نشاطا داخل الجامعة .

وفى ظل نظام حكم الرئيس الاسد حققت حركة الاخـــوان المسلمين تقدما ، ويذكر أوليفييه كاريه وجيرار ميشو(١) انه : فى عام ١٩٧٠ اكتمل التطور العسكرى الطائفى لنظام الحكم بمجىء اللواء حافظ الاسد (العلوى) الى السلطة فى ١٦ نوفمبر وفى ١٢ مارس عام ١٩٧١ انتخب حافظ الاسد رئيسا للجمهورية ، منتزعا ذلك المنصب من الطائفة السنية لأول مرة فى تاريخ البلاد .

الا ان نظام حكم الرئيس الاسد لم يهاجم فى بادىء الامر المسلمين المتطرفين ، اذ راى أن الخطـــر الاول صادر عن القوى التقدمية وهى الجماعة البعيدة عن الاتحاد السوفيتى فى الحـــزب الشيوعى والمؤيدة لرياض ترك ، وخاصة حزب البعث الشرعى . ولكى يحمى الاسد نفسه من اليمين اخذ يخطب وسط رجال الاعمال والقوى الدينية بل انه فى بادىء حكمه صرح ايضا للاخوان المسلمين بفتح معسكرات للتدريب العسكرى فى الجبال العلوية .

بيد ان الرئيس الاسد ارتكب خطأ ادى الى ظهور المشـــكلة الدينية ، ففى يوم ٣١ يناير عام ١٩٧٣ حمل مجلس الشعب على اعتماد دستور لم يشر الى دين رئيس الدولة ، فقام العلماء بمساندة

(١) كتاب الاخوان المسلمين — السابق الاشارة اليه .

الاخوان المسلمين بتنظيم اول مظاهرة طائفية ضد نظام الحكم وفى احدى التصريحات طالب العلماء باعادة النظر فى مشروع القانون وأدراج بند الاسلام دين رئيس الدولة ، وفى يوم ٢١ فبراير نشبت مظاهرات عنيفة فى المقاطعات السنية التقليدية بمدينة حماه وحمص وحلب ، وسرعان ما تحولت تلك المظاهرات الى مصادمات عنيفة ادت الى سقوط ضحايا عديدة ورضخ الحكم للمرة الاولى والوحيدة ، وبناء على طلب الرئيس الاسد ادرجت مادة جديدة فى الدستور تنص على « ان الاسلام هو دين الدولة » بيد ان هذا التنازل لم يهدىء من روع الدوائر السنية التى تعتقد ان النزعة العلمانية التى يدعو اليها نظام الحكم ليست على الاطلاق سوى نزعة مناهضة للسنية . واثناء الاستفتاء العام على اعتماد الدستور (فى ١٢ مارس) كان عدد المتنعين عن التصويت كبيرا فى المناطق السنية ، واستؤنفت الاضطرابات يوم ١٥ ابريل عقب صدور قرار آخر من جانب الحكومة يحرم المظاهرات المعتادة بمناسبة المولد النبوى ، وشهد نظام الحكم فترة هدوء بسبب حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ التى عبات كل الشعب السورى المعروف بوطنيته . واستؤنفت الاضطرابات بسبب التدخل السورى فى لبنان .

وقد ادى التدخل العسكرى فى لبنان (فى ٣١ مايو عام ١٩٧٦) عقب الازمة التى نشبت فى هذا البلد فى شهر ابريل عام ١٩٧٥ تلبية لدعوة الحكومة اللبنانية والميليشيات المارونية الى وقوع اشتباكات بين الجيش السورى من جهة والمقاومة الفلسطينية وحلفائها من الحركة الوطنية اللبنانية (الوطنية التقدمية) من جهة اخرى واخذ الوضع يتدهور بصورة كبيرة اثناء حصار المعسكر الفلسطينى فى تل الزعتر الذى بدات الميليشيات المارونية المتطرفة فى يوم ٢٢ يونيو عام ١٩٧٩ ، ولم تتهم منظمة التحرير الفلسطينية السوريين فحسب بمشاهدة مذبحة النساء والاطفال الفلسطينيين دون تأثر ، وانما ايضا بمنح مساندتها المدفعية لليمين المسيحى

التطرف ، وثارت المعارضة السورية ، ولا سيما السنيين الذين — على حد قول اوليفييه كاريه — اعتبروا « التحالف غير الطبيعى مع الائتلاف المارونى بمثابة محاولة لاقامة محور جديد من الاقلية العلوية المارونية لتثبيت هيمنته فى المنطقة »(١) ، وتم القبض على العسكريين والكوادر الموالين من حزب البعث للقيادة الشرعية الموجودة فى بغداد بعد اكتشاف قيام مؤامرة ، وحدثت بعض عمليات الاغتيال ضد انصار نظام حكم الرئيس الاسد ، ونجا عبد الحليم خدام وزير الخارجية — الذى شجع على التدخل فى لبنان — باعجوبة من محاولة اغتياله فى اول ديسمبر ، واستمرت سلسلة الاغتيالات طوال عام ١٩٧٧ ، وكان المسئولون عن تلك العمليات بصفة عامة ، سوريين موالين للعراق او مناضلين من الاخوان المسلمين ، وفلسطينيين .

وفى مستهل عام ١٩٧٨ اصابت الاغتيالات على التوالى ثلاثا من اقارب الرئيس الاسد وشقيقه رفعت كما اصابت نحو عشرة من انصار نظام الحكم وجميعهم علويون ، ونسبت عمليات الاغتيال للمسلمين المتطرفين ، بيد ان الاخوان المسلمين لم يدانوا صراحة ، وكقاعدة عامة فضل الحكم القاء مسئولية الاغتيالات على العراق لتبرير مواقفه العدائية حيال هذا البلد . وشهد عامى ١٩٧٨ — ١٩٧٩ تحولا بنشوب موجة جديدة من الاغتيالات تميزت بطابع طائفى لا جدال فيه ، وفى يوم ١٠ مارس عام ١٩٧٨ تم اغتيال يوسف عيد ، وفى ١٨ مارس كان دور ابراهيم نعامة عضو الحزب الحاكم الموالى للسوفييت ، وفى ٢٠ يونيو سقط مدير سجن المزة بدوره ، وفى شهر ابريل بصفة خاصة اصيب رفعت الاسد اثناء محاولة لاغتياله كما أصيبت واحدة من زوجاته الاربع ، وقد اصيب كذلك افراد آخرون كثيرون من المحيطين بالرئيس ، وفىشهر

---

(١) كتاب الاخوان المسلمون السابق الاشارة اليه .

مارس عام ١٩٧٩ اتهم الاخوان المسلمين مباشرة بتدبير هجوم ضد مقر جهاز المخابرات (الاجهزة السرية) فى دمشق .

وقد تم فى تلك الفترة تصفية حوالى عشرة من افراد اجهزة البوليس أو ميليشيات نظام الحكم ، ولكن فى يوم ١٦ يونيو عام ١٩٧٩ بلغت تلك الاغتيالات ذروتها .

فقد قامت فى ذلك اليوم وحدة فدائية بمهاجمة مدرسة المدفعية بمدينة حلب ، وبعد أن سيطرت على المدرسة قامت بتصفية ثمانين من طلابها ، تم انتقاؤهم بصفة مطلقة من بين العلويين من دفعة الخريجين (وعددهم ٢٦٠ من ٣٢٠ عدد الطلبة الاجمالى) ، والغريب ان صحف نظام الحكم خصصت صدى واسعا لذلك الاعتداء ، وفى يوم ٢٤ يونيو حددت « الاخوان المسلمين » الذين اتهموا « ببذر بذور الفرقة الدينية والطائفية »(١) ، بصورة عاجلة اتهم حوالى خمسة عشر شخصا كان قد حكم عليهم بالاعدام بتهمة « التآمر لصالح العراق » (اذن بعثيين) واعيد تصنيفهم على عجل بأنهم اخوان مسلمون « وتم اعدامهم » ، ومنذ ذلك الحين بدأت الحرب بين الدولة والاخوان ، الا ان الاخوان اكتشفوا مكيدة فى مسألة حلب ، انكر عدنان سعد الدين المتحدث باسم الرابطة أى مشاركة من جانب الاخوان فى عملية الاعتداء »(٢) : لست اجادل فى أن رابطتنا اضطرت الى اللجوء الى النضال المسلح مرارا ، الا اننا لم نكن سبب هذا الصراع ، ولم نقم الا بالردعلى استفزازات نظام الحكم وقمعه . ولسنا نريد سوى الديمقراطية وحرية التعبير ، بيد أننا لاحظنا منذ عامى ١٩٧٨ و ١٩٧٩ رغبة الحكم فى تصفيتنا ، ودافعنا عن أنفسنا بقيامنا ببعض الاعمال التى استهدفت بعض المسئولين العسكريين

---

(١) جريدة تشرين الصادرة يوم ٢٤ يونيه ١٩٧٩

(٢) حديث مع الكاتب .

او السياسيين الذين شاركوا فى عملية القمع ضد حركتنا ، فى حين اننا كنا دائما نعارض الارهاب الاعمى الذى يستهدف بلا اى تمييز اشخاصا لمجرد انتمائهم الطائفى ، والمشكلة انه كانت هنـــاك عناصر متطرفة اضطررنا الى استبعادها نظرا لاتجاهها الى القيام بمبادرات كنا نستنكرها ، ونحن ندين عملية الاعتداء التى وقعت بمدينة حلب .

وقد تجمع المتطرفون داخل تنظيم « الطليعة » بقيادة عدنان عقلة الذى قرر مواجهة السلطة فى ساحة العنف ، وساعد هــذا التنظيم ـ المستقل عن الاخوان المسلمين ـ السلطة على اعطاء صورة عنيفة لحركة الاخوان ، ولم يتردد احد الصحفيين السوريين عدنان بدر عن التأكيد بأن تلك الجماعة تتصرف فى الواقع كما لو كانت تريد بأى ثمن أن تخدم الحكم السورى ، ومثل تلك الجرائم التى لا سند ولا مبرر لها تعد مباركة لنظام الحكم لانها تثير الطوائف على بعضها ، ولا تعمل الاعلى اتساع نطاق الصراع الطـائفى . وعدنان عقلة على احسن الافتراضات هو رجل غير مسئول ، وعلى اسوئها هو رجل مأجور»(١) .

ولا جدال فى أن نظام الحكم استغل مسألة حلب ليس فقط للتنديد بالاخوان المسلمين ، وانما ايضا لاستئناف حملته لدى العلويين حول موضوع « نحن او الزوال » .

وقد اوضح احد المسئولين العلويين فى نظام الحكم قائلا « ان الاخوان المسلمين يريدون تصفية العلويين ، وهم يعيبون علينا اننا ملحدون وانفصاليون ، ولا يطيقون وجودنا كأقلية دينية » .

وثار سعد الدين على هــذا الراى بقوله : « ان عدونا لا يتمثل فى الطائفة العلوية ، فنظام الحكم هو الذى يشعل النزعة

---

(١) مجلة الف باء العراقية يوليو ١٩٧٩

الطائفية لاثارة الطوائف على بعضها ، ونحن نعتبر العلويين مسلمين بصفة كاملة ، وليس هناك فى راينا سوى شعب سورى واحد لا استثناء ولا تمييز بينه ، ونحن نسلم بوجود العلويين مثلما نسلم بوجود المسيحيين الذين يدعون القرآن الى ان نعتبرهم اشقاءنا » .

ويستطرد سعد الدين مبتسما : « انه لدى الغربيين صورة كاريكاتيرية عن الاخوان ، فلسنا بغيلان او شياطين ولم نطالب ابدا باعادة عهد محاكم التفتيش ، وكل ما هنالك اننا نريد ان نكون الحراس الساهرين على حماية كياننا وعقيدتنا الاسلامية ولا نقبل أن تهيمن جماعة طائفية على الطائفة الغالبة (السنية) ، والا تسىء معاملتها بصفة خاصة » . وختم رئيس المكتب السياسى للاخوان المسلمين قوله باتهام نظام الحكم بالمراءاة فقال : « كيف يمكن ان يحارب حافظ الاسد الاخوان المسلمين الذين يتهمهم بالتطرف الدينى وان يكون حليف الخمينى ؟ وليس هذا التضارب الظاهرى سوى دليلا على وقاحة هذا الرجل » .

والواقع ، يبدو ان بعض العصابات الصغيرة المتشددة ـ والمتطرفة التى تلجا الى العنف طواعية سواء فى مسالة حلب العلوية قد استطاعت أن تتخطى الاخوان المسلمين وتقوم بعملياتها الارهابية وبعد بضعة ايام من عملية الاعتداء التى وقعت بمدينة حلب ادان المسئول عن الاخوان المسلمين تلك العملية بصفة رسمية فى جريدة الدعوة السعودية بقوله : « ان الاتهام الموجه ضد الاخوان يعد افتراء ، فالقادة السوريون يريدون القاء مسئولية ذلك الاعتداء على رابطتنا لستر مشاكلهم الداخلية ، وتهيئة لابادة القوى الاسلامية » .

ويقدم الاستاذ محمد انجيرينى احد المحامين بمدينة حلب ، وعضو من اعضاء الاخوان المسلمين ذلك الايضاح الهام حول الاعتداء على طلبة الكلية العسكرية العلويين فيقول : « ان الذى

قاد عملية الاعتداء يدعى ابراهيم يوسف وهو نقيب بالجيش ، وعضو الحزب الحاكم ، وقد كان له حساب شخصى يريد تسويته مع نظام الحكم ، مسالة خطيرة راح ضحيتها احد افراد اسرته . ومن المحتمل ان يكون هذا الرجل قد لاقى تاييد من جانب الحركات الراديكالية » ، ويستوضح الاستاذ انجيرينى ان جماعة الاخوان المسلمين لا يمكن ان تعتبر مسئولة عن جميع عمليات الاعتداء فيقول : « انه اذا كانت حركتنا تعتبر القوة الدينية الرئيسية ، الا انه توجد حركات صغيرة مشابهة غير منظمة » .

ونظرا لطبيعة المنظمة غير المشروعة والسرية فليس من السهل عادة أن تعرف « من يقف مع من » ، والواقع ان تسمية الاخوان المسلمين ـ لا يمكن أن تنطبق على جميع المتطرفين ـ او على جميع الحركات الدينية ، فهى لا تعنى الا رابطة الاخوان على النحو الذى قامت عليه حول ميثاقها ومؤسساتها وقد عقدت الرابطة مؤتمرا فى عام ١٩٨٠ لتجديد قيادتها ، بعد ان ظلت طويلا تحت قيادة عصام العطار المراقب العام الذى يقيم فى المنفى بمدينة اكس لا شابيل منذ عام ١٩٦٨ ، وقد هزم العطار ، وحلت محله قيادة جديدة اكثر نشاطا ، واكثر اتصالا بالعسكريين فى سوريا ، وربما اكثر تشددا ، والمراقب العام الجديد هو حسن هريدى ، احد الاطباء ببير الزور ونائب المراقب ومدير المكتب السياسى هو عدنان سعد الدين ، ومن بين اعضاء القيادة يجب أن نذكر سيد هوا من مدينة حماه وعلى البيونى من مدينة حلب ، واليوم يقود ذلك الفريق جماعة الاخوان المسلمين باكملها فى سوريا ، فى حين لا يحتفظ العطار الا بجماعة محدودة تماما بمدينة اكس لاشابيل ، وفى نفس الوقت لا تزال حركة « الطليعة » بقيادة عدنان عقلة هى الحركة المتشددة الاكثر نشاطا ، وبعد محاولة للاتحاد مع الاخوان فى عام ١٩٨١

استرد عقلة استقلاله ، وما زال يقود اعمالا عنيفة تثير قمعا شرسا من جانب نظام الحكم .

ولا جدال فى ان الاخوان قد نما نفوذهم فى البلاد الى حد بدأ يثير نظام الحكم منذ عام ١٩٨٠ ، والى درجة ان مشكلة « الامن » ادرجت فى جدول اعمال مؤتمر الحزب الحاكم السابع . وقد برز فيه رفعت الاسد بحزمه ، واعلن انه يجب استخدام وسائل حازمة ضد الاخوان المسلمين » .

واقترح اصدار قانون يقضى بالتطهير الوطنى، وتشكيل محاكم « شعبية » واعادة تعليم المحكوم عليهم ، واغلاق المساجد المستخدمة لنشر الفكر الدينى ..

وفى هذا الصراع الهائل بين السلطة والسنيين لم يطل امد انتظار رد الاخوان المسلمين ، ففى شهر مارس عام ١٩٨٠ انتهز الاخوان ذكرى تولى الحزب الحاكم لتنظيم اضراب عام فى جميع ارجاء البلاد والقيام بمظاهرات معادية ضد الرئيس حافظ الاسد ورفعت الاسد ، ووقعت مصادمات عنيفة مع قوات القمع ، ودارت معارك بالاسلحة الثقيلة فى مدينتى حماة وحلب اللتان قادتا التمرد . وقام المتظاهرون ايضا بمهاجمة بعض المستشارين السوفييت ومبانيهم (القنصليات ، ومكاتب شركة الطيران السوفيتية) لاعلان معارضتهم للماركسية الملحدة ولنظام حكم الاسد ايضا ، والواقع ان هذا التمرد الذى عم واجتاح جميع ارجاء البلاد قد طغى على حركة الاخوان المسلمين اذ اشترك كل حزب من احزاب المعارضة فى المعركة فقام البعثيون الشرعيون (الموالون للعراق) بنشاط داخل الجيش والحزب وداخل مناطق النفوذ التقليدية لحزب البعث، ظهرت التنظيمات الناصرية من جديد خلف محمد الجراح بمدينة دمشق وتحرك الاشتراكيون العرب بقيادة اكرم الحورانى فى مدينة حماه وحلب ،

واللاذقية ، ودير الزور ، وحمص ، وتحركت الاحزاب بكافة اشكالها من الشيوعيين المنشقين بقيادة رياض ترك الى اعتى الطرفين ولكن فى ظل الانقسام ودون تنظيم مسابق . ولم تتمكن المعارضة العلمانية والسياسية (مثل حزب البعث ، والناصريين، الاشتراكيين العرب ، والمنشقين الشيوعيين) من وضع برنامج سياسى ، علاوة على ان الاحزاب العلمانية لم تكن تفكر حتى الآن فى الاتحاد مع القوى الدينية، وقد وجد حافظ الاسد من جانبه الفرصة سانحة للتنديد بالاخوان المسلمين باعتبارهم مثيرو تلك الاحداث والدعوة الى معاقبتهم نظرا لان الخوف قد استبد بنظام الحكم فكان رد فعله معادلا لهذا الخوف .

وراحت السلطة توجه ضرباتها كما كان ينشد رفعت الاسد . وازدادت العمليات التأديبية ، فكان القمع رهيبا، وكانت القائمة التى وضعت بناء على الوثائق الماخوذة عن الصحف مذهلة(1) .

وفى ١٠ مارس عام ١٩٨٠ قامت الميليشيا التابعة لرفعت الاسد بمهاجمة قرية جسر الشغور ، وبتصفية حوالى مائة شخص ، وفى ٩ مارس اجريت عملية قمع بمدينة معارة (اسفرت عن مقتل ثلاثين شخصا) وبمدينة اوليت (اسفرت عن مقتل ستة عشر شخصا) . وفى شهر ابريل وقعت عمليات تمشيط واعتقالات بمدينتى حلب وحمص

---

(1) كان مرجعنا الصحف الانجلوساكسونية المعروفة بدقتها فيما يختص ببيانات حقوق الانسان وكذلك ببطاقات معلومات العالم العربى التى يعدها لوسيان جورج (بيروت) وبالنسبة لعدد الضحايا فقد اخترت ما ذكرته الصحف او المنظمات الدولية بدلا من الارقام التى اذاعتها المعارضة السورية .

(حيث قتل ثمانية اشخاص) ، وفى مدينة حلب وبصفة خاصة فى ١٨ يونيو عام ١٩٨٠ — وقعت المذبحة الكبرى بسجن بالمير .

وسجن بالمير هو ثكنة قديمة شيدتها الفرقة الاجنبية الفرنسية على مسافة بضعة كيلو مترات من المدينة العجيبة التى اتخذتها الاميرة زينوبيا عاصمة لها ، والتى يأتى اليها السائحون لمشاهدة جمالها. فمن ذا الذى يظن أنه على مقربة شديدة من مدينة دمشق وعلى مسافة مائتى متر منها وفى رحاب فندق الميريديان وبالقرب من تلك الاطلال العظيمة التى يجب مشاهدتها عند شروق الشمس وقعت مذبحة حقيقية ؟ وفى سجن بالمير جانب مخصص للمعتقلين السياسيين ، وبصفة رئيسية للمتطرفين الدينيين ، ويقول الشهود أن أولئك المعتقلين لا يخرجون أبدا من السجن ، وقد عزلوا خلف عشرة ابواب تفصلهم عن العالم الخارجى .

وهنا قررنظام الحكم اعطاء درس كعبرة وذلك باقامة مذبحة . ولدينا فكرة واضحة عن مسار تلك المذبحة بفضل مذكرة قدمتها البعثة الدائمة التابعة للملكة الاردنية للجنة حقوق الانسان فى جنيف اثناء دورتها السابعة والثلاثين (وفى شهر مارس عام ١٩٨١) والتى وقد قدمت تلك المذكرة احتجاجا ضد المذبحة التى وقعت فى سجن بالمير بسوريا يوم ٢٧ يونيو عام ١٩٨٠ والتى قتل خلالها خمسمائة معتقل .

تستند المذكرة على وثيقة هامة مرفقة بها هى الشهادة الكاملة التى ادلى بها طرفان شاركا فى المذبحة ، وتم القبض عليهما فى الاردن عندما كانا يتاهبان لاغتيال رئيس الوزراء الاردنى الذى اتهمه نظام الحكم فى دمشق بمعاونة الاخوان المسلمين .

وقد اعترفا هذان الارهابيان بانهما ينتمان الى «سرايا الدفاع» التابعة لرفعت الاسد ، وانهما شاركا فى مذبحة سجن بالمير بهذه الصفة .

واعلنا انهما فى فجر يوم ٢٧ يونيو كانا من عداد اللواء ٤٠ التابع لسراى الدفاع ، وقد تم جمعهم فى الساعة الثالثة صباحا فى حضور رئيسهم اللواء معين نصيف الذى صرح لهم بان الاخوان المسلمين حاولوا اغتيال الرئيس ، ومن قبيل الانتقام سيقومون بتصفية احد « مراكز الاخوان المسلمين » وهو سجن بالمير ، وعلى الفور انضم اللواء ٤٠ الى اللواء ١٣٨ بقيادة على ديب وهو علوى من مدينة اللاذقية ، وصعد جميع الرجال على متن طائرات عمودية توجهت نحو السجن الذى بلغته فى الساعة السابعة صباحا ، وبعد تقسيمهم الى جماعات صغيرة فتحوا ابواب العنابر وبداوا يطلقون النيران . هذا وقد تم ايضا قتل معتقلين آخرين كانوا قد حشدوا فى فناء الثكنة بحجة الافراج عنهم على متن طائرات الهيليكوبتر . ويقول هذان الطرفان ان القنابل اطلقت ايضا على اولئك التعساء الذين وقفوا يصيحون بلا دفاع مكبرين « الله اكبر » ، ويناشدون مهاجميهم الرحمة ، وبعد ذلك بساعة عادت سرايا الدفاع الى طائراتها الهليكوبتر ، تاركة على الساحة ما ينيف عن ٤٠٠ قتيل . وقد حصل كل طرف شارك فى المذبحة على مبلغ من المال كمكافاة وفى شهر سبتمبر عام ١٩٨٠ طالبت هيئة العفو الدولية الرئيس الاسد بتشكيل لجنة تحقيق ، ولكن بلا نتيجة .

واعقبت تلك المذبحة اشتباكات عديدة فى جميع مدن البلاد ولا سيما فى مدينة حلب بل فى دمشق فى ميدان العباسيين فى شهر اغسطس عام ١٩٨٠ . وكان زعيم عملية القمع هو ايضا رفعت الاسد الذى كتب فى صحيفة « تيشرين » بتاريخ ٣١ يوليو عام ١٩٨٠ : سوف نشن حروبا كثيرة على الاخوان المسلمين حتى نفنيهم من آخرهم ، نحن نعرف بالضبط الأماكن التى يختبئون بها فى سوريا او فى الخارج ، وسوف نطاردهم اينما كانوا ، والحقيقة انه منذ يوم ٧ يوليو اصبح قتل اى فرد من افراد الاخوان المسلمين « امرا مشروعا » لأن البرلمان صوت بالاجماع على قانون يفرض عقوبة

الاعدام الطقائية على افراد الرابطة ، وفى ٢٦ اغسطس كتبت صحيفة « تيشرين » تقول ان اى مواطن سورى سيقوم بقتل اى فرد من افراد الاخوان سوف يكلفا » ، ومن المؤكد ان تلك الدعوة لم تقتصر على الاخوان وحدهم ، وانما استهدفت جميع المعارضين وامتدت عملية القمع هذه الى الخارج ، فى لبنان ، والاردن ، وفى الامارات العربية ، والكويت ، بل فى المانيا الاتحادية حيث راحت زوجة عصام العطار ابنة الشيخ طنطاوى ضحية احدى عمليات الاغتيال .

والمدن التى ازداد فيها نشاط الاخوان المسلمين هى التى تاثرت بهذا القمع تاثرا بالغا ومنها مدينة حلب ، وحمص ، وبصفة خاصة مدينة حماه التى اصبحت فيما بعد المدينة الشهيدة .

ومدينة حماه هى رابع مدن سوريا بعدد سكانها الذى بلغ فى مستهل عام ١٩٨٢ اقل بقليل من ٣٠٠ الف نسمة ، وتقع حماه على مسافة ٢٠٠ كيلومتر من مدينة دمشق ، ويعبرها مجرى نهر اورونت المتعرج الذى تحيطه خضرة البساتين .

وقد اشاد باريس(١) بمدينة حماه « العتيقة الغامضة حيث تدور سواقيها ليلا ونهارا على طول النهر لترفع مياهه الحيرة وتملأ بانينها السماء » .

ويقسم النهر المدينة الى منطقتين : المنطقة الاولى فى الشرق والشمال وتمثل حى الحاضر ، والثانية هى حى السوق فى الغرب والجنوب ، وقد شيدت المدينة فى واد غنى محاط بالجبال .

---

(١) كتاب « حديقة على نهر الاورونت » دار نشر بلون – باريس ١٩٢٢ .

وفى الغرب يقع جبل الانصريين الذى يقطنه العلويون واغلبية السكان هى اغلبية سنية الى جانب اقلية مسيحية ضئيلة (وتمثل ٨٪ من السكان) تعيش فى تجانس تام مع الاغلبية الاسلامية .

ومدينة حماه هى اقدم مدينة فى البلاد ، ويرجع اصلها الى القرن الخامس قبل الميلاد ، وتعاقبت فيها الحضارات التى جذبتها خصوبة الموقع مثل حضارة السومريين ، والآشوريين ، والحيثيين ، والاكاديين ، والاماليثيين ، وهى تقع فى مفترق طريق استراتيجى بين سهل ما بين النهرين والبحر المتوسط من جهة ، وتركيا وفلسطين من جهة اخرى ، وقد تعرضت لغزوات عديدة ، ودمرها الفرس .

وكانت مدينة حماه فى البداية تعد قلعة من قلاع الاسلام . كما كانت ابان الحملات الصليبية المدينة الوحيدة التى تصدت لمحاولات الحصار ، ولم يمكن اخضاعها ابدا ، ففى ظل حكم صلاح الدين أصبحت حماه من اكبر الامارات الايوبية ، ولعبت دورا اساسيا فى العصر الذهبى للاسلام (العصور الوسطى الاوروبية) ، وبلغت أوجها فى ظل حكم امراء حماه فى القرن الثالث عشر والرابع عشر ولا سيما فى ظل حكم الملك ابو الفدا . وبعد ان غزاها المغول بقيادة هولاكو شهدت نفس المصير الذى شهدته بغداد ، ونهبت وهدمت مرة ثانية . الا ان آثارها ومعاقلها قد أعيد بناؤها لتصبح واحدة من ابدع مدن المنطقة واغناها ، وقد برزت ايضا فى مواجهة غزو واستعمار العثمانيين باعتبارها قطبا من اقطاب المقاومة العربية .

وفى ظل الانتداب الفرنسى ، تزايدت الثورات فيها ولعبت المدينة دورا هاما فى النضال من اجل الاستقلال ، واعادة الحريات السياسية ، وقد جعل تاريخها المضطرب من تلك القلعة العتيقة

حدى القلاع الحصينة القومية العربية والكيان الاسلامى ومكافحة الاستبداد ، ومنذ قرابة عشرين عاما اصبحت مدينة حماه أهم مركز من مراكز الحركة الاسلامية فى سوريا ولا سيما حركة «الاخوان المسلمين» . والمدينة مشهورة بتقوى مواطنيها ويوجد بها ما يربو عن مائة مسجد . كان بعضها آية فى الجمال ويجوز (بنا للاسف ان نتحدث بصيغة الماضى بعد احداث عام ١٩٨٢) مثل المسجد الكبير الذى شيد فوق احد المعابد الرومانية الذى يوجد بداخله مقابر امراء مدينة حماه ، ومسجد الثعابين حيث يرقد جثمان ابو الفدا ، ومسجد الغورى الذى يقع عند سفح القلعة . ولم تعد كل هذه المساجد سوى اطلال . كذلك حال الكنيسة الافريقية الارثوذكسية القديمة بحى المدنية ...

وباستيلاء حافظ الاسد على السلطة اخذت المعارضة التقليدية فى مدينة حماة فى الازدياد حيال انظمة الحكم العلمانية فى دمشق . فلم يحتمل سكان تلك المدينة ـ وهم جيران منطقة العلويين الاقربين ـ وما وصفوه بالصبغة الطائفية التى صبغ بها العلويون تدريجيا نظام الحكم . ويضاف اذن الى التنافر القديم بين الفلاحين الجبليين واهل الحضر الاثرياء تشكك السنيين التقليديين حيال الطائفة العلوية التى لا يتردد البعض عن وصفها بانها طائفة انفصالية ، ومنذ عام ١٩٧٣ اثار المشروع الدستورى العلمانى استنكار الطائفة السنية ، واصبحت مدينة حماة واحدة من المقاطعات التى فاق فيها عنف المعارضة كل عنف . وعندما اتهمت حكومة دمشق مدينة حماة بانها مركز «المعارضة المتطرفة» أجاب السكان بان معارضتهم نشأت عن سلسلة طويلة من الاستفزازات . وبالفعل ، فقد اثار تعيين ادارة مؤيدة لنظام الحكم ومنتقاه من الموظفين العلويين استياء حقيقيا ، وتذكر صحيفة الهيرالد تريبيون فى عددها الصادر يوم ٢٦ يونيو عام ١٩٨١ ان المسئولين فى معارضة نظام حكم الاسد يحتجون على تركيز

المناصب الحكومية والعسكرية فى أيدى أبناء طائفة الرئيس حافظ الاسد» رغم أن الطائفة العلوية تشكل «أقلية ضئيلة للغاية» . ويضيف كاتب المقال : انه يبدو أن «الاختيار قد وقع على مدينة حماة بصفة خاصة بهدف تاديبها» .

والحقيقة أن الحكومة السورية التى اضطرت الى مواجهة الاضطراب متعددة الصور سعت الى حصر المعارضة فى دائرة الاخوان المسلمين والمتطرفين بحيث تنقذ صورتها التقدمية فكانت مدينة حماة هى كبش الفداء المنشود ، وفى الفترة ما بين عامى ١٩٧٩ و ١٩٨٢ اتسعت الدائرة العادية ، من الاستفزاز الى التمرد ومن التمرد الى القمع . اذ دفعت عمليات الاعتداء المتطرفة التى وقعت فى عام ١٩٧٩ ـ ولا سيما تلك العملية التى ارتكبت ضد طلبة الكلية العسكرية بمدينة حلب ـ دفعت نظام الحكم الى تشديد ضرباته . وفى يوم ٢٧ يونيو عام ١٩٧٩ تم اعدام خمسة عشر شابا من المعارضين بمدينة حماة . وفى شهر اغسطس تم القضاء على الشيخ محمد شقفية احد الزعماء الدينيين المهمين ، وفى نهاية **نفس العام وجه محافظ المدينة هذا الانذار الغريب :**

«لو استمرت الاضطرابات سأحمل تلك المدينة على الركوع وسوف احطم أماكن العبادة وهى مراكز الاضطراب ، ومنازل المعارضين . وسوف أقوم بتصفية عشرة آلاف شخص اذا لزم الأمر» .

ومثل هذا التصريح من جانب السلطة الرئيسية فى المنطقة ما كان ليؤدى الى تعزيز الثقة بين السلطة المركزية والسكان ، الا انه كان من المفروض أن يحمل هؤلاء السكان على مزيد من الحذر . انما على العكس ، ففى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٧٩ نشب الاضراب العام ، وردت السلطة بتعزيز دورياتها مع اقرار حظر التجول ، وفرض عمليات تفتيش مستمرة . وفى أول

مارس عام ١٩٨٠ تم قمع احدى المظاهرات بالقوة ، وقـــد قتل عشرون جثة تقريبا شوارع السوق . وفى ٥ مارس احاطت سرايا الدفاع التابعة لرفعت الاسد والقوات الخاصة التابعة لعلى حيدر المدينة وحاصرت المنازل والقت القبض على مئات الاشــخاص . واستمرت العمليات البوليسية طيلة بضعة ايام ، وقامت اشتباكات بين معارضى نظام الحكم وميليشياته . واستمرت الاضطرابات طوال عام ١٩٨٠ ، فكان يتم قمع كل مظاهرة من جانب السكان بالعنف ، مما كان يؤدى الى عمليات تمشيط واسعة ، واعتقالات ، واعمال عنف تثير سخط السكان .

وقعت اضطرابات شديدة خلال الاسبوع الممتد من ٢٢ الى ٢٤ ابريل عام ١٩٨١ ، فقد حاصرت سرايا الدفاع التابعـة لرفعت الاسد والقوات الخاصة المدينة ، وقامت بقصف مدفعى اسفر عن سقوط عشرات الضحايا . وتقول صحيفة الهيرالد تريبيون بتاريخ ٢٦ يونيو عام ١٩٨١ : « انه اجريت بعض الاعتقالات ، والاشخاص الذين تم اعتقالهم اصطفوا فى مواجهة جدار ، وقتلوا بالمدافع الرشاشة . واختلفت الروايات حول تقدير عدد الضحايا ، ولكن اكثرها اهلا للثقة تقول ان هذا العدد يبلغ على اقل تقدير ١٥٠ قتيلا وبالتاكيد بضعة مئات » .

واول مذبحة وقعت فى مدينة حماة هى التى يطلق عليها السوريون « المذبحة الصغرى » بالمقارنة بالمذبحة الكبرى التى وقعت فى شهر فبراير عام ١٩٨٢ .

انه الشهر الرهيب . فقد قامت سرايا الدفاع التابعة لرفعت الاسد والقوات الخاصة التابعة لحيدر ، والفرق المدرعة ٤٧ و ٢١ ، وبعض فصائل فرقة التدخل السريع التابعة للـواء على الديب بمحاصرة المدينة . وقطعت الكهرباء والخطوط التليفونية ، واغلقت مداخل المدينة ، وعزلت مدينة حماة عن باقى العالم وعندما ابدى بعض الضباط دهشتهم لاتخاذ مثل تلك الاجراءات ضد احدى

المدن السورية ، وسالوا عما اذا كان من المفروض محاربة المعارضة بنفس الحرب على ٢٠٠،٠٠٠ نسمة اجاب اللواء الديب بقوله : « ان الرئيس اصدر امرا بضرب كل المدينة بما فيها من سكان ومعارضين . وعلينا ان ننفذ الامر . والمراد هو ارغام معظم السكان على مغادرة المدينة » .

ويقول سعد الدين مدير المكتب السياسى للاخوان المسلمين : « ان هذا التاكيد بالغ الاهمية « فقد قامت السلطة بعمليات استفزازية عديدة ضد مدينة حماة لكى تجد ذريعة لتصفية المدينة لا لتصفية مقاتلينا وحدهم . ومنذ عام ١٩٨١ اعد نظام حكم الاسد خطة لاخلاء مدينة حماة واستبدال سكانها باسر علوية وتركية » .

وفى يوم ٢ فبراير فى الساعة الحادية والعشرين بدأت عملية قصف بالمدفعية ضد قطاع البارودية القديم بحى الحاضر حيث يبلغ نشاط المعارضة حدا فائقا . ويقول الشهود : ان الطيران باشر ايضا نشاطه ووجهت المعارضة نداء للمقاومة واستولت ميليشيات الاخوان المسلمين على مستودع أسلحة ، بيد أن معظم السكان قبعوا فى ديارهم .

وتقول احدى التقارير الرسمية الصادرة عن حكومة دمشق ، والاجهزة الاعلامية ، ان عدد المقاتلين من المعارضة لم يتجاوز ٥٠٠ ويجيب احد المحامين ـ وكان قد فقد أسرته باكملها فى تلك المذبحة ـ انه حتى وان بلغ هذا العدد قرابة الالف من ٢٠٠،٠٠٠ نسمة فهل كان ذلك يبرر الهجوم المنتظم الذى يشنه الجيش باكمله وعمليات القصف وكل ما استتبع ذلك ؟..

ان ما استتبع ذلك كان فى الواقع اشد سوءا . فمن الواضح انه منذ بداية الاشتباكات كان لدى الجيش النظامى والميليشيات التابعة للسلطة القدرة على احتواء الحركة المعارضة وحصرها . وفى صباح يوم ٣ فبراير قام الجيش الحكومى باقتحام المدينة

بالمدرعات وصمدت المعارضة واستولت على قلعة « القادة » بعد أن أبادت حملتها .. ودارت فيها طوال اليـوم معارك ضارية ، وسقطت القلعة فى الليل . وتكونت بعض جيوب المقاومة بحى الحاضر ، ولكنها قصفت بالصواريخ ، وبدأت منازل الحى القديم تنهار المنزل تلو الآخر دون أن يجد المدنيون وقتا للفرار . وفى صباح يوم ٤ فبراير لم تكن تلك المنطقة الا ساحة من الانقاض يتصاعد منها دخان أسود يشهده سكان الأحياء الأخرى وقد استبد بهم الذعر . وفى يوم الاربعاء ٥ فبراير سيطر الجيش النظامى على المدينة سيطرة تامة وتوقفت كل معارضة مسلحة ، واعتقد الجميع أن نظام الحكم سيقف عند ذلك الحد ، الا أنه فى منتصف النهار وصلت قوات جديدة ، وبعض المدرعات والمدافع الرشاشة . وتساءل السكان : « لماذا كل ذلك الانتشار طالما لم تعد هناك مقاومة ؟ » .

وفجأة سقط وابل من القذائف فى حى السوق . ويقول بعض الضباط ان رئيس الدولة قد أصدر أمرا بتنفيذ عمليات اعدام جماعية فى جميع أرجاء المدينة . وبعد السوق تم قصف حى الرئاسة — وهو حى الدباغة — بالقنابل ، ثم حى آخر ثم غيره ايضا ، وبعد يوم ٧ فبراير كان دور المشاة فى التدخل فانتشروا فى جميع الأحياء . واندفع بعض المسئولين من أجهزة الأمن نحو منازل المعارضين المعروفين والزعماء الدينيين ، وتم قتل كل من تواجدوا بها بما فى ذلك اسرهم وحتى الاطفال الصغار . وفيما عدا ذلك ، فقد تركت المدينة للقوة التى تسرق ، وتنتهك الأعراض وتغتال وفقا لهواها ، وهو ما افتخر به فيما بعد احد ميليشيات سرايا الدفاع أمام بعض ممن نجوا من المذبحة بقوله : « لقد قمنا بقتل الجميع بحى الباشورة ، الرجال والنساء والاطفال ، وحتى الكلاب ، وتركنا الجثث فريسة للكلاب والفئران » .

ومن المؤكد أن بعض الجنود ترددوا فى الاشتراك فى تلك

المذابح ، وخاصة جنود الوحدات الفدائية التابعة للجيش . وقام احد الضباط العلويين بقتل عريف حين حاول منع رجاله من انتهاك عرض فتاة صغيرة ، وهو يصيح ثائرا : « اقتلوهم جميعا » . وأمام سوق الصاغة حدث ما لم يكن فى الخاطر : فقد نشبت حادثة بين سرايا الدفاع التابعة لرفعت الأسد والالوية الخاصة التابعة لحيدر ، اذ كان كل طرف يريد أن يدخل الأول لنهب الذهب والفضة والجواهر . وشهد بعض السكان — الذين نجوا من المذبحة وقد انتابهم الذهول — نشوب معركة منظمة بين جلاديهم لتحديد أيهم ستكون له حظوة تصفية السكان ونهبهم . وتدخل رفعت الأسد بصفة شخصية كى يحظى رجاله بالأولوية ، متذرعا بأن « ذلك أمر طبيعى حيث أنهم شغلوا منذ بداية المذبحة فى مهام الابادة ، ولم يتح لهم الوقت حتى الآن للاثراء » .

وأمام المسجد الكبير تجمع عشرات السكان فاستهزأت بهم الميليشيات ، وسخرت منهم بقولها : « اسألوا الله أن ينجيكم » . وقامت بتصفيتهم عند مدخل هذا المكان المقدس نفسه . وفى أحياء أخرى انقض المهاجمون على الشباب سواء الفتيان أو الفتيات بلا تمييز فى الدين (مسيحيين أو سنيين) وبلا أى تفرقة . وتم تصفية أحد أعضاء الحزب الحاكم هو وأسرته بينما كان يرفع بطاقته . وعلق على ذلك أحد سرايا الدفاع قائلا : « انه لم يكن علويا » ، وكان المسئولون الدينيون هم المقصودون بذلك بصفة خاصة .

وقد قتل بعضهم داخل مساجدهم التى أشعلت فيها النيران . وقام الجنود بسحب عبد الله هلال وهو شيخ يناهز الثمانين من عمره الى الفناء وطلب اليه أن يتلو القرآن . واستجاب هذا الرجل الكهل لطلبهم ، بيد أن رجال الميليشيات قاطعوه بقولهم : « ان ربك لا يسمعك ، وسوف نبعثك لتلحق به » ، وسكبوا عليه البنزين ، واشعلوا النيران فى ملابسه ، وراح رجال الميليشيات يحطمون

ويسرقون وينهبون فى كل مكان . ونهبت المتـــاحف ، وخربت المساجد والكنائس ، وكذلك جميع الأعمال الفنية بالمدينة . وحاول من نجوا الفرار ، ووجد عدد كبير من السكان مأوى لدى القرى المجاورة .

واستمرت تلك المذبحـــة العجيبة حتى يوم ٢٢ فبــراير ، وفى ذلك اليوم توجه رفعت الأســد الى المدينة على متن طــائرة هيليكوبتر ، وحلق فوقها لكى يتبين مدى الخراب ، ثم جمع ضباطه وسألهم :

● « كم قتيــل ؟ » .

– قد يكونون عشرين الفا ..

● ان هذا الرقم لضئيل بالنسبة لعدد السكان الأصلى »(١)

هكذا كان رد رفعت الأسد الذى أمر ضباطه بابلاغ السكان بأن كل شىء قد انتهى . وفى يومى ٢٣ و ٢٤ فبراير تجمع الذين نجوا من المذبحة وبدأ الذين فروا من المدينة يعودون اليها بيد أنه فى يوم الجمعة ٢٦ فبراير قامت الميليشيات باقتحام المدينة من جديد . وحملت مئات الأشخاص عنوة ، وكلهم من الرجـــال ، ونقلتهم فى شاحنات الى ميادين مهجورة ويروى الرجل الوحيـــد الذى نجا من المذبحة قائلا : « انهم راحوا يطلقون نيران المدافع الرشاشة ، ويقذفون القنابل اليدوية . فتواريت تحت الجثث وهو الأمر الذى كان صببا فى نجاتى وعند سدول الليل لذت بالفرار ، بينما مات الاخرون عن آخرهم » .

ومن العسير أن تقدم كشفا دقيقا بعدد الضحايا فقد ذكرت هيئة العفو الدولية أن عدد القتلى يبلغ ١٥٠٠٠ ، بينما نشرت المعارضــة

(١) ما يقرب من ٣٠٠ر٠٠٠ شخص .

السورية قائمة بالاسر التى أبيدت وتشير الى أن عــدد القتــل يبلغ ٤٠ر٠٠٠ . وبغض النظر عن تلك المحصلة المحزنة فالحقيقة أن نظام الحكم لم يتردد فى قتل السكان باحدى مدنه لتكون عبرة رهيبة لغيرها .

وبدلا من ان يخفى للجريمة راح يزهو بها ف وقاحة ، ويروى اندريه بوتار ف مجلة الاكسبريس (بتاريخ ٢٥ فبراير عام ١٩٨٢) قائلا : « انه حين اقدمنا ف جراة لنقول لعبد الحليم خدام وزيـر الخارجية ان حكومته تبدو صارمة حيال لبنان اندفع ف غضب وقال: لم يشكون ، فنحن نعامل مواطنيننا معاملة اشد عنفا »، وتضيف صحيفة الجارديان البريطانية : ان رفعت الاسد قال بعد مذبحة حماة: « اننا قمنا بتسوية مشكلة تحديد المواليد لبضعة اعوام » .

وبالفعل فقد حقق نظام الحكم مآربه : حيث تم تصفية المقر العام للاخوان المسلمين ، كما شاهدت أكثر المدن السورية ثورية شهرا مأساويا لن تفيق منه،ويقول احد الصحفيين الفرنسيين — ممن اتيح لهم زيارة مدينة حماة بعد المذبحة ببضعة اشهر — بأنه لم يعرف المدينة . ويستطرد : ان الاحيــاء القديمة تم سحقها بواسـطة البولدوزورات ، والسكان الذين لاذوا بالفرار لم يسمح لهم بالعودة ، وان السلطة قامت ببناء أحياء جديدة اسكنت فيها العلويين والاتراك والاكراد ،والطابع السنى والتقليدى للمدينة شوه على الاقل بنسبة الثلثين . اما الباقى فقد ارهب » .

وكان لابد من حدوث تلك المذبحة كى يتحقق حلم صلاح الدين البيطار القديم ، وكى توحد المعارضة جهودها . فبعـد أن قامت المعارضة طيلة بضعة اعوام باعمال منفصلة لم تتشاور بشانها توالى فشلها ، وتعرضت لقمع دام ، وقدرت هيئة العفو الدولية عدد المعتقلين السياسيين فى سوريا عام ١٩٨٣ باكثر من عشرة آلاف .

هذا خلاف عمليات الاغتيال والتصفية . ويعتقد زعماء المعارضة باختلاف مشاربهم ان الاوان آن لتنسيق أعمالهم والا « سيظل الاسد فى الحكم لمدة خمسة عشر عاما آخر » على حد قول احدهم .

وفى ١١ مارس ١٩٨٢ التقى ممثلو المعارضة السياسية والعسكرية فى بغداد ، وقاموا – باستثناء الشيوعيين المنشقين بقيادة رياض ترك(١) – بتوقيع ميثاق تحالف وطنى من اجل تحرير سوريا . وضمت تلك الجبهة لاول مرة الاخوان المسلمين والمعارضة السياسية العلمانية وشملت : حزب البعث الشرعى الذى يمثله محمد عمر برهان وشبلى عصامى امين عام مساعد الحزب ، والاتحاد الاشتراكى العربى (الناصريين بقيادة محمد الجراح (٢)) : والاخوان المسلمين (بقيادة

---

(١) يبدو ان القوى الدينية لم ترغب حقيقة فى اقامة اتحاد مع حزب ماركسى بالدرجة الاولى رغم تمسكه بمبدأ القومية العربية . وبالنسبة لرياض ترك فقد تم القبض عليه فى عام ١٩٨٠ وفى عام ١٩٨٣ وجه انصاره نداء للمجتمع الدولى بخصوص ظروف اعتقاله وسجنه ابرزوا فيه ان حياته فى خطر .

(٢) اقيم الاتحاد الاشتراكى العربى عام ١٩٦٤ فى بيروت بواسطة مناضلين سوريين يتمتعون بمساندة مصر وقد ضم عددا من المنظمات الوطنية ذات الاتجاه الناصرى مثل الجبهة العربية المتحدة والوحدويون الاشتراكيون ... واسندت الرئاسة فى بادىء الامر الى هانى الهندى ، جمال اتاسى ، نهاد القاسم ومحمد الجراح .

وانقسم الاتحاد الاشتراكى العربى فى عام ١٩٦٨ الى جماعتين: فنجد فى جانب الاتحاد الاشتراكى العربى التابع لمحمد الجراح نائب « دوما » السابق (١٩٥٣ – ١٩٥٤) والرئيس السابق للجندرمة (قوات البوليس) . وابتداء من عام ١٩٧٠ – عارضت هذه الحركة الاسد وتم القبض على الجراح فى عام ١٩٧٢ وهرب الى =

عدنان سعدالدين) والحركة الاشتراكية العربية بقيادة اكرم الحورانى (١) ، والجبهة الاسلامية التى ضمت شخصيات مسلمة مستقلة من الاخوان المسلمين وشخصيات مختلفة مستقلة منهما الحافظ رئيس الجمهورية الاسبق .

وميثاق التحالف الوطنى من اجل تحرير سوريا يمثل بيان المعارضة . ويؤكد بصفة خاصة : « ان التاريخ لم يشهد مأساة كبيرة مثل تلك التى يعيشها شعبنا فى ظل نظام حكم حافظ الاسد الذى فرض الارهاب والقمع بكافة صوره .

لقد قام هذا النظام بقمع الحريات العامة والخاصة ، وبسجن اعداد كبيرة من المواطنين ، وتعذيبهم ، واعدامهم بلا محاكمة ... واطلق العنان لعصابة من المجرمين لينشروا الرعب ، ويخلقوا جوا

= ليبيا (١٩٧٢) ومنذ ذلك التاريخ يعيش فى المنفى وهو يحتفظ برئاسة الحزب السرى الذى يتمتع بنشاط كبير فى الضواحى العمالية لدمشق .

ونجد من ناحية اخرى حزب الاتحاد الاشتراكى العربى التابع لجمال الاتاسى والذى انضم لحافظ الاسد فى الفترة من عام ١٩٧١ وحتى شهر اغسطس ١٩٧٣ ثم انضم بعد ذلك لصفوف المعارضة ولكن بعض اعضاء هذا الحزب لا زالوا منضمين للجبهة الحكومية .

(١) يعتبر اكرم الحورانى من ابرز الشخصيات المحلية فى سوريا ويزاول انصاره نشاطا مكثفا خاصة فى حماه مسقط راسه حيث اقام الحزب الاشتراكى العربى فى الاربعينات قبل ان ينضم فى عام ١٩٥٣ لحزب البعث العربى والاشتراكى . وقد شغل الحورانى منصب نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة خلال الفترة من ١٩٥٨ وحتى ١٩٦١ وهو يعيش فى المنفى فى باريس .

من عدم الامان ، وينهبوا ، ويخالفوا العادات ويدمروا المساجد والكنائس .

والهدف الذى يبغيه نظام الحكم الدموى هذا هو الاساءة الى كرامة هذا الشعب ، وتحدى مشاعره الدينية والوطنية بل لقد ذهب الى حد اصدار القانون رقم ٤٩ لعام ١٩٨٠ الذى ينص على اعدام اعضاء رابطة الاخوان المسلمين فورا ... وقد استخدم هذا القانون لتصفية جميع أولئك الذين يسببون له الازعاج .

وكان تدمير مدينة حماة هو ذروة هذا الطغيان ، اذ حاصرت القوى التابعة لنظام الحكم المدينة الشهيدة وحرمتها من المياه والمؤن وقصفتها بالمدفعية والطيران والدبابات ، وابادت الاحياء الشعبية وباشرت عمليات النهب وهتك الاعراض ، وفضلا عن ذلك حظر حافظ الاسد على السكان الذين تمكنوا من الفرار من المدينة من العودة اليها كما فعل الصهاينة فى فلسطين .

والهدف الرئيسى من سلسلة القمع الدامية التى ينتهجها حافظ الاسد هو تغيير طابع سوريا التاريخى والسكانى بمحاربة القومية العربية والاسلام .. وتقسيم سوريا دويلات طائفية وقد أدى هذا النظام الى مولد آفة الطائفية التى لم تعرفها البلاد أبدا على مدى تاريخها ..

وتعنى تلك الطائفية ... تعصب جماعة حاكمة منعزلة عن الشعب وقد استغل نظام الحكم هذا التعصب للبقاء فى السلطة ... واستولى اعضاؤه على المناصب الرئيسية .

هذا كما وضع هذا النظام حدا للدور التقليدى الطليعى لسوريا من القضايا العربية . اذ أنه حين فرض نفسه عسكريا فى لبنان ، تسبب فى تدمير البلاد وفى انقسام الشعب الشقيق وقد قام

بضرب الحركة الوطنية اللبنانية (١) ، واغتيال بعض قادتها (٢) وذبح الآلاف من الفلسطينيين فى تل الزعتر وسعى الى تصفية المقاومة الفلسطينية .

ان مسئولية حافظ الاسد ابان حرب عام ١٩٧٣ مسئولية خطيرة . اذ تصرف ضد تطلعات شعبه وجيشه . فبعد أن وصل الجيش العراقى الى ساحة القتال ، ومنع العدو الصهيونى من الاستيلاء على دمشق ، وتهيأ لشن هجومه أعلن حافظ الاسد وقف اطلاق النار .

وعلى الصعيد العربى مايزال حافظ الاسد يعمل ضد المصالح القومية العربية . وهكذا جعل من البلد العراقى الشقيق هدف مؤامراته ، وأيد نظام الحكم الايرانى الذى يسانده الكيان الصهيونى (٣) بغية استنزاف امكانيات العراق البشرية والمادية ، وابقاء العرب فى حالة عجز عن مواجهة أعدائهم .

وقد اتفق نظام حكم حافظ الاسد مع الاسرائيليين على تقسيم لبنان وعلى التآمر ضد الوحدة والتضامن العربى .

ان حمل الشعب السورى السلاح ليس اذن حق فحسب ، وانما هو واجب . هو رد طبيعى على القهر والتفرقة والديكتاتورية . وعلى كل فرد ان يؤدى واجبه فى مساندة ثورة شعبنا .

لهذا السبب التفت بعض الاحزاب والمنظمات والشخصيات التى قررت انقاذ سوريا لكى تضع حدا لنظام حكم حافظ الاسد

---

(١) الحركة الوطنية التقدمية
(٢) كمال جنبلاط على سبيل المثال
(٣) من المعروف ان الخمينى يحصل على جانب كبير من اسلحته من الاسرائيليين .

وتقيم نظام حكم دستورى يقوم على الفصل بين السلطات بما يكفل
نظام تعدد الاحزاب السياسية والمساواة بين جميع المواطنين وهذا
هو النظام الذى ينشده الشعب السورى . نظام يقوم على احترام
الكرامة الانسانية والحريات العامة ، نظام ديمقراطى (١) .

والكلمة الهامة فى هذا الميثـاق هى الديمقراطية ، لجميع
اتجاهات المعارضة السورية التى وقعت على هذا النص مقتنعة
بأن البديل الوحيد لنظام حكم حافظ الاسد هو نظام متعـدد
الاحزاب ديمقراطى تكفل فيه الحريات ، بما فى ذلك الحرية الدينية
للأقليات .

وعلاوة على ذلك فقد استفادت المعارضة – على حد قول امين
الحافظ رئيس الجمهورية الاسبق – من دروس أحـداث الاعوام
الاخيرة ، وبصفة خاصة من مذبحة مدينة حماة . فقد ادركت –
وللاسف بعد فوات الاوان بعض الشىء – أن تلك المعارضة المنقسمة
والطائفية فقط لاتكفى للرد على طائفية نظام الحكم السورى . وعلى
العكس فان وجودها معناه الانخراط فى لعبة نظام الحكم . ومن
الاسلم من جهة أخرى الا تهمل المعارضة السياسية (حزب البعث ،
والناصريين ، والمستقلين) التيـار الدينى العميق خاصة وانه
لايعتبر تيارا متطرفا ، وليس بينه وبين تجربة الخمينى المؤلمة اى
تشابه ، لقد شجعت المصلحة كلا الطرفين على الاتحاد » .

ومن الممكن بالطبع أن نتساءل عن الفرص المتاحة أمام تلك
الجبهة بالنظر الى تشدد نظام الحكم . ان محمد الجراح – على سبيل
المثال – يرفض الاستسلام للتفاؤل الشديد فيقول : « ان هذا
النظام يمكن أن يستمر لبضعة اعوام لأنه شديد الانغلاق على نفسه

(١) عن مجلة « لاتريبين » رقم ٨ سبتمبر ١٩٨٢ ومنشور لجنة الدفاع عن الحريات والمعتقلين السياسيين فى سوريا .

وهو نظام بوليسى وقمعى . فضلا عن ان طبقة المستفيدين الطفيليين
تتمسك بالمزايا التى منحها لها اشقاء الاسد . وفى ظل ديكتاتورى
تحولى لا يمكن الا لرد فعل شعبى ان يحدث تغييرا ، ولابد ان
يكون رد الفعل هذا شاملا . ولهذا السبب قمنا بالانضمام الى
التحالف الوطنى من اجل تحرير سوريا اذ انه بتوحيد قوانا ،
وبعملنا بصفة خاصة يمكن ان نخلق الظروف اللازمة لقيام ثورة ،
ولكن تلك الثورة لايجب ان تكرر الخطا الذى ارتكب فى مدينـة
حماة ، وانما يجب ان تكون ثورة عامة » .

ويجيب الموقعون على الميثاق على اولئك الذين يشكون فى
صلابة الوفاق بان الوحدة هى فرصتهم الوحيدة . ويؤكد شبيل
عصامى ذلك بقوله : « بان زمن الاحقاد قد ولى ، ولايمكن لسوريا
ان تخرج منه الا فى اطار ديمقراطى » . وضرورة الديمقراطيـة
امر يقره جميع قادة المعارضة ، وهكذا فان امين الحافظ الرئيس
الاسبق يعتقد « ان زمن الحزب الواحد قد ولى فى سوريا ، اذ ليس
لدى اى حزب او اى اتجاه الامكانيات التى تمكنه من ان يحكم
بمفرده او يفرض نظامه . ويجب علينا بصفة خاصة ان ندرك ان
الشعب السورى يتطلع اخيرا الى نظام اساسه الحرية » .

وذلك هو ايضا راى اكرم الحورانى اذ يقول : « انه لا يوجد
هناك سوى بديل ، حل واحد يتلخص فى كلمة : الديمقراطية . ويجب
اخيرا اقامة حكم وطنى وديمقراطى على اساس جبهة واسعة تضم
جميع القوى الحقيقية فى البلاد . فهناك تقليد ديمقراطى فى سوريا
يجب تجديده . وتلك هى وجهة نظر جميع المعارضين فى سوريا ،
والوحدة حول تلك المسالة امر اساسى خاصة وانها تتفق والتطلع
الرئيسى للشعب السورى » .

وقد تدارس قادة المعارضة المؤمنون بصلابة تحالفهم مشاكل
المستقبل . ويقول ممثل الاخوان المسلمين : « لقد تم دراسـة

خلافات الماضى صراحة ، وقد دل امر توقيعنا لميثاق الوفاق على انه قد امكن وضع برنامج مشترك . وهذا التحالف ليس تحالفا تكتيكيا انما استراتيجيا طويل الأمد . فنحن لم نتفق فحسب على اسقاط نظام الحكم الطائفى الذى ينتهجه فريق الاسد ، وانما اتفقنا على الاشتراك فى الحكم فى اطار ديمقراطى ، وهنا يحق التساؤل : هل تم التغلب على الخلافات القديمة ، واصبح فى امكان الاخـــوان المسلمين ان يتفقوا مع حزب البعث التاريخى او الناصريين يجيب سعد الدين على ذلك بقوله : لم لا ؟ فلدينا افكار كثيرة مشتركة مثل القومية العربية ، والدفاع عن القضايا العربية ، ولا سيما القضية الفلسطينية ، والدفاع عن كياننا فى مواجهة الهيمنات السوفيتية او الأمريكية ، اما بالنسبة للقضايا الأخرى ، وعلى سبيل المثال الصيغة الدستورية فسوف يتم حسمها فى اقتراع شعبى ، فاذا كنا اقلية فسنقبل القـــرار » .

ومن حجج نظام الحكم القائم توقع حدوث مطاردة واسـعة للعلويين فى حالة تغيير نظام الحكم . فمن ذا الذى يمكن ان يؤكد بعد خمسة عشر عاما من الحكم العلوى انه لن تكون هناك تسوية حسابات ؟ ..

ان الاجابة على ذلك حاسمة تماما ، اذ يؤكد الاخوان المسلمون انهم ليسوا « مثل الخمينى » ، وهم يرفضون كل تعصب بقولهم : « ان العلويين مسلمون بصفة كاملة ، وليس عليهم ان يخشـــوا شيئا » . وبالنسبة للاحزاب العلمانية فان تلك المسالة غير واردة على الاطلاق . ويواصل شبيلى عصامى امين عام مساعد حـــزب البعث الشرعى قائلا : « ان المسيحيين والسنيين ، والعلويين هم العناصر المكونة لنفس الشعب ، ولا يمكن التفكير فى اقامة اى تفرقة بينها . وبوضع حد لنظام حكم الاسد ، سوف نضع — بالذات — حدا للتفرقة . بيد اننى لست خياليا ، وانا اعرف ان الطريق سوف يكون طويلا ، ذلك ان استمرارية نظام الحكم السورى ليست فقط

مشكلة محصورة بين الزمرة الحاكمة والشعب . فتلك الزمرة تتمتع بمساندة واسعة من الخارج ، ومن الولايات المتحدة اولا ذلك ان نظام حكم حافظ الاسد يخدم مصالح اعداء الأمة العربية » .

وقد اتخذ جميع قادة المعارضة ذلك الاتهام الذى وجهه شبيلى عصامى الى نظام الحكم كشعار ، فعابوا على حكومة الرئيس الاسد انتهاجها لسياسة خارجية لا تتفق مع مصلحة سوريا ومصـــلحة القضية العربية . وذلك هو السر الثانى الأكثر عمقا لنظام الحكم السورى ، سياستها الخارجية ، وليس المطلوب بالتأكيد اتخـــاذ موقف فى تلك المعركة ، وانما المطلوب هو محاولة فهم دور الرئيس الاسد على مسرح الشرق الاوسط وهو دور بالغ التعقيـــد ، تلك السياسة تثير تساؤلات عديدة ، ونظرا للدور الذى تلعبه دمشـــق فى المنطقة يجوز لنا ان نحاول أن نستوضح دبلوماسيتها السرية التى غالبا ما يتعذر سبر اغوارها ، والتى يحكم عليها خصوم نظام الحكم بقسوة ، ولا يترددون فى وصفها « بالخيـــانة الدائمـــة للقضـــية العربية » بل « وبالتواطؤ مع الاعداء الاسرائيليين والامريكيين » .

الباب الرابع

من « ايلول الاسود » الى طرابلس

(سبتمبر عام ١٩٧٠ – ديسمبر عام ١٩٨٣)

من البدهى ان المشكلة الاساسية فى نزاع الشرق الاوسط الذى تفجر فى عام ١٩٤٧ ولا يزال مستمرا حتى الآن ، تتمثل فى القضية الفلسطينية . واليوم نحو خمسة ملايين نفس فلسطينية من الرجال والنساء ، يعيشون مذلولين تحت وطاة الاحتلال بنسبة ٤٠ ٪ ، فى حين يعانى الى ٦٠ ٪ الباقون من مهانة النفس والعيش بعيدا عن الأوطان . لذا من المستحيل فصل مشكلة مستقبل هذا الشعب من الحوار ، ومن المستبعد حتى مجرد التفكير فى احتمال ايجاد حل للنزاع الدائم بدون الأخذ فى الاعتبار الآمال المشروعة للفلسطينيين ، وفى هذا الصدد يقول السيد ياسر عرفات (١) : «نحن لا نطلب المستحيل ، بل اننا نطالب بالحد الأدنى من حقوقنا ، كحقنا فى الحياة اسوة بجميع شعوب العالم ، وفى ان يكون لدينا دولة ذات سيادة على ارض وطننا ، وحقنا فى الاستقلال والحرية . . . وبما ان الفلسطينيين لا يشكلون جنسا من الدرجة الثانية يمكن ان يفرض عليه اى شىء ، فيجب ان نحل مشكلتنا فى أحد الايام حلا عادلا والا لن يكون هناك سلام ابدا فى الشرق الأوسط» .

وهناك حقيقة لا يمكن اغفالها ، وهى أن العلاقات لم تكن دائما مثالية بين الشعب الفلسطينى والدول العربية . فمن ناحية كانت توجد الاقلية الفلسطينية الكادحة التى فقدت كل شىء ، والتى كان يحركها من ثم املها المشروع فى استرداد الحد الأدنى من حقوقها الضائعة ، ومن ناحية أخرى كانت توجد الدول الرسمية ، الضعيفة احيانا ، التى استقبلت فلول اللاجئين النازحين بمنظماتهم ومؤسساتهم ، وفى الاصل كان يتعين على الدولة التى تأمل ان تتصدر زعامة العالم العربى ، أن تمسك بزمام الورقة الفلسطينية ، وهكذا وقع الرعيل الأول من رجال المقاومة ، والفدائيون تحت سيطرة عبد الناصر . وبالتدريج ، بدأ يقتنع الفلسطينيون بأن من غير المعقول

---

(١) حديث مع الكاتب .

ان يعهدوا ببصائرهم لدولة عربية او اكثر ، وانه ينبغي ان يعتمدوا على قوتهم الذاتية .

من هنا كانت نشأة منظمة التحرير الفلسطينية في سنة ١٩٦٤ اول تأكيد على ارادة هذا الشعب في اثبات ذاته ، ولكن وجود عبد الناصر في الساحة العربية لم يمكن اول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية احمد الشقيري ، من ارساء حركة تستند على قواعد متينة نوعا يستطيع الاعتماد عليها ليقود المعركة بمفرده . وفي خط متوازي مع مولد منظمة التحرير الفلسطينية ، حاولت كل دولة عربية ان تفرض سلطتها على حركة المقاومة كليا او جزئيا . واضطرت هذه الاخيرة ان تلائم ظروفها في كل وقت مع مختلف هذه الاقطار حتى يتسنى لها ان تقود عملياتها ضد الاهداف الاسرائيلية بدءا من اراضيها .

وبسرعة ادرك احد الرجال ان المقاومة الفلسطينية لن تغدو حقيقة الا اذا اصبح لديها حركة مستقلة تكفل لها استراتيجيتها الخاصة ، وهذا الرجل الذي كرس حياته لانشاء هذه الحركة وابقائها في الوجود رغم كافة محاولات التصفية او الضم التي تعرضت لها ، يدعى ياسر عرفات .

ولد ياسر عرفات (واسمه الحقيقي رحمن رؤوف عرفات القدوة) في سنة ١٩٢٩ ، في القدس ، التي كانت آنذاك عاصمة لدولة فلسطين الواقعة تحت الانتداب البريطاني . وكانت امه سليلة عائلة الحسيني ، احدى العائلات المسلمة العريقة ، ومنذ مطلع شبابه انضم ياسر عرفات الى صفوف المقاومة مشاركا في كفاحها واشترك في حرب سنة ١٩٤٨ من خلال جيش عبد القادر الحسيني قائد القوات الفلسطينية في هذا العهد . وبعد الهزيمة ، استقر في غزة في اول الامر ، ثم اتى الى القاهرة حيث التحق بالجامعة ليواصل دراساته كطالب في كلية الهندسة . وفي نفس الوقت اخذ يمارس نشاطا سياسيا من اجل نصرة قضية بلاده المحتلة ،

وانتخب رئيسا للاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين في مصر في الفترة من ١٩٥٢ — ١٩٥٦ .

وفي سنة ١٩٥٦ اشترك في حرب السويس ضمن صفوف الجيش المصري برتبة ملازم احتياطي . وبعد الحرب بدأت ثقته تهتز تدريجيا بشأن قدرة الدول العربية على دفع القضية الفلسطينية دفعة حقيقية ، واقتنع في قرارة ذاته بضرورة ان تتزود المقاومة بحركة مستقلة معتمدة على سواعد رجالها وقواها الذاتية ، وصعبت هذه الآراء علاقاته مع القاهرة ، تقرر مغادرتها وذهب ليستقر في الكويت في سنة ١٩٥٧ حيث كان يتكسب الرزق فيها من عمله كمهندس . وسرعان ما لحق به اصدقاؤه من القاهرة ، وبعد ان تمت اتصالات مع اعضاء الجالية الفلسطينية الكبيرة المستقرة في هذه الامارة صمم ان يواصل كفاحه السياسي ، وكرس كل جهدة وامواله لتأسيس حركة وطنية سرية ومستقلة عن الانظمة العربية ، فكان مولد « فتح » التي خرجت للنور في شهر اكتوبر من عام ١٩٥٩ (١) . وبالالتفاف حول ياسر عرفات آمن مؤسسو حركة فتح : صلاح خلف واسمه الحركي ابو اياد ، وخليل الوزير — ابو جهاد — ، وخالد الحسن (ابو سعيد) ، بضرورة ان تصبح المنظمة الجديدة « اداة حرب شعبية » بكافة اشكالها : العملية او السياسية .

وفي سنة ١٩٦٤ غادر ياسر عرفات الكويت وتوجه الى الجزائر فور حصولها على الاستقلال ، وهناك التقى بالرئيس بن بيلا واقتنعه بأن يساعد منظمته ، وبذا تكون الجزائر هي

(١) انظر كتاب جيلبير دنيوبان « الفتح تتكلم » للناشر البان ميشيل باريس ١٩٧٠ .

اول دولة عربية توافق على فتح معسكر تدريب لرجال فتح فى اراضيها .

وفى يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ، وجهت « العاصفة » وهى الجناح العسكرى لفتح اولى عملياتها ضد منشآت عسكرية اسرائيلية موجودة على نهر الاردن ، ومن بيروت صدر اول بيان عسكرى موقع من ياسر عرفات ليعلن مسئوليته عن الحادث وهو الاسم الذى سيجسد شيئا فشيئا كيان المقاومة الفلسطينية ككل .

ولقد احدث هذا التاكيد العملى الاول للمنظمة على مسرح الاحداث بالشرق الاوسط ردود فعل مختلفة ، وحين صدرت الاوامر بالقاء القبض على عرفات فى لبنان ، ذهب ليختبىء فى سوريا حيث صمم على تنظيم افتتاح مكتب لفتح فيها . لكنه قبض عليه بصحبة ابو جهاد فى دمشق فى فبراير عام ١٩٦٦ بناء على امر من وزير الدفاع حافظ الاسد (١) . ولما اخلى سبيله نتيجة للمحاولة المبذولة لدى رئيس الجمهورية ، اعتزم ان يمارس نشاطه فى الخفاء .

وبعد هزيمة العرب فى شهر يونيه سنة ١٩٦٧ ، تسلل عرفات الى منطقة الضفة الغربية المحتلة لنهر الاردن لكى ينظم خلايا فتح ويقود عمليات المقاومة ضد المحتل الاسرائيلى . لكن ياسر عرفات ، الذى عرف منذ هذه اللحظة باسمه الحركى ابو عمار، لم يصبح زعيما شعبيا لحركة المقاومة الا فى ٣١ مارس ١٩٦٨ ، عندما قاد اول معركة كبيرة ضد الجيش الاسرائيلى فى منطقة الكرامة ، وكانت هذه هى اول مرة ينجح فيها الجيش الفلسطينى (بمساندة القوات الاردنية) فى التصدى للعدو .

وفى شهر اكتوبر اصبح الزعيم بدون منازع « والمتحدث

(١) كتاب « فلسطينيون بدون وطن لأبو أياد – باريس ١٩٧٨»

الرسمى ، باسم فتح التى بدأ نفوذها يزداد ويتسع . وفى هذه الفترة انضمت حركة فتح الى منظمة التحرير الفلسطينية التى كانت تضم بالفعل عدة حركة اخرى مثل : الجبهة الشعبية التابعة لجورج حبش ، والصاعقة . وفى شهر فبراير ١٩٦٩ ، انتخب عرفات رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية التى اضفى عليها خطا سياسيا تميز بذكائه وواقعيته ، وساعد هذه الحركة على القفز بخطى سريعة لتثبت وجودها على المسرح الدولى . وابتداء من هذه الفترة لم يعد من السهل ابداء الفصل بين منظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح التابعة لياسر عرفات الذى كان يشرف باحكام على اللجنة المركزية للمنظمة .

وبعد ماساة « ايلول الاسود » ١٩٧٠ ، استطاع عرفات ان ينقذ منظمة التحرير الفلسطينية من خطر التصفية التى حاق بها ، متغلبا على كافة الصعاب ، وراح يكثف تحركه على الصعيد الدبلوماسى ، فطاف فى البلاد العربية ، كما زار العديد من دول عدم الانحياز ، ودول الكتلة الشرقية (الاتحاد السوفيتى ، الصين ، وجمهورية المانيا الديمقراطية ، ورومانيا) .

وفى اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، بدأ رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ينادى بالحل السياسى ، ونجح فى لم شمل الصفوف العربية ، حول منظمته . واحرز نجاحا كبيرا خلال مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى الرباط فى اكتوبر ١٩٧٤ ، حين وافق المؤتمر على القرار الذى اعترف بحق الشعب الفلسطينى فى تشييد نظامه الوطنى المستقل تحت رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية ، باعتبارها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى (١) .

(١) كان الدور الذى قام به عمر السقاف وزير خارجية السعودية حاسما فى هذا الشان ولم تمض غير شهور قليلة واغتيل هذا الوطنى العربى بايعاز من الامريكيين .

وبعد مرور ايام قلائل على هذا الفوز ، احرز ياسر عرفات انتصارا اكثر دويا ، حين استقبل فى اطار الجمعية العامة للامم المتحدة فى ١٣ نوفمبر ١٩٧٤ ، وفى نفس السنة تبنت منظمة الامم المتحدة سلسلة من القرارات التى تعترف جميعها « بالحقوق التى لا يجوز التصرف فيها الخاصة بالشعب الفلسطينى وبخاصة حق فى الاستقلال والسيادة » . (بموجب قرار رقم ٣٢٣٦) . كما دعت منظمة التحرير الفلسطينية لحضور دورات وجلسات الجمعية العامة (بموجب قرار رقم ٣٢٣٧) . وتمشيا مع فكرة المفاوضات الشاملة التى نادى بها من أجل انشاء دولة مستقلة للفلسطينيين ، اجرى ياسر عرفات عدة تنقلات ، وكلن اهمها تلك التى التقى خلالها فى فيينا مع المستشار النمساوى كرايسكى ، ورئيس الدولية الاشتراكية فيلى برانت فى ٦ يوليو ١٩٧٩ .

وبعد هذه الفترة مباشرة مرت منظمة التحرير الفلسطينية بأوقات عصيبة ، فشهدت احداث بيروت فى صيف ١٩٨٢ ، ثم احداث طرابلس فى خريف ١٩٨٣ .

ولكن الرجل الضئيل حجما ، صاحب الذهن الحاضر والذكاء المتفجر لم يعترف بهزيمة موقفه ، لا شك انه كان ملما ومقدرا تماما لصعوبة مهمته ، وفى هذا الصدد اذكر اننى حين سالته ذات مرة لدى التقائى به فى بيروت :«عرفنى من هو ياسر عرفات ، رد على بقوله: « انه فرد فلسطينى عادى كتب عليه أن يسير طريق الجلجلة حاملا صليبه الثقيل وحول راسه اكليل من الشوك » ، وبعد لمحة حزن سريعة عاودت الابتسامة وجهه ، وانفرجت اساريره واضاءت وجهه الجذاب الطيب ، فاستطرد يقول بتفاؤل : « رغم كل شىء فالنور موجود فى نهاية الطريق » . ثم التقيت به فى طرابلس بعد ذلك ، حين كان رجال المقاومة محاصرين بالجيوش السورية ــ الليبية برا ، وبالاسطول البحرى الاسرائيلى بحرا ، وكررت عليه سؤال سبق ان طرحته : « كيف يمكن ان تظل متفائلا رغم كل ما يحدث ؟ »

فكان رده على النحو الآتى : « اننى استلهم مثلى الاعلى من الجنرال ديجول ومن تاريخ كفاحه الطويل من أجل تحرير فرنسا ، فالشعوب التى تناضل من اجل كرامتها واستقلالها دائما ما يكتب لها النصر فى النهاية . اذ ان محو شعب ما من الوجود من الامور المستبعدة ، حتى اذا كانت الظلمة الداكنة تخيم على سماء طرابلس هذه الليلة تحت طوفان وابل النيران المنطلقة من كل جانب ، ما زلت اؤمن بالقضية التى كرست لها حياتى وهى : « بعث فلسطين » .

يا له من تفاؤل فريد من جانب هذا الرجل الذى لم يعد يملك شيئا على الاطلاق ، والذى يعيش بدون حياة .. بدون زوجة .. بدون اطفال ، وبدون ملكية خاصة ، فى بيروت حاول ان يحتفظ لنفسه بكنز بسيط حفنة من الذكريات التى كان يعتز بها كالطفل ، وهى عبارة عن بعض الاقلام الحبر التى اهديت له من احد رؤساء الدول او ديوان شعرى يحمل اهداء لشخصه ، واشياء اخرى يتفاءل بها ، ورسائل خطية واحدة منها تسلمها من الجنرال ديجول ، وهذه الاشياء تشكل كل ثروته ،بيد ان هذا اللاجىء المستديم فقدها جميعا او بالتقريب ، ومع هذا لم يفقد ايمانه العظيم بتحرير وطنه ، ولا قوة ارادته وتصميمه على مواصلة الكفاح بكل الوسائل التى يراها مناسبة . ولأنه « يقع على عاتق المقاومة وعليها وحدها ان تختار التكتيك الذى فيه مصلحتها » . والحقيقة انه اذا كان ٩٠ ٪ من الفلسطينيين يقفون خلف « ابو عمار » ، فذلك يرجع لسبب واحد هو انه نجح فى تزويد المقاومة بالحركة المستقلة التى كانت تعوزها ، وفى الاحتفاظ لها بحد ادنى من الاستقلال الذاتى لدى اتخاذ القرار قبل البت فى اى عمل ، وذلك فى مواجهة مطالب الدول العربية على اختلافها ، وهذه النقطة بالذات هى اصل الخلاف بين ياسر عرفات وحافظ الاسد .

بدا الوضع يتدهور بين منظمة التحرير الفلسطينية والاسد فور انتهاء حرب ١٩٦٧ ، كان المخطط الصهيونى يهدف دائما

مطيحا ف ذلك بقرارات الامم المتحدة بما فيها القرار الخاص بنشاة الدولة العبرانية — الى طرد اكبر عدد من الاهالى الفلسطينيين مستبيحا كافة الوسائل وصولا الى تحقيق هذا الغرض والواقع أن حرب ١٩٦٧ التى دبرت ونظمت اسرائيل لاستغلالها ، قد ساعدتها ف الاستيلاء على اهم منطقتين آهلتين بالسكان الفلسطينيين (الضفة وغزة) . وعقب ذلك جاء تدفق اللاجئين الجدد اضافة لعدد الضحايا الذين شردوا من جراء احداث ١٩٤٧ .

ولاشك ان تدفق مئات الآلاف من النازحين راح يصعب المشاكل بين المقاومة والدول العربية المضيفة ، ولكنه على وجه الخصوص دفع ببعض الدول الى تكوين منظمات جديدة او الى تشجيع المنظمات الموجودة بالفعل والتى تحكم سيطرتها عليها . ففى خريف ١٩٦٧ ، قامت سوريا بتكوين « الصاعقة » من مناضلين فلسطينيين بعثيى الميول واعتمادا على مساندة سوريا القوية لها ، نمت الصاعقة واشتد عودها ، ثم انضمت بعد ذلك الى منظمة التحرير الفلسطينية ف يوليو من عام ١٩٦٨، وبمجرد ان اخذت العلاقات تمضى فى سبيل التدهور بين سوريا والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة لجورج حبش بدا النظام السورى يمد سيطرته على الصاعقة التى سرعان ما اصبحت بمثابة اداة توصيل حقيقية بين سوريا والمنظمة اما بالنسبة لفتح التابعة لياسر عرفات فقد كان مركزها الرئيسى هو الاردن .

ولم يقتصر دور سوريا على فرض سيطرتها على الصاعقة فحسب ، بل انها عملت جاهدة على تدعيم سيطرتها ايضا على جيش تحرير فلسطين الذى كان قد انشىء فى اعقاب مؤتمر قمة القاهرة لسنة ١٩٦٣ ، ولكن عملية فرض السلطة ، هذه لم تتم بدون مقاومة من جانب قادة جيش تحرير فلسطين ، وانتهى الامر بالقبض ف النهاية على هؤلاء ف يوم ٢١ يوليو ١٩٦٩ ، وبطردهم خارج البلاد بتحريض وايعاز من وزير الدفاع السورى ، حافظ

الاسد آنذاك ، ولكن قادة جيش تحرير فلسطين لم يكونوا ف الواقع اول معارضين فلسطينيين ينصب على رؤوسهم غضب من سوف يصبح — رئيسا للجمهورية العربية السورية ف المستقبل .

ونذكر انه فور تعيينه وزيرا للدفاع فى ١٩٦٦ ، اصدر اوامره بالقبض على مؤسس حركة فتح التى ما كانت فى ذلك الحين سوى جماعة محدودة من الفلسطينيين ، ومنذ هذا العهد تفاوتت العلاقات بين حافظ الاسد وياسر عرفات ، وشابتها ف اغلب الاحيان مشاعر الارتياب والحذر بدلا من مشاعر التعاون والود .

وبمجرد ما تمكن ياسر عرفات من تحقيق رهانه الخاص بارساء قواعد حركة مقاومة واثقة من نفسها ، وبوسعها الاقدام على العمل الذى تنسق لتنفيذه بمفردها بفضل ارادتها المستقلة بعيدا عن نفوذ الدول العربية ، بدا يصطدم بتصميم الاسد على كبح جماح المقاومة الفلسطينية وابقائها ف قبضته ، واستنادا على هذه الخلفية بدات العلاقات السورية — الفلسطينية تمر بفترات متعاقبة من الاتفاقات التكتيكية « العقلانية » والخلافات «الاستراتيجية» الخطيرة وفقا لما تقتضيه الظروف وتمشيا مع المصالح التى تهم القوى المتصارعة ، وكان الحذر كاملا لدى الجانب الفلسطينى الذى لم يكن يحصل عل اى تنازل الا بعد تعرضه لضغوط جمة .

وتعقيبا على هذا الراى قال لى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية لدى التقائى به ف بيروت قبل العدوان الاسرائيلى ف صيف ١٩٨٢ ببضعة اشهر : « ان قمة المأساة انه علينا ان نحذر حلفاءنا (السوريين) شان الاسرائيليين تماما ، ولكن ماذا بوسعنا ان نقول او نفعل وهم يضعون خناجرهم على رقابنا ، وبهذه السكينة الموضوعة على رقبته استطاع زعيم منظمة التحرير

الفلسطينية ، ان يصمد فى مواجهة الاعيب ودسائس حافظ الأسد ، وفى بعض الأحيان كانت تلك الخناجر تنبع مثلما حدث فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ ، وفى تل الزعتر فى ١٩٧٦ ، وفى طرابلس ، وكذلك فى عام ١٩٨٣ .

وما بين هذه الفترات الحافلة بالصراعات الدامية ، كانت الخلفية الأساسية للعلاقات بين الطرفين مبنية على خلاف سياسى طويل ، تتخلله عناقات ظاهرية كان يتبادلها الطرفان ما بين الحين والحين ، ولقد تفجر اول نزاع حقيقى بين الاسد ومنظمة التحرير الفلسطينية فى ٢٤ فبراير من عام ١٩٦٩ فى اعقاب هجوم اسرائيلى ضد معسكر الفتح ، واحتجت منظمة فتح فور ذلك لدى الحكومة السورية . وبعد التحقيق ، اتهم صلاح جديد والرئيس الاتاسى ، حافظ الاسد ، وزير الدفاع وقائد القوات الجوية بالتخاذل ، لانه لم يرسل سوى ثلاث طائرات فقط ، وفى وقت لاحق جدا ، لنجدة الفلسطينيين .

ولقد طلبت قيادة حزب البحث من اللواء الاسد توضيح موقفه فى هذا الشأن ، لكن تدهور الوضع بين الجيش اللبنانى والمقاومة الفلسطينية جذب الانتباه نحو مشاكل من نمط مختلف . وهدأ النزاع بعد الاتفاق الذى وقع فى القاهرة فى ٣ نوفمبر ١٩٦٩ بين الحكومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية ، بغية تنظيم مسألة الوجود الفلسطينى فى لبنان .

وبعد مرور عام ، اى فى عام ١٩٧٠ ، ازداد الخلاف حدة بين المقاومة الفلسطينية وحافظ الاسد . كما نشب الصراع بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الاردنية حول مقترحات وليام روجرز ، وزير الخارجية الامريكى ، وفضلا عن ذلك استبد القلق بالملك حسين ملك الاردن ، الذى يكون الفلسطينيون غالبية شعبه ، من خشية تكوينهم لدولة داخل الدولة ، الامر الذى قد

يشكل خطرا على مملكته ، وبعد سلسلة من المصادمات المحدودة شن العاهل الهاشمى هجوما كبيرا ضد المواقع الفلسطينية فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٠ ، ومنذ بداية اندلاع احداث شهر « أيلول الاسود » قررت الحكومة السورية مساندة الفلسطينيين . فاصدرت اوامرها لوزير الدفاع ، حافظ الأسد ، حتى يوجه مئات الدبابات صوب الأردن ، ويوفر على وجه الخصوص غطاء جويا للدبابات من ناحية وقوات منظمة التحرير الفلسطينية من ناحية اخرى :

ولكن اذعانا لانذار صارم من قبل الولايات المتحدة الامريكية التى تؤيد فكرة تصفية منظمة التحرير الفلسطينية رفض اللواء حافظ الاسد ان يوفر لهم الغطاء الجوى المطلوب ، فسمرت الدبابات السورية فى مكانها بعد تدخل الطيران الأردنى الذى ارغم التعزيزات السورية على التراجع نهائيا فى يوم ٢٣ سبتمبر . وفى الأردن تولت السلطات تصفية القوات الفلسطينية .

ونحن نعلم ان موقف حافظ الأسد استتبعته ازمة فى داخل سوريا . ودعته الحكومة والحزب الى تقديم كشف حساب عن موقفه ، وعقدت مؤتمر فوق العادة ابتداء من ٣٠ اكتوبر من اجل حاكمته ، وقد تعرض لعقوبات صارمة ومنها المطالبة باقالته من منصبه الا انه سرعان ما غير دفة الامور بتصدره الموقف واستيلائه على الحكم فى يوم ١٣ نوفمبر . وابتداء من هذه اللحظة وقعت سوريا بالكامل فى قبضة الرئيس الاسد الذى عمل من الآن فصاعدا على فرض سيطرة محكمة على المقاومة الفلسطينية ، وقام النظام الجديد بتصفية القيادة البعثية للصاعقة بغية استبدالها برجال موثوق فيهم ، وبدا يدعم قبضته على جيش تحرير فلسطين ومنع عمليا نشاط سائر التشكيلات الفلسطينية الأخرى .

لكن الاخطر من كل هذا فى راى « ابواياد » ان النظام السورى فرض ابتداء من هذه الفترة ، قيودا كتحديدة على نشاط

الفدائيين ، ففى شهر ابريل عام ١٩٧١ ، منعهم تماما من شن اية عملية من داخل اراضيه ، وفى شهر يوليو اتخذت الحكومة السورية خطوة جديدة ، حيث « ارغمت بعض الوحدات الفلسطينية على مغادرة سوريا والتوجه الى الجنوب اللبنانى ، كما استولت على بعض شحنات السلاح التى كانت موجهة للمقاومة » (١) .

وفى الواقع اذاعت شائعات ملحة جابت البلاد منذ مطلع عام ١٩٧٢ بوجود ثمة خلاف خطير بين منظمة التحرير الفلسطينية وحافظ الأسد ، ورغبة فى تهدئة هذه الشائعات كلف زهير محسن الصاعقة بتوضيح الأمور للراى العام قائلا : « ان عمليات المقاومة تتم ، وسيستمر توجيهها من الاراضى السورية » (٢) ورغم التكذيب السورى ، بدا بالفعل ان الرئيس حافظ الأسد ماكان ليسمح للمقاومة بتوجيه ضرباتها من بلاده .

وفى يوم ١٩ يناير عام ١٩٧٣ ، نشرت صحيفة الجيروزاليم بوست وثيقة رسمية تضمنت التنظيمات المفروضة على الفلسطينيين ، وطبقا لما نصت عليه هذه الوثيقة فانه لا يسمح لأى جماعة فدائية ان تعبر خط اطلاق النار الا بتصريح موقع من الرئيس حافظ الاسد شخصيا ، وتؤكد الوثيقة كذلك على المحاذير التى فرضت على تنقلات الفلسطينيين فى داخل سوريا وعلى حدودها ، كما نصت على ضرورة ان يكون لكل فرد منهم بطاقة شخصية تحدد الظروف الخاصة الموضحة لاسباب تواجده فى سوريا ، وأخيرا أوردت الوثيقة ان اى قائد فلسطينى ليس له الحق فى الادلاء باى خطبة او فى اتخاذ اى موقف علنى دون اخطار السلطات السورية مسبقا به .

(١) كتاب سوريا لفيليبن روندو باريس ١٩٧٨ .
(٢) جريدة الاهرام ٥ يوليو ١٩٧٢ .

وفى يوم ٩ يناير عام ١٩٧٣ ، وجهت السلطات السورية (١) بيانا للمنظمات الفلسطينيه امرتهم بمقتضاه بسحب قواعدهم الى مسافة ١٥ كيلو مترا من خط وقف اطلاق النار الحالى ، وباخلاء مقارهم الموجودة عند الحدود ، وبعدم اجراء اى اتصال سياسى مع سكان القرى القريبة من قواعدهم .

وفى الحقيقة لم تكن هذه الاجراءات جديدة على الاطلاق ، نظرا لانها وردت قبلا فى المذكرة التى حررها اللواء الأسد شخصيا فى ١ مايو عام ١٩٦٩ اذ كان وزيرا للدفاع آنذاك ، والتى نشرتها صحيفة لوريان لوجور « التى تصدر فى بيروت » فى عددها المؤرخ ١٦ مايو عام ١٩٧٣ . وقد نتج عن نشر هذه المذكرة الصادرة بـ ١٦ مايو ١٩٦٩ ، والمتناقضة مع وجهة النظر الرسمية السورية التى تؤكد ان القيود التى فرضت على نشاط المقاومة جاءت نتاجا لمساومات طويلة ومضنية مع الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٠ ، ازدياد الريبة والحيطة بين منظمة التحرير الفلسطينية ودمشق . وستزداد روح الشك اكثر واكثر مع بدء المساومات السياسية ، وعلى الأخص الخلاف حول فك ارتباط القوات فى هضبة الجولان ، ومؤتمر جنيف الذى عقد فى اعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ويبين لنا واحد من قادة فتح رايه فى هذا الصدد قائلا : « لقد شككنا فى سلوك حافظ الأسد خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، عندما أوقف ـ دون ما يخطر حلفاءه ـ هجومه المشترك مع العراق، والذى كان من شأنه تيسير عملية دفع العدو الاسرائيلى وارغامه على التقهقر ، لكننا اكتشفنا لعبته على حقيقتها خلال المساومات اللاحقة للحرب » .واستطرد يقول : « ان هذه المشكلة خطيرة لانها مهدت السبيل لظهور الولايات المتحدة بكل ثقلها ، على مسرح

(١) جريدة لوريان لوجور فى عددها الصادر فى ٢٣ يناير ١٩٧٣ .

الاحداث فى اطار تسوية النزاع القائم فى الشرق الاوسط ، ومن المهم ان نتابع الطريقة التى سيحدد بها النظام السورى موقفه ازاء اللعبة الامريكية » .

وتمثلت اول مساومة فى فك ارتباط القوات فى جبهة الجولان ، وتيسيرا للاتفاق الذى كان سيوقع فى ٣١ مايو عام ١٩٧٤ فى جنيف(١) ، اتخذت سوريا التدابير الخاصة لتسهيل عملية التفاوض ، فارغمت منظمة التحرير الفلسطينية على نقل قواتها الى مسافة خمسين كيلو مترا بعيدا عن الجبهة ، واخبرت هنرى كيسنجر (الذى اجرى عدة زيارات لدمشق فى هذه الفترة) بان الفدائيين لن يوجهوا من الآن فصاعدا اى عمليات ابتداء من اراضيها ولقد عملت هذه الالتزامات الممنوحة للاسرائيليين على حد سواء دون حتى مشاورة منظمة تحرير فلسطين ، على تصعيد حدة التوتر بين الفلسطينيين والحكومة السورية . لكن التوتر ازداد حدة مرة اخرى لدى الاعلان عن انعقاد مؤتمر جنيف ، ذلك المؤتمر الذى تقرر ان يدرج فى جدول اعماله الوضع المستقبلى للضفة الغربية لنهر الأردن . والواقع ان مبدأ انعقاده كان مقبولا من جانب دمشق التى اقترحت ان يشارك فيه وفد عربى متحد .

وهكذا وضح منذ تلك الفترة جوهر الخلاف القائم بين الاسد ومنظمة التحرير الفلسطينية . فعرفات كان يريد ان يبقى باى ثمن على استقلاليته فى العمل ، فى حين لم تتقبل دمشق او تسمح بفكرة ان تكون منظمة التحرير الفلسطينية مستقلة من الناحية السياسية ،

(١) تم التنفيذ فى يوم ٢٥ يونيه وقد تركت القوات الاسرائيلية بالفعل المنطقة المحددة تاركة وراءها اثارا لايمكن نسيانها فقد دمرت بوحشية تفوق كل وصف مدينة القنيطرة وحملت معها كل مايمكن سرقته وهدمت ماتبقى بما فى ذلك المقابر والمساجد والكنيسة الصغيرة .

او ان تتولى من ثم زمام الشئون الفلسطينية ، او ان تكون الجهة المسئولة من اتخاذ القرارات باسم الشعب الفلسطينى . وعلى اعتقاد القادة السوريين ، كانت الورقة الفلسطينية من الاهمية بحيث لا يجب تركها للفلسطينيين وحدهم ، بل انهم يعتقدون — فضلا عن هذا — ان المشكلة الفلسطينية هى مشكلة سورية صميمة ، لان فلسطين تمثل جنوب دولة سوريا الكبرى ، تماما مثلما يعتبرون المشكلة اللبنانية مشكلة سورية كذلك » . طبقا لاقوال حافظ الاسد فى الحديث الذى اجرته معه مجلة « لوبوان الفرنسية » فى عدد ٢٩ ديسمبر عام ١٩٨٣ .

لكن اعمال مؤتمر جنيف اخذت تسير ببطء شديد ، وبدا يلوح فى الافق خطر جديد ، خطر المفاوضات التى كان يجريها السادات مع كيسنجر فى فبراير عام ١٩٧٥ بشأن اتفاق حول فك ارتباط القوات فى سيناء ، ذلك الاتفاق الذى رات منظمة التحرير الفلسطينية انه بداية « لتصدع الجبهة العربية » . وكانت سوريا مصممة من ناحيتها الا تدع فرصة المبادرة لمصر بدونها . وهكذا اتفق الطرفان — من حيث المصالح — على انتهاج موقف مشترك ادى الى تاليف قيادة موحدة سورية — فلسطينية ، بهدف مواجهة خطر الاتفاق المنفصل بين القاهرة ودولة اسرائيل .

وتدخل الملك فيصل بكل ثقله فى هذه المعركة الامر الذى اغضب كيسنجر(١) ، فمنذئذ قدمت دمشق معونة دبلوماسية للفلسطينيين . ونجحت فى حث الجمعية العامة للأمم المتحدة على اتخاذ بعض القرارات الهامة لصالحهم ، بيد ان هذا الوفاق اخذ يتلاشى شيئا فشيئا ، ويتوارى خلف الأحداث الطارئة فى لبنان .

(١) لقد اعترض العاهل السعودى على مخططات كيسنجر واعلن عن الذهاب الى القدس للصلاة فيها وهو بعمله هذا اصدر على نفسه حكما بالموت وقد اغتيل بالفعل يوم ٢٥ مارس ١٩٧٥ .

وفى يوم ١٢ ابريل سنة ١٩٧٥ ، هجم فريق من الكوماندوز الكتائبيين المارونيين ، فى ضاحية عين الرمانة الواقعة على مشارف بيروت ، على شاحنة كانت تقل اطفالا فلسطينيين واجهزت عليهم جميعا . وكانت هذه الواقعة بداية لسلسلة الاحداث الخطيرة التى ساهمت بالتدريج فى اثارة المصادمات بين القوات التقدمية اللبنانية المتحالفة مع الفلسطينيين وبين الميليشيات المارونية المتطرفة . وحاول عرفات ان يجمد تصعيد الموقف مقابل كميل شمعون وزير الداخلية اللبنانى الذى هو — قبل كل شىء — واحد من زعماء الميليشيات المتطرفة ، حتى يوقع على الاتفاق الذى كان من شأنه ان يحول دون وقوع الكارثة .. وفى خط موازٍ لهذا التحرك حاولت منظمة التحرير الفلسطينية ان تقلل من حماس حلفائها التقدميين ، الا أن الفرصة كانت قد افلتت ودخلت الحركة الوطنية اللبنانية (التقدمية) فى نزاع معلن وصريح مع القوات الكتائبية فى الوقت الذى غالت سوريا فى تدخلها فى اللعبة اللبنانية (١) خاصة فى فترة انتخاب الرئيس الياس سركيس فى ٨ مايو عام ١٩٧٦ .

وتحت ضغط من المتطرفين المسيحيين دعت الحكومة الجديدة سوريا لمعاونتها فى احتواء الموقف ، واسفر ذلك من دخول القوات السورية رسميا فى لبنان فى ٣١ مايو ١٩٧٦ ،دار التراشق بينها وبين القوات الفلسطينية التقدمية اثناء توجهها من دمشق الى بيروت . وفى نفس الوقت ، شنت منظمة التحرير الفلسطينية وحلفاؤها فى الحركة الوطنية اللبنانية هجوما ضد الصاعقة والمنظمات الموالية لسوريا ، التى لم تكن سوى روائد للجيش السورى مستعدة لطعننا من الخلف » وبسرعة فائقة حاصرت جيوش حافظ الأسد بيروت الغربية(٢) .

---

(١) انظر الفصل الخامس .

(٢) حيث توجد احياء التقدميين والفلسطينيين والمسلمين .

وفى ذات الوقت اتهمت سوريا ، التى تدخلت فى لبنان من اجل الوقوف الى جانب المتطرفين المارونيين (اصدقاء اسرائيل) منظمة التحرير الفلسطينية وياسر عرفات « بالعمالة لحساب [illegible] الصهيونى والامبريالى » . وصرح الرئيس الأسد بقوله فى يوم ٢٠ يوليو عام ١٩٧٦ ، «ان الفلسطينيين يتصرفون فى لبنان تماما مثلما فعلوا فى الأردن فى عام ١٩٧٠ ، وان لديهم النية للاستيلاء على البلاد » .

لكن القطيعة لم تكتمل من الناحية العملية بين الأسد ومنظمة التحرير الفلسطينية الا عندما سدد الرئيس السورى ضربة للمقاومة الفلسطينية ، كانت بمثابة النور الأخضر لاندلاع المواجهة بين النظام السورى ومنظمة التحرير الفلسطينية . فخلال الفترة من يوليو الى اغسطس ١٩٧٦ ، حوصر معسكر تل الزعتر المحصور داخل احد احياء بيروت المسيحية ، والذى يقطنه غالبية من الفلسطينيين المسيحيين ، بالميليشيات المارونية بمساعدة الجيش السورى ، واستولى الكتائبيون على المعسكر فى يوم ١٢ اغسطس واجروا تصفيات بالجملة فيه راح ضحيتها نحو الف مدنى فلسطينى . اسفرت النتائج الاجمالية لمعركة تل الزعتر عن مقتل ٢٥٠٠ فلسطينى و ٨٠٠ مناضل من الميليشيات .

ويذكر قادة منظمة التحرير الفلسطينية « بان مذابح مروعة للنساء والأطفال تمت فى تل الزعتر ، بالتواطؤ مع نظام الاسد . وليس من شك ان تل الزعتر ، ثم صبرا وشاتيلا ، كل ذلك يشكل اسس المؤامرة المدروسة التى تهدف الى تصفية شعبنا » .

وفى نفس الفترة دارت معارك عنيفة بين الجيش السورى والقوات الفلسطينية — التقدمية فى سهل البقاع ، وجنوب لبنان والشوف ، واستمرت حتى يوم ١٥ اكتوبر عام ١٩٧٦ . وفى هذا التاريخ عقدت المملكة العربية السعودية مؤتمر قمة محدودا فى

الرياض مع الأسد وعرفات . وقرر المؤتمر انشاء قوة ردع عربية قوامها ٣٠٫٠٠٠ رجل ، وبغرض تحقيق السلام فى لبنان ، وتكونت هذه القوة فى جزئها الغالب من جنود سوريين ، وبدت فى نظر كثيرين بمثابة تكريس للاحتلال السورى للبنان . وحتى يضع حدا للاشتباكات المسلحة ، وافق عرفات ان يتصالح مع الاسد ، طالبا فى نفس الوقت من الدول العربية ـ ولكن بدون جدوى ـ ان تعمل على الا يكون العنصر السورى هو الاغلبية فى قوة الردع العربية . وفى الواقع فان معظم الدول العربية كانت لا ترغب فى توريط نفسها طواعية فى المازق اللبنانى .

وشيئا فشيئا استقر ميزان جديد للقوى فى لبنان حيث كانت مناطق بيروت الغربية ،وشمال لبنان ،وسهل البقاع ـ وهى مناطق تجمع رئيسية بالنسبة لحشود الفلسطينيين ـ تخضع لسيطرة الجيش السورى . وفى ظل حماية هذا الجيش ، حاولت الصاعقة أن تفرض سلطانها على منظمة التحرير الفلسطينية كلها .

وفى نهاية شهر نوفمبر عام ١٩٧٦ ، تمكن زهير محسن زعيم الصاعقة فى بيروت ومعه أربعة آلاف رجل قدموا جميعا من سوريا ، وبدا يعمل من اجل فتح مكاتب لمنظمته فى عدة قطاعات . وفى نفس الوقت ، طلب النظام السورى اجراء تعديل فى قيادة منظمـة التحرير الفلسطينية ، من شانه تدعيم مركز الصاعقة والقيـادة لاحمد جبريل فيها . وهاتان المنظمتان هما نفسهما اللتان ستخدمان لعبة الرئيس الاسد فى عام ١٩٨٣ من اجل احداث انشقاق مناهض لياسر عرفات فى داخل المنظمة .

وفى عام ١٩٧٦ ، حث حافظ الأسد الصاعقة والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على النضال ضد منظمات المقاومة الموالية لعرفات ، وضد مناضلى الحركة الوطنية اللبنانية الـذين اضطروا الى مواجهة مصادمات عنيفة مع الكتائبيـين . ووقعت

الاشتباكات بين الموالين لسوريا وبين بقية رجال المقاومة ، فى الفترة من نوفمبر عام ١٩٧٦ الى فبراير عام ١٩٧٧ ، بينما ضيقت سوريا الخناق على معسكرات وقواعد الفلسطينيين . وفى هذه الفتـرة صرح لى ياسر عرفات بقوله : « انهم يضعون السكين على رقابنا ». لكنه رغم ذلك لم يجسر على المجازفة بشن مواجهة صريحة مع النظام السورى . واستمرت تجربة القوة هذه من نوفمبـر ١٩٧٦ الى فبراير ١٩٧٧ .

وفى يوم ٢٣ فبراير ، التقى ابو اياد مع الرئيس الاسـد ووافق على حل وسط تعهدت المقاومة بموجبه بان تقلل نشاطها فى لبنان ، ووافق فى الحقيقة على اطلاق يد سوريا تماما على المنطقة التى تمركزت فيها فى لبنان ... ويقول ابو اياد فى هذا الصـدد « ان الرئيس السـورى نفـذ بنجاح الجزء الاول من خطته او من مهمته .. لقد نجح فى تكميم المقاومة الفلسطينية وحلفائها اللبنانيين وبناء لما كان ينتظره منه الكتائبيون » . وفى مرحلة لاحقة ، طلب الرئيس الاسد من منظمة التحرير الفلسطينية الا تعترض بحماس بالغ على المفاوضات التى تدور تحت كنف الولايات المتحـدة فى الشرق الاوسـط .

ومن مطلع سنة ١٩٧٧ ، بدا الحذر وسوء الظن يخيمـان على نظام التعايش القائم بين منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا واستمر هذا التعايش الى حد ما حتى صيف عام ١٩٨٢ بما يشبه التحالف والتعاون بعد توقيع السـادات اتفاقات كامب ديفيد وفى هذا الوقت بالذات التقت المصالح التكتيكية لكل من دمشق والمقاومة الفلسطينية .. للاعتراض معا على السلام المنفصل الذى وقعه السـادات مع دولة اسرائيل . فمن ناحية كانت دمشق لا تريد بأى حال من الاحوال أن تستبعد من اللعبة ، كما ترفض أن تدع مصر بمفردها وجها لوجه مع الولايات المتحدة . ومن ناحية أخرى ، فان منظمة التحرير الفلسطينية تعارض بشدة ـ بطبيعة

الحال ـ المعاهدة التى دفنت القضية الفلسطينية حيث مكنت مصر من الانسحاب من الصراع . ورغم وجود كل من الاسد وعرفات فى جبهة الرفض فان التصالح لم يتم بينهما حقيقة . وكثيرا ما ردد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية قوله : « اننى اشعر هنا ـ فى بيروت ـ أن حريتى مراقبة » . ولم يكن يخفى تشككه الحقيقى ازاء السياسة التى تنتهجها سوريا . وسيثبت المستقبل انه لم يكن مخطئا فى اعتباراته .

ان السادات بتوقيعه على معاهدة كامب ديفيد ، سدد طعنة خنجر قاسمة فى كيان منظمة التحرير الفلسطينية ، حيث ضيع عليها بالفعل فرصة المبادرة السياسية ، وجعلها تفقد ثمرة المكاسب الدبلوماسية التى أحرزتها فى الفترة من عام ١٩٧٤ الى عام ١٩٧٨ فبينما كان من الممكن أن يوافق الرئيس كارتر على مبدأ مؤتمر السلام الذى كانت **ستشترك فيه كافة الاطراف المعنية** ، هيأ السادات بلعبته المنفردة ، الجو لجماعة الضغط الموجودة فى داخل الادارة الامريكية كى تسعى لاقصاء منظمة التحرير الفلسطينية بكافة الوسائل بعيدا عن الحل بطريق التفاوض . ان الامر بالنسبة للقادة الفلسطينيين فى فترة ما بعد اتفاقات كامب ديفيد تدعوهم الى البحث عن بديل بدلا من الاستغراق فى صب اللعنات على « خيانة العصر » .

وهذا هو بالتحديد ما ابتغته دمشق : أن تجذب الفلسطينيين فى طريق المزايدات الكلامية والشعارات الجوفاء المفتقدة لكل قيمة . ومرة أخرى لجأ النظام السورى الى « غواصاته » أى الى التشكيلات الموالية له (الصاعقة والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) ، وصقور جبهة جورج حبش والذين يرفضون قطعيا بناء على توجيهات موسكو ، « السلام على الطريقة الامريكية » وهو ما تدعو اليه الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التابعة

لنايف حواتمه . ورغم هـذا ، لم يتردد السيد عرفات فى افتعال هجوم مضاد فتصالح باسلوب ملفت للنظر مع الملك حسين فى نهاية عام ١٩٧٨ ، وذهب ليحث اوروبا على مساعدته فالتقى مع فيلى برانت ، رئيس الدولية الاشتراكية وكذا مع برونو كرايسكى المستشار النمساوى فى فيينا فى ٦ يوليو ١٩٧٩ . واخطر هذا الاخير ، ميلتون والف السفير الامريكى لـدى بلاده بهذه المقابلة التى اعقبتها خطـوة هامة فى يوم ٢٦ يوليـو ، عندما التقى اندرو يانج ، السفير الامريكى لدى منظمة الامم المتحدة ، مع زهدى طرزى ، ممثل فلسطين وبالتأكيد لم تسفر هـذه المقابلة عن أية نتيجة نظرا لأن يانج اضطر أن يقدم استقالته تحت وطأة ضغوط جماعة الضغط المعـادية للعرب ، لـكنه اتضح مرة أخرى أن دبلوماسية عرفات نجحت فى استعادة زمام المبادرة من جديد .

وفى يونيه عـام ١٩٨٠ استقبل الزعيم الفلسطينى بترحاب اعلان قمة البندقية الـذى تضمن اعتراف الدول العشر الاوروبية « بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره » كما أعرب اعـلان قمة البندقية عن أمل الدول الاعضـاء فى « أن تشترك منظمة التحرير الفلسطينية فى المفاوضات » . وهـكذا جسدت المبادرة الاوروبية الامل الذى كان ينتظره الفلسطينيون بصبر نافذ .

وجاء رد العرب على هذه المبادرة بصوت الامير فهد ، حين اقترح ولى العهد السـعودى فى يوم ٧ اغسطس عام ١٩٨١ مشروع سلام من ثمانى نقاط . ووجد تقارب كبير جدا بينه وبين اعلان البندقية ، فضلا عن انه تضمن فى النقطة السابعة مانصه « انه من حق جميع الدول الموجوده فى المنطقة أن تعيش فى سلام » . وفسرت هذه النقطة بمثابة اعتراف ضمنى بدولة اسرائيل . ولاشك انه من المهم ان نذكر هنا ان ياسر عرفات قد اشترك شخصيا مع ولى العهد السعودى فى تحرير هذا النص . وهكذا ظهر فى الافق

نوع من الانفراج وجاءت المقترحات المعتدلة من جانب العرب كأنها الرد على تعنت الاسرائيليين الذين هاجموا بعض المواقع فى جنوب لبنان فى يونيه عام ١٩٨١ .

وفى يوم ٣٠ اغسطس عام ١٩٨١ ، التقى كلود شيسون ، وزير الخارجية الفرنسى ، مع الرئيس عرفات فى بيروت . وعرضت فى الاجتماع فكرة التنسيق بين مشروع فهد واعلان البندقية الاوروبى .

لكن الرئيس الاسد لم يبق مكتوف اليدين . فهو لايؤمن بدور أوروبى فى الشرق الاوسط يتعارض مع مخططاته ، وفى شهر يونيه عام ١٩٨١ اعرب لى عن ايمانه بأن التعلق بفكرة المبادرة الاوروبية وهم ، وعلى حد تعبيره « هذه المبادرة هى السراب الذى نتحدث عنه طول الوقت ولكن لا احد يراه » وبعد اقل من اسبوع على لقاء شيسون وعرفات ، اغتيل الرجل الذى كان قد مهد ورتب لهذا اللقاء ، وهو لوى ديلاما السفير الفرنسى ، وذلك على يد رجال المخابرات السورية .

وفى نهاية المطاف ، ندد النظام السورى بمشروع فهد الذى يبعد هذا النظام عن التسوية ويبرز دور الاردن فيها . ويقول الصحفى الان حرين : « لقد بدأت دمشق الحرب ضد الزعيم الفلسطينى ، وشددت من ضغطها عليه : فقد راح ابو نضال المنشق ، والذى وجد ملجا له فى العاصمة السورية ، يدير الاعتداءات ضد الكوادر الفلسطينية المعتدلة ، وانخرطت المنظمات الفلسطينية الموالية لدمشق فى المعركة الدائرة واخذت تندد بأوهام الذين يفكرون فى امكانية اقامة دولة فلسطينية فى الضفة وغزة .

كما ان بعض قيادات منظمة التحرير الفلسطينية ، وبصفة خاصة الاكثر التصاقا بموسكو ، شأن فاروق قدومى ، راحت

تبذل جهدها لاحباط مشروع فهد الذى لم يمكن طرحه امام اول [illegible] قمة عربى تقرر عقده فى فاس يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٩٨١ حيث قرر الملك الحسن ملك المغرب تاجيل موعد انعقاده ، وندد ياسر عرفات بعنف لاعتقاده ان موت السادات المفاجىء فى السادس من اكتوبر عام ١٩٨١ قد غير من الاوضاع وان كامب ديفيد قد ماتت بموت « الرئيس » . وفى حديث اجريته مع الرئيس الفلسطينى صرح بقوله « ان حكومة ريجان مستعدة لاعطاء النور الاخضر لبيجين كى يشن هجوما على لبنان لتصفيتها » كما ان الطريق المسدود الذى تقف عنده المساعى الدبلوماسية نتيجة لنبذ مشروع فهد من شانه ان يمهد الطريق لتنفيذ هذا المخطط »

وطوال الاشهر الاولى من عام ١٩٨٢ ، لم يكف ياسر عرفات عن التنبؤ باقتراب وقوع الكارثة . وافضى لكل من رآه فى هذه الفترة بان لديه الادلة عل أن الاسرائيليين يعدون للهجوم عل لبنان . وعندما انسحب الجيش الاسرائيلى من سيناء فى ٣٠ ابريل عام ١٩٨٢ ، اعتقد معظم المراقبين السياسيين أن النظام الصهيونى قد يبادر لاستعاضة هذا الانسحاب بالهجوم عل أرض عربية اخرى ، وان اكثر المناطق تعرضا لمثل هذا العدوان هى لبنان . ان هذا الاتجاه فى التفكير يطابق تحليل شفيق الوزان ، رئيس وزراء لبنان الذى صرح بقوله : « من المرجح أن لبنان سيتعرض للعدوان قبل نهاية هذا العام » .

وهنا يحق التساؤل : ماذا ستفعل سوريا ؟ .

فى بداية شهر فبراير من عام ١٩٨٢ ، انشغل النظام السورى بتاديب واخضاع مدينة حماة . وبعد مرور بضعة اسابيع عل المذبحة ، قابلت قيادات منظمة التحرير الفلسطينية الرئيس الاسد لتلفت نظره على خطر تعرض لبنان لغزو من جانب اسرائيل .

وطلبت المنظمة التوقيع فورا على اتفاق اســـتراتيجى من اجل مواجهة هذا الخطر ، واكدت المنظمة ان هدف الاسرائيليين — حسب معلوماتها — يتمثل المرة ف التوغل حتى بيروت من اجل منظمة التحرير الفلسطينية . وكان صمت الاسد المطبق هو الرد على هذا النداء الموجه له لنجدة الفلسطينيين ، واكثر من فان طلب منهم ان يساندوا موقف ايران ضد العراق . وانتهت المقابلة ، ويضيف ابو اياد : انه ابتداء من هذا التاريخ منع النظـام السـورى حتى وصول اى شحنات اسلحة متطورة للفلسطينيين ، وضغط على ليبيا لتكف عن تسليم اى عتـاد حربى لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وفى شهر مايو ١٩٨٢ صرح لى السيد عرفات : ان الهجوم على وشك الوقوع ، وليس ف مقدورنا ان نعتمد على سـوريا . وهدف الاسرائيليين هو تصفيتنا بالكامل ، وعلى وجه الخصوص وضع العراقيل امام مبادرات السلام الشامل التى تساهم فيها منظمة التحرير الفلسطينية .. واذا لم تساعدنا سوريا فسوف نتفادى المعركة ف جنوب لبنان ، حيث يمكن ان نفنى تمـاما ، وسنعود الى بيروت .

وفى نهاية شهر مايو عام ١٩٨٢ توجه اريل شارون ، وزير الدفاع الاسرائيلى لزيارة واشنطن . ونقلا عما ورد ف عـدد يوم ١٦ يونيه لسنة ١٩٨٢ من نشرة « اسرائيل وفلسطين » التى يصدرها ف فرنسا بعض اليهود اليساريين غير الصهيونيين ، فانه يبدو ان خطة التواطؤ بين اسرائيل والجانب الامريكى قد اكتملت ونضجت . فلقد « عرض شارون خطة على وزير الخـــارجية الامريكى الكسندر هيج ، فرد عليه هذا الاخير بان واشــنطن مستعدة ان تساعد اسرائيل ف رغبتها ف تصفية مناضلى منظمة التحرير الفلسطينية » .

وتقول نفس المصادر : « يبدو ان دولة اسرائيل قد ابلغت سوريا من طريق الولايات المتحدة بالعملية التى تعتزم القيام بها ف لبنان . كما يبدو ان الولايات المتحدة اكدت لحافظ الاســد ، ان الاسرائيليين لن يهجموا على المواقع السورية ، ولن يحطموا الطيران السورى فوق المجال الجوى السورى » .

وحتى يمكن تحقيق العدوان ، كان يعوز الاسرائيليون المبرر الذى وجدوه ف شـخص ابو نضال المناضـل المتطرف المستقر ف دمشق والوثيق الصلة بالسوريين ، وذلك عندما حاول اغتيال شلومو ارجوف سفير اسرائيل لدى لندن ، شنت اسرائيـــل هجومها ف السادس من شهر يونيه ، وفى يـوم ٧ يونيـه دخلت قواتها مدينة صور ، وفى ٨ يونيه سقطت صيدا ايضـا ثم مدينـة دمور ف يوم ٩ بوقيه ، وف غمرة انطلاقه ، تخلى جيش اسرائيل عن اتفاقه السرى مع سوريا وقصف وحدات صواريخها المنتشرة ف سهل البقاع .

ولم تستطع دمشق ان تتذرع بالصمت اكثر من ذلك فاطلقت خمسين طائرة ضد اسطول اسرائيل الجوى الذى كان اكثر من ضعف هذا العدد . وفقد السوريون نصف عدد طائراتهـم التى اشتبكت بدون تحضير او تنسيق سابق ، ف حين لم تفقد اسرائيل غير عشر او عشرين طائرة على اقصى تقدير . وابتداء من يـوم ١١ يونيه اعلنت الحكومة السورية انها موافقة من ناحيتهـا على وقف اطلاق النار ، وهكذا وضعت حـــدا للمعـركة ، تاركة الفلسطينيين والوطنيين اللبنانيين بمفردهم ف مواجهة نحو مائة الف جندى اسرائيلى وقرابة ١٧٠٠ دبابة ، وانسـحب الجيش السورى من بيروت تاركا عتاده الثقيل على مســئولية بعض ضباطه ، الى القوات الفلسطينية — اللبنانية ، ف حين فر عدد آخر من ضباط وجنود الجيش السورى من وحداتهم ليقاتلوا جنبا الى جنب مع منظمة التحرير الفلسطينية .

وفى ١٥ يونيه ، بدأ الجيش الاسرائيلى يطوق غرب بيروت ، وتعرضت المدينة لقصف وحشى تحت وابل من القنابل العنقودية وقنابل الفوسفور ، هكذا نظم ابناء « جيتــو » وارسو مذبحة « جيتــو » غرب بـيروت ــ بتواطــــؤ شبه كامل مـع المجتمـع الدولى ، وفى يـوم ٢٦ يونيـــــه ، اعترض الأمريكيون بالفيتو فى مجلس الأمن على مشروع قـرار فرنسى يطالب بوقف المذابح فورا . وفى نفس اليـوم طافت مسيرات احتجاج ضخمة فى القدس اشـترك فيها ما يقرب من ١٥ او ٢٠ ألف فرد ليندووا بسياسة بيجين وشارون .

ومن معقله الــذى يقع على مقـربة من الجـامعة العربية فى حى الفخانية ، اخذ ياسر عرفات ينظم صفوف المقاومة ، ويشد من ازر كل عضــو فيها ، ويزور الجرحى والمناضــلين . وكان يعرف تماما أنه هو المستهدف أكثر من الجميع . لأنه الرمز الحى للمقاومة والرجل الوحيد الذى يسـتطيع أن يدفع القضـية الفلسطينية الى الأمام . ومثلما يحدث دائما فى كل حرب ، كانت توجد فى هـذه الحرب فئة من الخـونة . فلقد حدث أن وجهت عمليات القصف الاسرائيلى بتحديد ودقة للأماكن التى كان عرفات يخرج لتوه منها ، وكان عليه أن يتوخى الحذر ، ويكثر من الحيل ، ويحتاط من الجميع ، ولقد استقبلنى مرارا فى سيارته التى كان يقضى فيها ساعة أو ساعتين من الليل لينـام . ورغـم الارهاق المستمر ، ظل محتفظا بقوة اعصابه وبعزيمته الحديدية فى مواجهة جميع المواقف ، لدرجة أنه بعث فى يوم ١٤ يوليو ببرقيـة تهنئة الى الرئيس فرانسوا ميتران .

وبقية الأحداث معــروفة ، والــواقع ان بســالة مقاومة الفلسطينيين ورفض الميليشيات الكتائبية التدخل للقيام « بالعمل القذر » ، وهو الاستيلاء على بيروت الغربية جمد نشاط الاسرائيليين

بيروت . وازاء طول المعارك واستمرار العمليـــات اضطـــر المجتمع الدولى ان يتخلى عن صـــمته متدخلا فى الموقف : فتحت بضغط من فرنسا وبمساعدة الولايات المتحــــدة الأمريكية ، امكن وضع اتفاق لفض الاشتباكات فى منتصف شهر اغسطس ، وفى يوم ١٦ اغسطس تمشيا مع بنود الحل الذى تم التوصل اليه بموجب المفاوضات – طلبت الحكومة اللبنانية رسميا ان ترسل للبلاد على قوة متعددة الجنسيات:فرنسية وامريكية وايطالية لتشرف على رحيل المناضلين الفلسطينيين ، ولقد اعترضت فرنسا على الشروط الامريكية والاسرائيلية الى ارادت ان تجعل من هذا الرحيل خروجا ذليلا ، وابتداء من يوم ٢٢ اغسطس امكن بدء عملية الانسحاب بأسلوب حفظ للفلسطينيين كرامتهم . وفى يوم ٣٠ اغسطس ، توجه ياسر عرفات ، الذى رفض الذهاب الى دمشق الى اليونان حيث اتجه منها الى تونس بعد ذلك . وهكــذا انتهت هـــذه الصفحة من تاريخ المقاومة .

وبدءا من هذه اللحظة ، راى القادة الفلسطينيون انه لا بد لهم ان يعيدوا النظر فى فكـرة « الكفاح المسـلم » . فالقوات العسكرية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية التى بقيت فى لبنـــان كانت تخضع لاشراف دقيق من جانب سوريا،ولكن هيبة ياسرعرفات زادت وتدعمت بعد هذه المحنة ، وفى الوقت الذى اخذ الراى العام العالمى يحكم بقسوة على سياسة الدولة الاسرائيلية التى تاثرت شعبيتها ، وانخفضت اسهمها بشـــكل ملحوظ ، بــدا الرئيس الفلسطينى بمثابة الزعيم بدون منازع لحركة المقاومة التى بدا الغرب يتفهم موقفها بشكل افضل .

وحان الوقت لبدء النشاط الدبلوماسى . ففى يوم واحد سبتمبر من عام ١٩٨٢ ادلى الرئيس ريجان ببيان هام حول الوضع فى الشرق الاوســط . وكان المقصود هــو التوفيق بين « مخـاوف اسرائيل المشروعة وبين الحقوق الشرعية للفلسطينيين » ونــادى مشروع

ريجان بتجميد حركة اقامة المستوطنات لمدة خمس سنوات ، يكون للفلسطينيين القاطنين فى الضفة وغــزة خلالها الحــرية فى ادارة شئونهم « ولدى انتهاء هــذه الفترة » استبعد المشروع ان يومىء بانشاء دولة فلسطينية ، لكنه نادى بدلا منها بابتكار جديد هـــو عبارة « اتحاد مع الاردن » ولم تحدث السياسة الامريكية فى الواقع إى تغير جرىء فى مجريات الامور ، حيث بدا « مشروع ريجان » مبهما غامضا ، وتركزت فكرته الأساسية فى اعتبار الاردن عنصرا هاما من عناصر التسوية . وجاءت قرارات القمة العربية فى فاس التى انعقدت من ٦ الى ٩ سبتمبر ، لترد على هذا المشروع .

ولقد استثمرت منظمة التحرير الفلسطينية الهيبة التى عادت عليها اثر احداث بيروت ، وخاصة هبوط اسهم نظام دمشـــق ، لتساند بنجاح افكار مشروع فهد التى لم يمكن الموافقة عليها ابان قمة فاس الاولى . ومن وجهة نظر ياسر عرفات « كانت نتائج قمة فاس مرضية . . لقــد كان هــدف العدوان الاسرائيلى ، الذى ساندته الولايات المتحــدة ، يرمى الى تصفية منظمـــة التحـــرير الفلسطينية . . . ولقد اثبتنا ان هذا ليس امرا سهلا . وتعتبر قمة فاس هى الرد السياسى الذى تبنته الامة العربية برمتها لترد على المؤامرة الاسرائيلية . ومما لاشك فيه ان قرارات هذه القمة تعتبر ايجابية وبناءة (١) وتدعــو الى ثمــة انفتاح وتفــاعل من جانب الغرب » .

وفى يوم ١٥ سبتمبر ، احرز الرئيس عرفات نجاحا دبلوماسيا جديدا لدى استقباله من بابا روما ، ومن رئيس الجمهورية الايطالى . وامكن الظن ان الوضع بدا ينعطف نحو المفاوضة ، خاصة وأن عرفات حرص الا يرفض مشرع ريجـــان بالكامل ، ايمانا منه بأن هذه هى الطريقة التى ستفتح له باب الحوار مع الولايات المتحدة التى تعتبر

---

(١) تصريحات ادلى بها ياسر عرفات لمؤلف الكتاب .

[illegible] الذى يتحكم فى تسيير اللعبة ، بما لها من قدرة ونفـــوذ تستطيع التأثير بهما على حكومة تل ابيب المتطرفة لتلين موقفها .
وفى خط مواز مع هذا التحــرك ، التقى رئيس منظمة التحـــرير الفلسطينية مع الملك حسين ملك الاردن ، واتفق معه على تشكيل لجنة مشتركة فلسطينية ــ اردنية ، من منطلق الاتحاد الكونفيدرالى الذى سيجمع فيما بعد ، فى نفس الاطار ، الدولة الفلســطينية المستقبلة و الدولة الأردنية .

وهذه الترتيبات كانت بديهيا فوق طاقة احتمال النظام السورى الذى وقع على مضض على بيان فاس ، ورأت دمشق نفســها مبعدة من اللعبة بتكتيك مشترك بين الأردن والفلسطينيين ، ذلك التكتيك الذى حظى بموافقة معظم الدول العربية عليـه ، والذى قد يؤدى الى قيام محور بين بغداد ــ عمان ــ منظمة التحـــرير الفلسطينية و القاهرة ، والأمريكيون انفسهم على مايبدو ، ماعادوا يعتبرون سوريا بمثابة قــوة رئيسية لتحريك اللعبــة على مسرح الاحداث فى الشرق الأوسط ولكن القادة السوريين ، الذين لايرحبون شان الاسرائيليين بان تشترك منظمة التحرير الفلسطينية فى عملية السلام ، لم يقدروا أن يحبسوا غضبهم وراحوا يتهمون عرفــات بالتفريط فى القضية الفلسطينية .

وبمساندة التذاق عملوا على اثارة المنظمات الفلســطينية الموالية لهم . . الصاعقة والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة لاحمد جبريل ، وجبهة التحرير الشعبية الفلسطينية ، بينما تولت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين زرع الريبة فى النفوس .

وفى ظل هذه الظروف انعقد المؤتمر القــومى السادس عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر فى الفترة من ١٤ الى ٢٢ فبراير عام ١٩٨٣ وعلى الرغم من كافة الدسائس التى دبرها الموالون

لسوريا استطاع عرفات « باسم الوحدة » ان يجعل المؤتمرين يوافقون على المحاور الكبرى لسياسته . فخرج البيان الختامى مساندا لمشروع فاس ، وغير رافض لمشروع ريجان صراحة ليترك الباب مفتوحا لحوار محتمل مع الولايات المتحدة ، واشار القرار كذلك الى تدعيم العلاقات مع الاردن مع التركيز ف نفس الوقت على ان منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى وطالب القرار بفتح الحوار مع مصر التى دعيت فقط « للابتعاد » عن سياسة اتفاقات كامب ديفيد .

وهكذا سجل الرئيس الفلسطينى فوزا جديدا على دمشق التى لم تكن راضية كذلك على مبدأ عقد هذا المؤتمر ف الجزائر . ثم اتجه عرفات على الفور الى عمان ليستأنف مفاوضاته مع الملك حسين . لكن النظام السورى لم يستسلم ، ففى يوم ١٠ ابريل عام ١٩٨٣ ، اغتيل عصام سرطاوى واحد من مستشارى عرفات ف لشبونة حيث كان يمثل منظمة التحرير الفلسطينية ف مؤتمر الدولية الاشتراكية . وجدير بالذكر ان عصام سرطاوى كان الرجل المتخصص ف اجراء الاتصالات مع الاسرائيليين واليهود المعتدلين امثال الجنرال بلار ، ويوزى افنيرى ، ومنداس فرانس ...) . ففى شهر يناير عام ١٩٨٣ ، نظم مقابلة بين عرفات وثلاثة اسرائيليين هم : بلار ، افنيرى ، وارنون .

وف عشية انعقاد المؤتمر القومى الفلسطينى بالجزائر ، راح يدافع عن الخط الواقعى الذى يقضى بضرورة مواصلة الحوار مع قوى السلام ف اسرائيل . وافضى لى بهذا الاعتراف قبل موته بفترة وجيزة « ان الاسرائيليين مستمرون ف اقتطاع اراضى الضفة ، ويعدون العدة من اجل طرد الفلسطينيين من الاراضى المحتلة ، وربما من اجل شن حروب جديدة . لذا لم يعد لدينا وقت نضيعه وعلينا ان نعمل بواقعية . وقد حان الوقت الذى يتعين فيه على المقاومة الفلسطينية ان تقرر مصيرها بنفسها . وان تنبذ المزايدات المتطرفة للذين لم

يقدموا ابدا اى شىء للمقاومة — مثل سوريا وامثالها — وان تحدد خطها السياسى بشكل اوضح » . وكان اغتيال سرطاوى بمثابة انذار صريح لعرفات بان ساعة تصفية الحساب مع دمشق قد حانت .

وف يوم ٣ مايو عام ١٩٨٣ ، لبى عرفات دعوة الزيارة الموجهة اليه من الرئيس الأسد ، وذهب الى دمشق حيث تعهد الرجلان بتصفية النزاع القائم بين سوريا والفلسطينيين ، ولكن بعد اقل من اسبوع واحد فقط ، قام العقيد الفلسطينى ابو موسى بالتمرد مع بعض من رجاله ف سهل البقاع . وكانت هذه بادرة لانشقاق عسكرى لم يلق بداهة اى مساندة قوية من جانب الفلسطينيين ، على الرغم من المعونة التى امده بها كل من النظام السورى وليبيا القذافى . وف الواقع فان اللعبة السورية لم تخدع احدا ، ربما باستثناء حفنة العقداء والقادة المنشقين الذين راحوا يحلمون برومانسية ثورية بعيدة عن نطاق المنطق . فلقد تبنى كل من ابى صلاح ، وابى موسى ، وخالد العملة واحمد قادر الدفاع عن خط متطرف لا يتناسب بالمرة مع سياسة الرئيس الاسد » ولابد من وصفهم بالسذاجة لاعتقادهم بان دمشق ستساعدهم على تحرير فلسطين بالكفاح المسلح » .

وعلى هذا الاساس استندت حركة التمرد منذ البداية الى وضع مبهم ، حين اعتمد اولئك الذين زعموا انهم « المتشددون الانقياء » على نظام عربى سبق ان دل على انه لا يعير اى اهتمام للمقاومة الفلسطينية او لحكمها الذاتى . بيد ان الشعب الفلسطينى لم يقع ف حبال الخديعة ، وظلت حركة المنشقين تشكل حركة اقلية على الرغم من المساندة والدعاية اللتين زودها بهما النظام السورى . ولقد اضطر هذا الاخير ان يعبىء انصاره التقليديين : الصاعقة والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة لاحمد جبريل وجيش تحرير فلسطين الذى يقع تحت اشراف الضباط السوريين وجماعة ابو نضال التى مقرها ف دمشق .. ويقول ياسر عرفات

ف هذا الصدد « ان مايحدث لاينم من وجود نزاع بين الفلسطينيين بعضهم وبعض ، ولكن عن وجود نزاع بين الفلسطينيين وبين النظام السورى الذى يتستر خلف دمى يحركها ، مثلما سبق ان فعل ف عام ١٩٧٦ ضد منظمة التحرير الفلسطينية » .

وظل الوضع ماضيا ف تدهوره الى ان وصل الى حد القطيعة ف يوم ٢٤ يونية ، حين تقرر طرد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية من دمشق . وعرف عرفات منذ هذه اللحظة ان المواجهة اصبحت حتمية ، فطلب من القوات الفلسطينية الموالية ف سهل البقاع ان تتجمع — وتتجه صوب شمال لبنان ، حول مدينة طرابلس . لكن عددا كبيرا من هؤلاء العسكريين منع واسر كرهائن لدى الجيش السورى . وخلال صيف عام ١٩٨٣ بدأ « النمر السورى » يمنع مخالبه ، وتم حصار فلول القوات الفلسطينية الموالية التى تمكنت من الوصول الى طرابلس . ورأى ياسر عرفات ان آخر قواته العسكرية ف لبنان سيكون مصيرها الابادة ، وان الوسيلة الوحيدة لانقاذها هى ان يتوجه بنفسه الى محل تواجدها حتى يلفت انظار الرأى العام الدولى اليها .

وفضلا عن ذلك ، فانه بتوجهه الى الساحة سيبرهن ان المشكلة لا تكمن ف الواقع ف ذلك الانشقاق المزعوم ، وانما ف النزاع القائم بين منظمة التحرير الفلسطينية ودمشق . وكانت اللعبة خطرة ، اذ وضع « صديقنا » حياته على كفه مرة اخرى ، ادراكا منه انه بهذا الثمن وحده سيستطيع ان يفضح على الملأ موقف دمشق ، ويؤكد من جديد انه هو زعيم الشعب الفلسطينى كله .

وف شهر اكتوبر عام ١٩٨٣ ، وصل الى طرابلس حيث لم يجد فيها غير عدد يقل عن الخمسة آلاف مقاتل ، وهذا العدد الذى تحالف مع الحركة الاسلامية المعادية بشدة لحافظ الأسد . وشيئا فشيئا بدأ الخناق يضيق حولهم حيث تضامن الجيش السورى مع القوات التابعة لليبيا ، والقوات الفلسطينية الخاضعة لسوريا ، لضرب الحصار حول المدينة وحول معسكرى البداوى — والبارومية الفلسطينيين ، ف الوقت الذى فرضت الوحدات البحرية الاسرائيلية حصارا آخر من ناحية البحر . واندلعت المعركة ف نهاية شهر اكتوبر ، وبلغت ذروتها ف بداية شهر نوفمبر .

وبدات عملية العذاب بالنسبة لطرابلس ، ثانى المدن اللبنانية ، فقد توالت عليها الغارات بلا انقطاع ف كل اوقات الليل والنهار وهرع السكان ف المخابىء ، ومع هذا يمكن القول بان وضع هذه المدينة كان افضل بكثير بالمقارنة مع الوضع ف معسكرى البداوى والبارومية على بعد بضعة كيلو مترات من شمال المدينة . حيث كانت البيوت الصغيرة المبنية بالطوب اللبن او بالواح الصفيح تتطاير من دوى القنابل مما زاد من بشاعة المعركة . وكانت المدفعية السورية تدك بدون كلل ، وعلى فترات منتظمة ، المواقع القليلة للمدفعية الفلسطينية ، والتى جاء ردها بحساب توفيرا للذخيرة التى كانت تصلها بصعوبة بواسطة البواخر المصرية ، الجزائرية او العراقية التى كانت تخدع يقظة الاسرائيليين .

ومع نزول الظلام ، بدات تهطل الأمطار خفيفة ، كثيفة وقذرة معا ، وكان دوى المدافع التى تنطلق مابين الحين والحين يفزعنا ، وانهار منزل صغير عند طرف الشارع وكان يقع على مسافة قريبة من الطريق المسدود حيث كان يوجد مقر القيادة العامة لياسر عرفات . وفجاة وصلت سيارة « لاندروفر » بيضاء ملطخة بالوحل ، كانت تسير بسرعة وخلفها مدرعة يعلوها رشاش آلى . وفور توقفها خرج منها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، وبنفس السرعة خرجت بعض الحشود من الظلام وتكدست حوله .. من مناضلين ونساء واطفال وشيوخ .. فكانوا تعبيرا صادقا من صورة هذا الشعب البائس الذى يحمل هذا الزعيم الوقور مشاكله على عاتقه منذ اكثر من خمس عشرة سنة . لقد تقدم العمر بابى عمار فابيضت لحيته

وفارت عيناه فى وجهه ، لكنه استمر يحتفظ بابتسامته السـ
المعهودة ، واخذ يضغط على الايدى ويسلم ، يقبل الاطفال او يربت
على وجوههم . وعرفنى حين لمحنى فاقترب منى وعانقنى وسألنى :
« انت هنا .. وكيف وصلت ؟ » .

وجذبنى من ذراعى وصعدنا ادراج سلم معتم ، وحياه بعض
الحرس قبل أن نصل الى غرفة مكتبه بالطابق الاول . وكانت
محتويات الغرفة عبارة عن سرير سفرى ، وعدد مذهل من التليفونات
واجهزة الارسال التى تصله بكافة اركان العالم ، ومكتب حديدى
لونه اخضر واريكة بسيطة مهملة جلسنا عليها . اما الاضاءة فكانت
توفرها بشكل سيىء مجموعة من المولدات الكهربائية المزعجة بينما
كانت القنابل تتساقط على مقربة منا . وقد عقب على هذا بقوله :
« انهم يحاولون بلوغ مقر قيادتى » .

وهنا يحق التساؤل : ماذا يحدث بالضبط ؟ اليس من المذهل
تواجده فى هذا المكان ، محاصرا بين الجيش العربى من جانب
وبين الاسطول البحرى الاسرائيلى من جانب آخـر ؟ .

وانفعل الزعيم الفلسطينى وقال : « انها المرحلة التالية بعد
بيروت . لقد فشل اعداؤنا فى محاولة تصفيتنا خلال صيف
عام ١٩٨٢ ، والآن يعيدون الكرة من جديد . وفى بيروت ، كان
الاسرائيليون هم الذين يؤدون هذا الدور ، ولكن هنا السوريون
هم الذين يقومون به . فالنظام السورى يواصل هدفا محددا ،
اذ يريد أن يفرض نفسه بمثابة القوة الرئيسية على الصعيد المحلى
ووصولا لهذا الغرض يريد ان يمسك بجميع الأوراق فى يده ،
وبصفة خاصة بالورقتين اللبنانية والفلسطينية . والواقع انه
يوجد ثمة توافق فى المصالح بين سوريا والاسرائيليين والامريكيين
يجعلهم يرفضون منح حق الوجود لمنظمة التحرير الفلسطينية
قوية ومستقلة ، وهذا هو اصل المحاولة الجديدة التى تبذلها

سوريا ضد منظمة التحرير الفلسطينية ، وفى حالة عدم مجيئى
الى طرابلس ، كانت ستتم هذه الضربة المدبرة فى صمت . لكن
لعبة النظام السورى انفضحت وتكشفت فى وضح النهار » .

وذكر ياسر عرفات بان حركة الانشقاق ليست سوى
دمية من اختراع دمشق ، فعلى حد اقواله : « هناك بعض الدمى
تلعب لعبة السوريين ، ولكن منظمة التحرير الفلسطينية هى
التى تمثل مجموعة الشعب الفلسطينى . ان المظاهرات قامت
من اجلى فى كل مكان : فى الاراضى المحتلة ، ومعسكرات اللاجئين،
وحتى فى داخل المعسكرات الموجودة بسوريا ، ففى معسكر
اليرموك قضى الجيش السورى على اربعين شخصا من بين
المتظاهرين كانوا يلوحون بصورتى » .

ويعتقد الرئيس الفلسطينى ان الخلاف الذى بين المنظمة
والنظام السورى خطير حقا الا انه يمكن معالجته . وهو يقول
ان هذه لم تكن المرة الاولى التى يدب فيها الصراع بين منظمة
التحرير الفلسطينية ودمشق : « لقد سبق أن مررنا بازمة رهيبة
فى عام ١٩٧٦ ، ولكن استطعنا ان نضع لها حدا . ينبغى على
سوريا ان تفهم اننا لن نتهاون ابدا فى استقلال المقاومة . وانطلاقا
من هذه الحقيقة ، ينبغى عليها ان تعرف ان الدور المطلوب منها
تاديته ليس اضطهادها ولكن مساعدتها . ومهما حدث أو يحدث،
سوف يكون من الصعب عليها القضاء على خمسة مليون فلسطينى
وستبقى مشكلتنا هى مفتاح الحل فى المنطقة لاشعال الحرب
او لاستتباب السلام فيها » .

واستيقظ المجتمع الدولى تحت ضغوط فرنسا وكانه يعطى الحق
كل الحق لياسر عرفات ، فقد تبنى مجلس الامن بالاجماع فى يوم
٢٣ نوفمبر القرار الذى قدمته حكومة باريس بشان وقف اطلاق
النار بين المتحاربين ، وبدات بهذا الصدد على الفور مباحثات

ف دمشق بين السوريين والسعوديين . وف يوم ٢٤ نوفمبر تم توقيع اتفاق وقف اطلاق النار بينما اجرى ف ليلة نفس هذا اليوم تبادل كبير للأسرى بمساهمة فرنسا بين الاسرائيليين والفلسطينيين التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية . واعربت المقاومة الفلسطينية الامينة لعهدها مع عرفات عن ارتياحها « كيف يمكن ان ينكروا تمثيلنا للشعب الفلسطيني بعد مثل هذه العملية ؟ » .

وف بداية شهر ديسمبر ، وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة ان ترفع علمها على خمس سفن يونانية تحمل على سطحها اربعة آلاف مناضل فلسطيني لدى انسحابهم من لبنان ، وف يوم ١٧ ديسمبر . ابلغت فرنسا انها ستغطى عسكريا عملية الانسحاب وفقا لرغبة ياسر عرفات الذى « لايثق الا ف الحكومة الفرنسية فقط » . ولم يعرب النظام السورى الذى يبدو انه قبض عمولة لابأس بها من السعوديين ، عن اى رد فعل ابان ذلك ، ولكن الاسرائيليين قصفوا ميناء طرابلس ليحولوا دون انسحاب من يعتبره قادة تل ابيب المتطرفين بمثابة العدو رقم واحد بالنسبة لهم . وف يوم ١٩ ديسمبر وصلت بعثة عسكرية فرنسية الى طرابلس لتنسق عملية الانسحاب ف الوقت الذى احتل رجال الامن اللبنانيون مواقعهم حول الميناء . وف يوم ٢٠ ديسمبر بدأ الانسحاب الفعلى . وف الصباح راح الرئيس عرفات يودع اهالى طرابلس وحلفاءه ، وبخاصة الشيخ شعبان رئيس حركة التجمع الاسلامى . وادلى بنداء اخير قال فيه :

« ينبغى على اخواننا السوريين ان يبداوا صفحة جديدة من تاريخ الكفاح ضد الامبريالية والصهيونية ونحن اذا لم نوحد صفوفنا سوف تلحق بنا هزائم جديدة .. فباسم فلسطين ، وباسم الشهداء وباسم منظمة التحرير الفلسطينية ، وباسم الله سبحانه وتعالى اطلق هذه الصيحة مطالبا بوحدة الصف العربى » .

وف الساعة الثالثة بعد الظهر ، وصلت السيارة « اللاندروفر » البيضاء كالقذيفة ف قطاع الميناء . ومحاصرة بجيش من الحرس دخلت داخل السفينة « اوديسيوس ـ اليتيس » وعلى الفور رفع القبطان اليونانى العلم الفلسطينى . وبعدها ببضعة دقائق لحقت السفينة بالبوارج الحربية الفرنسية المسئولة عن حراستها ثم اخذت تشق طريقها نحو قناة السويس . ومن مكانه على السفينة ، ظل ياسر عرفات يتابع ابتعادها تدريجيا عن السواحل اللبنانية التى يغادرها مطرودا للمرة الثانية . ولقد عقب ابو جهاد ، الرجل الثانى على الموقف بقوله : « ان خروجنا من شمال لبنان سيبقى وصمة عار لا يمحى للابد على جبين حافظ الاسد » . ولكن سرعان ما تماسك هذا المقاتل القديم واخذ يعد العدة بالفعل لمبادرة جديدة .

واتجهت سفينة اوديسيوس ـ اليتيس اليونانية الى اليمن الشمالية حيث مقر القيادة العامة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لكنها توقفت قبل الوصول الى مقصدها ف بورسعيد ، عند مدخل قناه السويس ، وف يوم ٢٢ ديسمبر عام ١٩٨٣ ، التقى الرئيس الفلسطينى مع الرئيس مبارك ف قصر القبة .

ولم يكن ياسر عرفات قد وطأ القاهرة بقدمه منذ يوم ٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ عندما أعلن السادات عن رغبته فى الذهاب الى القدس . وتسببت هذه الزيارة الى القدس المحتلة والتوقيع على اتفاقات كامب ديفيد ف خروج مصر من الجامعة العربية ف مارس عام ١٩٧٩ ، لكن الوضع تغير الآن حيث لم يكن حسنى مبارك هو الذى وقع معاهدة سلام منفصلة مع دولة اسرائيل ، وهكذا فان جناح « المتشددين » الذى انتقد مقدما عودة القاهرة الى الامة العربية ولم يكن لديه اى درس ف الوطنية يمكن التلويح به . ولاحظ عرفات ان القاهرة ، بخلاف الأنظمة الأخرى لم تقتل ابدا الفلسطينيين ولم تحاول تصفية منظمة التحرير الفلسطينية ف اى وقت من الأوقات .

وفضلا عن ذلك سحبت مصر سفيرها من اسرائيل بعد عدوان هذه الاخيرة على لبنان فى صيف عام ١٩٨٢ ، ومنذ ذلك وهى تحارب السياسة الاسرائيلية بتوفير المعونة العسكرية والدبلوماسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ولا يعنى هذا ان المنظمة هى التى اجبرت ثمة تنازلات فى مواقفها ، وانما هو دليل على ان مصر هى التى ادخلت ثمة تطوير فى موقفها « وخلاصة القول فان مصر مبارك ليست مصر السادات » ولذلك فعلى كل الناصحين ان يوفروا كلامهم . وكان لقاء عرفات مع الرئيس مبارك متمما للقطيعة بينه وبين دمشق ، وتاكيدا جديدا لتصميمه على تسيير اموره بارادته وحده ، وكانت المهمة سهلة خاصة وانه لم ينضم الى مصر ، فى حين ان دمشق لها من يتبعها من الفلسطينيين . امثال الصاعقة والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وغيرها . كما كان لعمان من يتبعونها كذلك (الاعيان الفلسطينيين الموالين للاردن) واظهر عرفات ان منظمة التحرير الفلسطينية تستطيع ان تسترجع مصر وبمعنى ادق ، شكلت القاهرة ورقة اساسية فى استراتيجية الزعيم اللفسطينى ، تلك الاستراتيجية التى عقد العزم على تنفيذها .

وفى هذا الصدد يقول عرفات : « ان المعركة ستصبح ايسر من الآن فصاعدا لاننا اصبحنا احرارا فى تحركاتنا بعد ان ابتعد الى غير رجعة السيف الذى كان مسلطا على رقابنا » . لقد انتهى بالفعل عهد الوصاية الذى كان يندد به فى بيروت ، ومن اهم نتائجه ان اتباع سوريا فقدوا كل احترام بعد احداث طرابلس ، حيث انقطعت الصلة كلية بين جميع المنظمات التى تسير فى ركاب دمشق وبين جماهير الشعب الفلسطينى التى اصبحت تساند فى غالبيتها ياسر عرفات الذى بدا مستعدا لتحمل مخاطرة ابتعاد بعض العناصر عنه اذا كان من شأن ذلك مساعدته على اعتناق خط اوضح ويتميز بالايجابية فى نفس الوقت .

واضحى الموقف واضحا بالنسبة لياسر عرفات : يجب ان تعود الى محفل الدول العربية ، كما يجب احياء الحوار مع الاردن الاخرى ، خاصة وان الاسد كان يبالغ دائما فى اهمية الدور الذى لبلاده حتى يستثمر هذه النقطة لصالحها بتدفق المعونات المالية عليها . وفى الواقع اذا كان لسوريا دور لا يستهان به فان دور مصر والاردن لا يقل شأنا عنه ، هذا بالاضافة الى الصلة المباشرة التى تربط بين هذين البلدين وبين الفلسطينيين الذين يعيشون فى الاراضى المحتلة .

ومعظم الفلسطينيين مقتنعون بهذه الحقائق ، لذا وبرغم الصخب الذى شنته العناصر الموالية لسوريا فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية ، فان اللقاء بين عرفات ومبارك لم يسفر عن اى عواقب مؤثرة على حياة حركة المقاومة .

فبعد ان اعرب المجلس الثورى لفتح عن استيائه من عدم مشورته قبل اجراء هذه المقابلة اعلن عن تجديد ثقته فى عرفات فى يوم اول يناير ١٩٨٤ ، كما تم تشكيل لجنتين بهذا الصدد لاستئناف الحوار مع كل من الاردن ومصر . وبعد ايام قلائل حصل الرئيس الفلسطينى ايضا على تأييد اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ومسنودا بهذا الضمان ، استقبل الرئيس عرفات بحفاوة المنتصر من رؤساء الدول والحكومات الاسلامية بمؤتمر قمة الدار البيضاء الذى عقد فى المدة من ١٦ الى ٢٠ يناير ١٩٨٤ ، وقد اعتبر عرفات القرار الذى اتخذته قمة المؤتمر الاسلامى بشأن اعادة ضم مصر الى عضويته من جديد بمثابة نجاح شخصى له وبعد شوط طويل استطاع الزعيم الفلسطينى ان يثبت للرئيس الاسد ان تصفيته ليست بالامر السهل .

وحين راح يحيى الحوار مع مصر والاردن ، ويعاود توثيق العلاقات مع العراق البعثى ، كان يحلم بقيام محور سنى معتدل

يمتد من بغداد وعمان الى القاهرة ومنظمة التحرير الفلسطينية ربما يستطيع ان يجذب خلفه الجزء الغالب من الامة العربية وان ينتزع مبادرة من اوربا وبخاصة من فرنسا قد تكون كفيلة باحداث تطور فى موقف الولايات المتحدة الامريكية .

وفى ضوء ذلك ، يمكن القول بأن الرئيس الاسد قد فشل حين لم يتمكن من ضم منظمة التحرير الفلسطينية اليه فى ان يبقى المتحدث الرسمى الوحيد الذى يعتد به فى الشرق الاوسط . ويمكن الجزم ايضا بأنه اخفق رغم احداث « ايلول الاسود » الذى سمح باندلاعها ، وحصار طرابلس الذى تولى التنظيم له ، فى القضاء على عرفات ، الامر الذى شكل بالفعل اهم هزيمة له فى حياته .

وعلى الرغم من ذلك ، وبعد مرور عام واحد على التجربة المؤلمة التى عاشها خلال حرب صيف عام ١٩٨٢ ، فان رئيس الدولة السورى يعود ليظهر من جديد فى بداية عام ١٩٨٤ بمثابة اخطر شخصية فى المأساة الدائرة فى لبنان .

الباب الخامس

والى لبنان المعظم

« ان لبنـــان وســوريا يشـــكلان شعبا واحدا ، وامة واحدة لا شك اننـــا الان دولتان مستقلتان ، لكن هذا لا يعنى اننا امتـــان مختلفتـــان » . عندما ادلى الرئيس السورى بهذه التصريحـات لمجلة لوبوان الفرنسية الاسبوعية فى عددها الصادر فى ٢٨ ديسمبر عـــام ١٩٨٢ ، اراد ان يؤكد حقيقة : فلبنان وسوريا تربطهمـــا علاقات تاريخية اقدم واقوى بكثير من الكيانات الدولية التى قامت فى فترة ما بعد الحرب على اساس التقسيمات التى اوجدتهـــا وفرضتها القوى الاستعمارية الكبرى . لكنه اراد فى نفس الوقت ان يفرض تحديا محسوبا ، بمناصرته لنظرية دولة سوريا الكبرى لانطون سعده ، مؤسس الحزب الوطنى الاجتماعى السورى،اكثر من مناصرته للنظريات البعثية المؤيدة لفكرة الوحدة العربية ، انـــه بهذا يثأر لنفسه لما حدث لجيشه فى صيف عام ١٩٨٢ عندما طرد هذا الجيش من بيروت والذى جاء اليها : ليحمى الشعبـــين الفلسطينى واللبنانى ».

والواقع ان الحكومة السورية فقدت ابان هذه الفتـــرة رصيدا ضخما من هيبتها لتركها منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية تواجهان بمفردهما الجيش الاسرائيلى ، مكتفية بسحب قواتها الى مواقعها فى سهل البقاع . واللبنانيون الذيـــن اعربوا بتسرع عن ارتياحهم لهذا الرجل ، تغير ارتياحهم الى قلق خلال فترة تزيد قليلا عن عام واحد . فابتداء من شهر ديسمبـــر عام ١٩٨٣ ، عاد الرئيس الاسد يظهر كصاحب الكلمـــة الاولى بالنسبة للعبة الدائرة فى لبنان . وبعد عدة محاولات من جـــانب الرئيس جميل لاستعادة استقلال بلاده ، هدد فى اوائل عام ١٩٨٤ بان مصيره سيكون كمصير الرئيس سركيس الا اذا رضخ لنزعات المتطرفين من شعبه الذين يحلمون بتأسيس « دويلة مارونيـــة » معتمدين على المساندة المفروض انها ستأتيهم من جانب الولايات

المتحدة واسرائيل . اما من الرئيس الاسد ، فقد حصل من جديد على الورقة اللبنانية التى يحتاجها لمواصلة لعبته .

وفى كل مرة التقيت بهم ، اكد لى القادة السوريون ان لبنان تحتل الاولوية الاولى عندهم . ومما يؤكد ذلك قول عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية فى هذا الصدد : « ان لبنان هو الامتداد الطبيعى لسوريا ومن ثم نحن حق هذه الاخيرة ان تراقب الشئون اللبنانية » وفى الحقيقة ان لبنان تشكل مع المقاومة الفلسطينية اهم هامش للمناورة تتمتع به السياسة السورية على صعيد الشرق الاوسط وقد ادرك الرئيس الاسد هذه الحقيقة جيدا ، ولم يكف لحظة عن محاولة وضع يده على هاتين الغنيمتين لذا انتهز بسرعة فرصة التدخل فى لبنان فى علم ١٩٧٦ ، وعلى نقيض ما زعمه المراقبون السياسيون فى ذلك الوقت ، بانه لم يلق بنفسه فى مستنقع عفن ، بل انه امسك بدلا من ذلك بورقة رئيسية من اوراق اللعب السياسى لم يكتشفها بعد . وقد نجح ببراعته المعتاده ، طيلة سنوات عديدة فى ان يلقى بعبء نفقات المجهود الحربى اللازم لعشرات الالاف من رجاله المتواجدين فى لبنان ، على عاتق الدول العربية وذلك عندما جعلهم يقرون بمشروعية تدخله « تحت قناع قوة الردع العربية التى لم تكن فى الواقع اكثر من قوة احتلال سورية » على حد قول ريمون اده .

ان اللعبة التى تدور فى لبنان منذ عام ١٩٧٥ يشترك فيها اربعة اطراف : الميليشيات المارونية « المسيحيون المتطرفون » ، وسوريا ، واللبنانيون التقدميون وحلفاؤهم الفلسطينيون (١) .

---

(١) ان التعبير السخيف « القوى الاسلامية التقدمية » لم يكن له اى معنى فى يوم من الايام . هذا بالاضافة الى ان عددا كبيرا من المسيحيين فضلوا الانضمام الى الكتائب . وقد تكونت ، فى مواجهة الكتائبيون ، حركة قومية لبنانية تضم عدة اتجاهات تقدمية وينخرط فى سلكها المسيحيون والمسلمون .

واصبحت اخبار احداث لبنان من توافه الامور التى تنشرها صحفنا اليومية . فالحرب تدور فى لبنان منذ عشر سنوات ... بعد سنوات من المذابح المستمرة (تفيد التقديرات بان عدد الضحايا اللبنانيين فيها قد تجاوز ١٠٠٫٠٠٠ نفس) وتصفية الحسابات والدمار والخراب ولكن من اكثر الحالات الما تلك التى تتمثل فى وضع الناشئين والاطفال ، هؤلاء الذين كانوا فى الثمانى عشرة او العشرين من عمرهم لحظة اندلاع هذه الاحداث ، فقد تحطمت حياتهم اما من ولد منهم بعد عام ١٩٧٥ فلم يعرفوا سوى دوى القنابل ، واصوات الرشاشات ، ونتيجة لذلك اصبح لبنان من اكثر البلاد استهلاكا للمهدئات فى العالم .

ومن كثرة الحديث عن « الحرب اللبنانية » لم يعد احد يعرف بالتحديد كيف او لماذا بدات هذه الحرب ولكن هناك حقيقة مؤكدة : من الخطأ الفادح الاكتفاء بالشعارات الصحفية التى تريد تأكيد فكرة وجود نزاع طائفى فى الاصل . فالالتزام بتفسير اليمين المسيحى المتعارض مع اليسار الاسلامى التقدمى يعكس نظرة قاصرة للامور حتى اذا كان شبح المواجهة الطائفية بدا يظهر للاسف على مر السنين . فما الذى حدث فى عام ١٩٧٥ ؟ وكيف تحولت ارض لبنان التى تبلغ مساحتها ١٠٫٤٥٢ كم٢ الى ساحة مغلقة تدور عليها هذه المواجهات الشرسة ؟

لقد حاول الصحفى اللبنانى وفيق طيبى ، مؤسس صحيفة « اليوم » اللبنانية وعميد المعهد العربى للصحفيين الذى لعب دورا هاما فى مجال الاعلام مستهدفا تطوير الحوار بين اوروبا والعرب . والذى توفى فى ١٦ فبراير عام ١٩٨١ عن ٥٥ عاما ، حاول الرد على هذه التساؤلات : « ان الاحداث التى تحولت الى حرب اهلية لم تندلع بسبب المذبحة التى شنتها الكتائب ضد اطفال اتوبيس المدرسة الفلسطينية بعين الرمانة يوم ١٣ ابريل عام

١٩٧٥ (١) . ولكن بسبب واقعة الاغتيال التى سبقتها ببضعة أيام ، والتى راح ضحيتها معروف سعد نائب صيدا التقدمى بينما كان يتزعم مظاهرة للصيادين الفقراء ... ففى هذا اليوم ٢٧ فبراير تظاهر الصيادون ــ مسيحيون ومسلمون ــ فى ميناء صيدا للاحتجاج على شركة الصيد التى اسسها كميل شمعون والتى مثلت فى نظرهم خطرا على بقائهم » (٢) .

كانت هذه هى اول جريمة اغتيال سياسى ، والتى فتحت الباب لسلسلة رهيبة من الاغتيالات كانت البداية الحقيقية للصراع الذى لا يزال مستمرا للان .

واسفر اغتيال معروف سعد على يد ميليشيات شمعون المستفيدة من وجود ثمة تواطؤ بينها وبين الجيش اللبنانى عن نتيجتين .

لقد ثبت فى المقام الاول أن لبنان لم يكن قبل عام ١٩٧٥ ، بالنموذج المثالى مثلما كان يحاول ان يثبت عشاق هذا البلد والذين راحوا يضربون به الامثال مر السنين . وفى هذا الصدد يقول « وفيق طيبى » « ان استحالة التعايش لم تكن بين الطوائف بعضها وبعض بل بين الاقلية الغنية والاغلبية الفقيرة من الشعب » ولا مريه ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لم تكن مرضية على الاطلاق ، فخلف مظاهر الثراء والرخاء التى كانت تميز الطبقة الغنية التى كان يتردد عليها الاثرياء العرب لدى سياستهم فى هذا البلد ، والصحفيون والمقيمين الاجانب ، كانت توجد حقيقة قاتمة . ففى عام ١٩٧٠ ، لم تكن فئة اصحاب الاجور الدائمين تمثل غير ٢٧ ٪ من اجمالى عدد العاملين فى البلاد ، فى حين ان عدد عمال

---

(١) فى ذلك اليوم اطلق الكتائبيون رشاش مدافعهم الرشاشة على شاحنة تقل عددا من الاطفال الفلسطينيين .

(٢) مقال ظهر بمجلة دراسات العلاقات الدولية عام ١٩٨١ .

اليومية وصل الى نسبة ٤٠٪ ، وعدد العمال الموسميين الذين كان ضمنهم اكثر غموضا وصل الى ٤٪ وتوضح هذه الارقام اهمية عمال اليومية الذين كانوا فى غالبيتهم يمثلون البطالة المقنعة واذا كان مستوى الاجور مرضيا فى المؤسسات التجارية والبنوك والشركات السياحية ، فانه يعتبر هزيلا على النقيض من ذلك فى مجالى الصناعة والزراعة . اما الموظفون وعمال الشركات امثال شركة طيران الشرق الاوسط اللبنانية ، فكانت مرتباتهم لا تكاد تكفى لتغطية متطلبات حياتهم الضرورية وعلى الرغم من ذلك فان هذه الطبقة المتوسطة العاملة الجادة ، هى التى اثبتت فى الاوقات الصعبة انها العمود الفقرى الذى اعتمدت عليه البلاد طوال تسع سنوات متصلة من الحرب ، وواصلت خلالها العمل بدون كلل او انقطاع .

وقبل عام ١٩٧٥ كان لبنان عبارة عن مجتمع انساب تسيطر عليه روح التعصب لبعض الطوائف العريقة فى ظل نظام اشبه بنظام الاقطاع ، وكان هــذا المجتمع ينقسم الى فئتين متباينتين : فئة الاغنياء المتخمين بالثروات الفاحشة من جانب ، وفئة الفقراء البؤساء من جانب آخر . واستمر هذا المجتمع ينمو فى ظل نظام نيابى وتجارى « حيث السلطة العاجزة توجد فى ايدى بعض الاشخاص الذين يتوارثونها أبا عن جد » . (حسب تعبير وفيق طيبى ، وفى ظل هــذا الاطار كان لابد وان يتأقلم العامل الفلسطينى ومشكلة اندماج عشرات الآلاف من اللاجئين المطرودين من ديارهم على يد الاسرائيليين ، فى قلب الواقع اللبنانى وعلى الرغم من حسن استقبال الاهالى اللبنانيين ، بوجه عام ، لفلول هذا الشعب الشقيق الخارج لتوه من مأساة محزنة ، الا ان صراعات خطيرة بدات تندلع بين رجال المقاومة والسلطات الحاكمة فى البلاد . وبعد ما تفاقم الوضع بشكل ملحوظ فى عام ١٩٦٦ ، اعيد الى نصابه مرة اخرى بواسطة « اتفاقات القاهرة » التى وقع عليها الجانبان فى ٣ نوفمبر عام

١٩٦٩ . ولقد ادى توقيع شارل حلو ، رئيس جمهورية لبنان ، وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية على هــذه الاتفاقات ، الى اضفاء صيغة قانونية على الوجود الفلسطينى فى لبنان وبموجب هذه الوثيقة حصل الفلسطينيون فى لبنان على بعض الحقوق : كحق العمل ، والاقامة والتنقل وعلى الســماح لهم بتكوين شرطة فلسطينية فى داخل معسكراتهم وخاصــة على اعتراف رسمى بحق الفلسطينيين المقيمين فى لبنان فى المشاركة فى الثورة الفلسطينية ، فى اطار احترامهم لمبادىء السيادة والامن فى لبنان » . كما تطرقت الاتفاقات ايضالنشاط الفدائيين وفى هذا الصدد نصت على ان الدولة اللبنانية « ملتزمة بتيسير عمليــات المرور » . وفى مقابل هذا تعهدت قيادة الكفاح المسلح الفلسطينى « بعدم التدخل فى الشئون القانونية وفى الواقع حصلت المقاومة على حق القيام ببعض العمليــات ضد اسرائيــل ابتــداء من الاراضى اللبنانية وصدقت معظم الاحزاب اللبنانية ؛ اليمينيــة واليسارية ، المسيحية والاسلامية ، على الاتفاق دون الاطلاع على نصها الذى ظل سريا وقد ندد (ريمون اده) وحده بغموض هذه الاتفاقات « التى ستتخذها اسرائيل ذريعة لتحقيق مآربها الخاصة بلبنان » .

وحسب اقوال نائب الجبل — ريمون اده — فانه يتعــين البحث عن الجذور الحقيقية للحرب المشتعلة فى لبنان منذ عــام ١٩٧٥ ، فى مخططات واهداف اسرائيل ذاتها ولقــــد روى « موشى شارت » رئيس وزراء اسرائيل سابقا ، فى مذكراته ان القادة الصهاينة اجتمعوا مرارا ابتداء من عام ١٩٥٤ ليصلوا الى قرار بشأن زعزعة الاستقرار فى لبنان . وكان المقصود بالنسبة لكل من بن جوريون وشارت وديان هو احداث انشقاقات وتصدع فى الكيان اللبنانى حتى يتسنى لهم ضم القطاع الجنوبى من البلاد بغية الحصول على مياه نهر الليطانى من جانب ، وتيسير عملية انشاء — دويلة — مارونية من جانب آخر ولقد اثير هذا المخطط

الاسرائيلى اكثر من مرة ، وقامت بتحليله تحليلا دقيقا الصحيفة الاسرائيلية ليفيا روكاتش فى دراسة لها نشرت فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٨٠ تحت عنوان « ارهاب اسرائيل المقدس » .

وقد لاحظ ريمون اده ،أن اسرائيل كانت بحاجة لتحقيق مخططاتها ، الى حزب أو زعيم مارونى والى رجل عسكرى مارونى لانشاء ميليشيا متعاونة فى جنوب لبنان وبتواطؤ من الولايات المتحدة وسوريا التى سيكون لها الحق فى اقتطاع جزء من لبنــان . اما الحزب الذى وافق ان يلعب هذا الدور فهو حزب الكتائب للجميل الذى كان فى صراع دائم مع حزب شمعون . والعسكرى المنشود كان سعد حــداد رغم كونه أرثوذكسيا اما النور الاخضر فقد اعطاه هنرى كيسنجر ، ولكن من البديهى ان اى شىء من كل هذه الترتيبات ماكان سيتم بدون تواطؤ النظام السورى . ولقد ساعد وصول حافظ الاسد الى السلطة فى دمشق على ازالة العقبة الاخيرة » .

وحتى يبدا تنفيذ خطوات هذا المخطط ، كان يكفى شرارة بسيطة لاشعال الوضع المتفجر . ففى اعقاب احــداث « ايلول الاسود » بالاردن ، لجــا اكثر من مائة الف فلسطينى الى سوريا، لكن حكومة حافظ الاسد ابت ان تستقبلهم وطردتهم على الفــور صوب لبنان . وصل هذا الحشد الجديد من اللاجئين ، علاوة على الاعداد الغفيرة التى سبق أن اوفدت الى البلاد فى اعقاب حربى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ . على تدعيم الوجــود والنفوذ الفلســطينى فى لبنان . وبدا الوضع يتدهور من اثر تتبع الاسرائيليين لرجال المقاومة الفلسطينية فى جنوب لبنان ، ومن اثر الضربات المتلاحقة التى اخذوا يوجهونها ضدهم من اجل تعطيل مفعول اتفــاقات القاهرة ، وصولا الى احداث ازمة جديدة بين لبنانوالفلسطينيين. وفى يوم ١٠ ابريل عام ١٩٧٣ تصاعد الموقف حين رست جمــاعة كوماندوز اسرائيلية على احد سواحل بيروت ، وراحت تغتال

الفلسطينيين فى اربعة احياء من العاصمة . مما ادى الى تعل
ثلاثة من اهم القادة فى فتح فى شارع الفردان . حينئذ اتهم رئيس
الوزراء صائب سلام القادة العسكريين بالتواطؤ ، وامر على
استقالة القيادة العليا للجيش . وفى يوم ١٢ ابريل ، شارك
نحو ...ر... شخص من اللبنانيين والفلسطينيين فى تشييع
جنازاتهم . وغداة ذلك مباشرة ، قابل الرئيس ياسر عرفات
الرئيس فرانجية وطلب منه ان يكفل الامن للاجئين الفلسطينيين
المقيمين فى لبنان عامة ، والذين يعيشون فى داخل المعسكرات
خاصة . وهنا ارتكب فرانجيه غلطة جسيمة حين وافق لعرفات ،
اعتقادا منه ان الجيش اللبنانى لا يعتمد عليه فى القيام بهذه
المسئولية ان يكون بوليسا خاصا من رجاله يسهر على مهمة
الدفاع عن امن ذويهم .

هكذا قامت منظمة التحرير الفلسطينية ، بفضل مباركة رئيس
الدولة اللبنانى ، بانشاء جهازا امنى منفصل عن البوليس اللبنانى،
اخذ يزداد اهمية ، ونفوذا على مر الايام نتيجة لنظام وتجانس
رجاله فى الوقت الذى بدات الدولة اللبنانية تمضى فى مسيرة
طويلة نحو انهيارها .

وشيئا فشيئا ، بدات الاحتكاكات تحدث بصفة دورية
بين القوات الفلسطينية والميليشيات المتطرفة المسيحية واحيانا
حتى بينها وبين الجيش اللبنانى نفسه . وازاء ذلك دارت لقاءات
عديدة بين الرئيسين فرانجية وعرفات فى محاولة لوضع حد لهذه
الاحداث ، لكن العلاقات بينهما تسممت وفسدت بمجرد ما اصبحت
المقاومة تشكل قوة فعالة على الصعيد الدولى . وبعد مؤتمر
القمة العربى الذى انعقد فى الرباط عام ١٩٧٤ ، اعترف
العرب جميعا بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى وحيد
للشعب الفلسطينى وبدا ياسر عرفات يتصرف كرئيس دولة حقيقى،
وشعر بعض اللبنانيين ان الفلسطينيين ما عادوا الشعب

المنكسر الذى كان يمدهم بالأيدى العاملة الزهيدة ،
بل اصبح يشكل ثمة قوة سياسية . وفى هذا البلد الذى ينخره
التعصب الطائفى ، حيث يطلب من كل مواطن ان يثبت ديانته
ببيانات ببطاقته الشخصية . وحيث تخضع الوظائف للمعيار
الدينى دون غيره من المعايير ، بدا القلق يستولى على المسيحيين
(وخاصة طائفة الموارنة) الذين كانوا يحتلون المراكز القيادية
التى تسلموا زمامها من الدولة المنتدبة ، والذين كانوا يعلمون
يقينا انهم ما عادوا يشكلون اغلبية من سنوات طويلة ، ازاء
تزايد الوجود الفلسطينى الذين كان ٧٥٪ منهم من المسلمين .
وبالاضافة لذلك ففى هذه الدولة الضعيفة حيث كانت الوحدة
الوطنية تقل اهمية عن التحزب للطائفة او الملة (الموارنة ،
الدروز الشيعة ، الكاثوليك ، الارمن ، السنة..)فسر وجود جالية
فلسطينية نشطة بمثابة خطر على البلاد على الرغم من ان
الفلسطينيين ما طرا ببالهم فكرة الاستقرار النهائى فى لبنان
والواقع انهم كانوا يقيمون فى افقر قطاعاتها (فى جنوب لبنان
او فى ضواحى بيروت البعيدة ..) حيث كانوا يشاركون اللبنانيين
البسطاء فى نظام معيشتهم مسيحيين كانوا او مسلمين .

وسرعان ما فطن الاسرائيليون للفائدة التى يمكنهم ان
يحصلوا عليها من وراء المخاوف التى اعترت بعض المسيحيين
اللبنانيين بسبب الفلسطينيين ، فقرروا احياء فكرة تقسيم
لبنان القديمة فى النفوس ، تلك الفكرة التى سبق ان استاثرت
باهتمام بن جوريون . وكانت الظروف تعمل فى صالحهم منذ ان
عين فى الخارجية الامريكية رجل كان يؤمن بشدة بهذا المشروع
وبالفعل صرح الرئيس سليمان فرانجيه فى وقت لاحق انه تباحث
مع هنرى كيسنجر فى عام ١٩٧٤ ، وخرج من جلسته معه وهو
مقتنع بان وزير الخارجية الامريكى كان لديه خطة كاملة عن تقسيم

لبنان(١) وكان كيسنجر يريد ان يكرر فى لبنان ما قام به فى قبرص فى يوليو عام ١٩٧٤ ، والذى اسفر عن انقسام الجزيرة الى منطقتين احداهما مستقلة والثانية احتلها الاتراك .

وكان آخر شق فى هذا المخطط هو اقناع الرئيس الاسد بالتيسير له . وتولى كيسنجر هذه المهمة ووعد قادة دمشق بانه سيعوضهم عن خسارة الجولان بجزء من لبنان شريطة ان يتعهد الاسد بعدم المطالبة بتحرير مرتفعات الجولان . ويقول اده فى هذا الصدد « ان كل شىء يجرى كما لو كان كيسنجر قال للاسد : « احتفظ بعكار وطرابلس وسهل البقاع ، وتخلى عن الجولان لاسرائيل » ويضيف مؤكدا ان خطة التقسيم وضعت منذ هذه الفترة . وبناء على هذه الخطة (٢) تتبع سوريا منطقتى شمال لبنان وسهل البقاع ، ويحكم الموارنة فى الرقعة الممتدة من زغرتا فى الشمال الغربى الى جونيه فى الجنوب الغربى ، ومن جبال لبنان فى الشمال الشرقى الى زحله فى الجنوب الشرقى بينما يحتل الاسرائيليون بأنفسهم او عن طريق الميليشيات المتعاونة معهم جنوب لبنان حتى نهر الليطانى ، وتعلن بيروت مدينة حرة او ربما عاصمة اتحادية . ومثل هذه العملية تحتاج ان تسبقها عملية آخرى لتحطيم القوات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية من ناحية والقوات التقدمية اللبنانية من ناحية اخرى . هكذا كان الوضع بالضبط فى بداية عام ١٩٨٤ .

---

(١) هذا ما يوضح تراخى الاحتجاجات السورية عندما اعلن الاسرائيليون ضم الجولان فى شهر ديسمبر عام ١٩٨١ .

(٢) نشرها ريمون اده فى مجلة مونداى مورننج فى ٥ يوليو ١٩٧٦ .

وبما ان الخطة موجودة ، فلم يكن يبقى سوى التنفيذ وعلى هذا الاساس بدات الاتصالات تتم بين الاسرائيليين وزعيمى اهم الميليشيات المارونية : شمعون والجميل ولا يبدو ان سليمان فرانجيه قد ابلغ بذلك . وبدات الاسلحة الاسرائيلية تصل سرا الى ميناء جونية وراح القادة العسكريون الموارنة يتابعون دورات تدريبية حول كيفية استعمالها فى اسرائيل ، ودارت اتصالات اخرى بين زعماء الميليشيات المارونية وحافظ الاسد . وكان كرم بكرادونى هو المكلف بتنسيق العمليات مع دمشق . اما العملية ككل فكان يباشرها كيسنجر الذى وجد فيها طريقة للتخلص من منظمة التحرير الفلسطينية التى قويت واستقلت بحيث اصبحت على حد تقديره هى العائق الرئيسى فى وجه سياسته فى الشرق الاوسط . وهكذا بدات الاله الجهنمية دورانها .

فى يناير عام ١٩٧٥ ، طالب اهم زعيمين مارونيين متطرفين بيير الجميل وكميل شمعون ، بتنظيم استفتاء حول الوجود الفلسطينى فى لبنان . ونظم اللبنانيون مسيرات تايد للفلسطينيين فى كل انحاء البلاد ، وفى صيدا انضمت المسيرة مع مسيرة الصيادين الذين تظاهروا ليحتجوا على شركات شمعون التى كانت تهدد مصالحهم . وفى هذه الاثناء قتل النائب معروف سعده .

وردا على هذا الاغتيال ، نظم انصار سعده بالاشتراك مع الحركة الوطنية اللبنانية مظاهرات احتجاج ابتداء من اول مارس . واتهم اليسار الجيش بانه هيا الجو لقتل نائب صيدا . وتصاعد التوتر فجاة حين قررت الميليشيات الكتائبية والشمعونية ان تدخل فى المعركة ضد الحركة الوطنية وازداد التوتر وطأة وعنفا بسبب الصراع القديم الذى كان قائما بين اليسار اللبنانى والوطنيين العرب (الناصريين) وبين شمعون منذ ان استدعى

هذا الاخير مشاة البحرية الامريكيين فى عام ١٩٥٨ ليحمى كرسيه
فى الحكم .

وطرا فيما بعد حدث آخر زاد الموقف اشتعالا . ففى يوم
١٣ ابريل عام ١٩٧٥ : كانت احدى الشاحنات تقل اطفالا
فلسطينيين ولبنانيين ، تتجه من معسكر صبرا بجنوب بيروت
الغربية ، الى معسكر تل الزعتر الفلسطينى فى القطاع الشرقى
من بيروت . ولما وصلت السيارة الى حى عين الرمانة المسيحى
طوقتها الميليشيات الكتائبية وفتحت نيران رشاشاتها على
الاطفال . لكن التحقيق الذى اعلنت الحكومة رسميا عن نتائجه
اتصف بالماطلة الشديدة . واحتجاجا على هذا التراخى ، قدم
رشيد الصلح رئيس الوزراء فى ذلك الحين استقالته بعد ما
صرح بقوله . « من الواضح ان حزب الكتائب مسئول مسئولية
كاملة عن المذبحة وما نتج عنها من عواقب » وكان اولى هذه
النتائج هو .. اندلاع الحرب .

وابتداء من هذه الفترة ، تنبه ريمون اده الى ضرورة فضح
(المؤامرة) التى تدبر (ضد لبنان) وبعدها ببضعة شهور ادلى
فى حديث له مع صحيفة لوموند الفرنسية الصادرة يوم ١٦ ديسمبر
١٩٧٥ بقوله : « مازلت اؤكد اننا الآن بصدد مخطط امريكى يستهدف
تقسيم لبنان .. ويرمى الى اقامة عدة دول ذات طابع طائفى ،
بالقرب من اسرائيل ، ستكون بمثابة مناطق عازلة او صمامات امان
لكفالة الأمن للدولة اليهودية .. وفى هذه الحالة ، يبدو لى بديهيا
ان المتطرفين المسيحيين المؤيدين لفكرة تقسيم لبنان ، شأنهم فى ذلك
شأن الاسرائيليين ، متواطئون مع بعض الأجهزة الامريكية » .

وخرج المسئول اللبنانى بالخلاصة الآتية : « ان المتطرفين
المارونيين وقعوا فى لعبة التقسيم التى نسجها كيسنجر ربما عن جشع
او عن طمع او ربما بمنتهى البساطة عن سذاجة فقط وذلك عندما
راحوا يستعينون تارة بسوريا ، وتارة باسرائيل واخذوا ـ يشيعون

فى العالم ان هناك ثمة خطرا بتهدد المسيحيين فى الوقت الذى كانت
فيه سياستهم هى الخطر الحقيقى عليهم » (١) .

والواقع ان الشلل الذى اصاب المؤسسات اللبنانية فى اوائل
السبعينات ، والدور البالغ الخطورة الذى لعبته الاقلية المسيحية
داخل هذه المؤسسات ، وايضا الزيادة السكانية هذه العوامل
مضافة الى الظروف المحلية الأخرى (اللعبة الاسرائيلية ، والوجود
الفلسطينى ، ودور سوريا) عملت جميعا لتهيئة جو الازمة فى البلاد .
وازاء الدسائس الاسرائيلية ـ الامريكية التى استشعرتها ، واشتداد
الميليشيات المارونية المتطرفة ، طالبت القوات التقدمية المتجمعة
فى داخل الحركة الوطنية ببعض الاصلاحات من اجل مزيد
من الديمقراطية فى النظام ، ومن اجل الغاء الطائفية ، واجراء
استفتاء شعبى وتوسيع قاعدة الحريات العامة . وفى هذا الصدد
كتب صحفى معتدل يقول : « ان معاهدة عام ١٩٤٣ القديمة بدا يسدل
عليها الستار ، وحان الوقت لنعيد تحديد القواعد التى ستقوم عليها
بلدنا على أسس متينة « والا فسوف ينهار كل شىء » . بيد ان واقعة
عين الرمانة استقطبت الاهتمام وارجأت هذه العملية فى المقام الثانى .
وبدات الاحزاب التقدمية تضم صفوفها الى جانب الفلسطينيين ،
وأخذت الجبهة اللبنانية تحلم بأخذ مكان الحكومة العاجزة بينما وقفت
كل من سوريا واسرائيل تترقب لحظة تدخلها فى الاحداث وفى نفس
الوقت كان كلاهما يحرض الكتائب وشمعون على الاستمرار
فى التشدد . وانقسمت البلاد الى معسكرين متضادين .

فمن جانب تكتل اللبنانيون التقدميون فى داخل الحركة الوطنية
اللبنانية التى جمعت الاحزاب والمنظمات اليسارية الناصرية
والوطنية : فيما عدا التابعة منها للنظام السورى ، (البعث الموالى
لسوريا ، واتحاد قوى الشعب العاملة ، وجماعة من الحزب

(١) حديث مع الكاتب .

الوطنى الاجتماعى السورى الذى يراسه الياس قنيوه) اما الحركة الوطنية فقد ضمت الحزب الاشتراكى التقدمى التابع لرئاسة الزعيم الدرزى كمال جمبلاط ، وحــزب البعث الشرعى التابع لرئاسة نائب طرابلس عبد المجيد الرافعى ، والحزب الوطنى الاجتماعى السورى ، والجماعات الناصرية (مرابطو ابراهيم قليــلات ، والاتحاد الاشتراكى العربى) والحــزب الشيوعى لرئيسة جورج حاوى ، ومنظمة العمل الشيوعى فى لبنان لزعيمها محسن ابراهيم ، وجبهة المسيحيين الوطنيين (جبهة سليمان سليمان) . . ويوجد بين هذه المنظمات عدد كبير من المناضلين المسيحيين (فى داخل البعث وحزب المسيحيين اللبنانيين ، والحزب الوطنى الاشتراكى السورى) . اما « حركة المعدمين » التى ستصبح فيما بعد حركة امل والتى أسسها الزعيم الشيعى موسى الصدر فهى ليست جزءا من الحركة الوطنيــة ، لكنهــا ترتبط بعــلاقات وثيقة جـدا مع دمشق وابتداء من عام ١٩٧٦ ، انفصـــل موسى الصدر تمـاما عن الحركة الوطنية . وفى يوم ٢٦ يوليـــو من نفس السنة اسست هذه الاخيرة مجلسا سياسيا مركزيا رئيسه كمال جمبلاط .

ونادت الحــركة الوطنيــة اللبنـــانية ببرنامج توجـد خطوطه العريضــة فى بيــان ١٨ أغسطس عام ١٩٧٥ : الغـاء الطائفية من الحياة العامة والسياسية فى البلاد ، واتباع قانـون انتخـابى جديد تراعى فيـه النسب ، أعاده تنظيم هيكل النظـام الادارى فى الدولة ، وكـذلك تنظيم الجيش ليصبح جيشا وطنيـا مسئولا عن الدفاع عن القضايا العربية ، وتنمية الحريات العـامة والديمقراطية . كما نادت الحـركة بانتخـاب جمعية تاسيسية ، لتتولى مهمة « بدء الحوار الوطنى واقتراح الاصـلاحات العميقة الجـذور » .

وفى يوم ٢٨ يونيه عام ١٩٧٧ ، حددت الحركة الوطنيــة موقفها بعدة نقاط جديدة مثل :

ـ الابقاء على وحدة لبنان باستعادة الدولة لكيانها وسيادتها ، وحل الميليشيات الخاصــة .

ـ اعادة التوازن فى النظام السياسى عن طريق اعادة تقسيم اكثر عدلا للسلطات بين الطوائف المختلفة ومنح مزيد من السلطات لرئيس الوزراء (المســلم واعادة التــوازن فى داخــل الجيش والبرلمان .

ـ حمـاية عروبة لبنان وتقديم مساندة نشــطة للمقاومــة الفلســطينية .

وفى مواجهة الحركة الوطنية وقفت الجبهة اللبنـــانية التى اعلنت الاحزاب المارونية المتطرفة عن نشاتها فى مارس عام ١٩٧٦ وضمت هذه الاحزاب كتائب « بيير الجميل والحزب الوطنى الليبرالى لكميل شمعون ، وجماعة الرئيس سليمان فرنجية ، ورهبان الأب شاربل قسيس الذين يكونون اكثر الميليشيات تشددا المعروفة باسم « حراس الأرز » والتى سلك بعض اعضائها سلوكا متميزا اثناء محاصرة تل الزعتر حين علقوا رؤوس ضحاياهم الفلسطينيين على اسقف سياراتهم .

وكونت الجبهة اللبنانية قيادة عسكرية اوكلت مسئوليتهــا لبشير الجميل ، الابن الثانى لبيير الجميل الذى اصبح فى اغسطس عام ١٩٧٦ القائد الاعلى للقيادة الموحدة للقوات اللبنانية وبدا يعمل من اجل تقليل نفوذ الاحزاب الاخرى بكافة الوسائل . وبعد التصفية التى وقعت فى شهر يونية عام ١٩٧٨ والتى راح ضــحيتها كل من تونى فرانجية(نجل الرئيس سليمان فرانجيه)وزوجته وابناؤه ونحو ثلاثين شخصا اخرين من اصدقائه ، والمذبحة التى اودت بحيــاة مائتى شخص من الشمعونيين فى « صفرا » فى ٧ يوليو عام ١٩٨٠ اصبح بشير الجميل الزعيم بدون منازع للقطاع المارونى حيث يفرض عليه دكتاتورية عسكرية شاملة .

ويؤكد خصومه ان تمويل وتسليح الجبهة يتم بواسطة الامريكيين واسرائيل . والحقيقة ان كيسنجر نجح ، حين وعد مسئولى الجبهه بمساعدة الولايات المتحدة ، فى دفع رؤسائها الى تشديد مواقفهم الى اقصى حد .

كما اتهمت الجبهة اللبنانية ايضا بالحصول على معونة من شاه ايران ، وليس هناك شك ان اقرب زعماء الشيعة اتصالا بطهران (وخاصة موسى الصدر) لم يقطعوا صلاتهم ابدا مع اليمين المتطرف المارونى . وكما يقول احد محررى صحيفة « لوريان » : ينبغى الا ننسى ان اهم موارد الجبهة كانت تتحقق نتيجة صفقات بيع الحشيش المهرب عن طريق اسرائيل او قبرص . وقد بدا فادى فريم ، الزعيم العسكرى الحالى للكتائب ، بالاتصال باسرائيل ، لتسهيل عملية اتجاره فى المخدرات وتهريبها قبل ان يقيم معهم تحالفا سياسيا وعسكريا ، ذلك التحالف الذى ادى الى التنسيق المشترك بينهما لحصار بيروت خلال صيف عام ١٩٨٢ »(١) .

اما برنامج الجبهة اللبنانية فانه يتلخص فى فكرتين : حماية النظام السياسى الذى ارسى سيطرة طـــائفية الموارنة ، ونبذ الوجود الفلسطينى فى لبنان والعمل بكل الوسائل من اجل القضاء عليه . وفى حالة تعذر الابقاء على النظام القديم الذى خلفه الاستعمار ، والاضطرار الى اعادة النظر فى المؤسسات القائمة لادخال مزيد من التوازن فيها لصالح الاغلبية المسلمة الموجودة فى البلاد ، اعلنت الجبهة اللبنانية ابتداء من ٣١ ديسمبر عام ١٩٧٥ انها « لا تستبعد فكرة تقسيم البلاد » . فى حين اكتفى بيير الجميل بوامز من الحذر ، بالحديث عن الود فى ظل الاختلاف . وبالتدريج بدات فكرة التقسيم تشق طريقها ليفرح كيسنجر والاسرائيليون الذين كانوا يحلمون بتجزئة النظام الى عدة دول عربيـــة طائفية

(١) لاسباب بديهية طلب هذا الصحفى عدم ذكر اسمه .

وليغتبط كذلك حافظ الاسد الذى كان يعتقد ان التقســـيم سيمنحه جزءا من هذا البلد . ولقد قامت الجبهـــة اللبنانيـــة منذ لحظة تاسيسها بحركة دعـــاية بالنســـبة للعـــالم الخارجى فاكدت انها تعمل على حماية القيم الحقيقية للبنـــان » . وعلى هذا الاساس اخذت تعترض على جميع الافكار الاصـــلاحية المقترحة بما فيها افكار فرانجيـــة التى كان من شانها التاثير على الوضع ، وعند الحاجة الاعتماد على اى حليف كان (سوريا ، اسرائيل أو الولايات المتحدة) للوصول الى التقسيم اذا فشلت فى ان تحكم لبنـــان .

وفيما بين هاتين القوتين المتعارضتين حاولت بعض التشكيلات المعتدلة ان تحـــول دون تصـــدع الوحدة اللبنانية وتفادى الحـــرب الأهلية . وهنا يجدر ملاحظة ان عددا كبيرا من المسيحيين استنكروا تصرفات الجبهة اللبنانية مثل طائفة الأورثوذوكس التى نادت دائما بفكرة الحوار مع المسلمين وطائفة الكاثوليك ، وأيضا عدد كبير من الموارنة الذين ابدوا ثمـــة تحفظات حـــول حنكة وكفاءة مؤســـسى هذه الجبهة الأربعة من الناحيـــة السياسية وهم الجميل وشمعون وفرانجية وتسيس واكثر هؤلاء الموارنة فطنه كان بدون شـــك ريمون اده رئيس الكتلة الوطنية ، الذى ادرك ان مناورات الجبهة الوطنية لايمكن أن تؤدى فى النهاية الا الى اللعبـــة التى يســـتهدف البعض من ورائها تحطيم الوحدة فى لبنان ، مثل اسرائيل والولايات المتحدة من ناحية وسوريا وحافظ الأسد من ناحية اخرى واشار نائب الجبل بمرارة فى يناير عام ١٩٨٤ « ان مخططى الجبهة الوطنية اللبنانية ضلوا وما عادوا يعرفون لمن يلجأون بعد ما استنجدوا بالسوريين ثم بالاسرائيليين واخيرا بالامريكيين » . ولقد وقع الضرر بالفعل .

واندلعت الاشتباكات فى اغسطس عـــام ١٩٧٥ ، وتفاقمت بسرعة . وفى اكتوبر عام ١٩٧٥ ، اشتعلت المعارك فى دور فنادق

العاصمة ، وفى ٦ ديسمبر ، قضت الميليشيات على مائتى مسلم فى ضواحى العاصمة ، وفى ٨ ديسمبر ، شنت القوات التقدمية هجوما واسع النطاق ادى الى انشقاق العاصمة الى شطرين وفى ١٨ يناير عام ١٩٧٦ حاصرت القوات الكتائبية معسكرا فلسطينيا صغيرا بالقطاع الشمالى (المسيحى) من بيروت ، يقع فى حى الاربعين ، وقتلوا نحو ٢٠٠ر١ مدنى . وفى ٢٠ يناير رد التقدميون والفلسطينيين على هذه العملية بان حاصروا مقاطعة دامور المسيحية ، وكميل شمعون الذى طوق داخل مقره بالسعديات ولم ينج من هذا الحصار الا بتدخل عرفات . وفى هذا التاريخ بعثت سوريا الى لبنان بجيش تحرير فلسطين « كفرع من الجيش السورى » ــ بموجب اتفاق سابق مع كل من واشنطن واسرائيل . ورغم هذا بدا من الواضح ان الحركة الوطنيــة اللبنانية المتحالفة مــع الفلسطينيين تستطيع ان تحرز انتصارات من شانها ان تؤدى الى تغيير ملموس فى مؤسسات الدولة اللبنانية على حساب الطبقة المارونية الحاكمة وتفكك الجيش اللبنانى الى عدد من الطوائف ،وانضم الملازم المسلم «الخطيب »(١) الى الحركة الوطنية بعد أن شكل جيشا جمع نحو الفين اطلق عليه اسم جيش التحرير العربى . وتخلى عدد آخر من الضباط عن وضعهم فى الجيش ، ولوضع حــد لتدهور الأوضاع فى الدولة ، قام اللواء المسلم عزيز احدب بمحاولة انقلاب فى بيروت فى يوم ١١ مارس عام ١٩٧٦ لكن الجيش ابى ان يتبعه فى هذه المحاولة . ورات الجبهة اللبنانية من جانبها ان الاحداث التى تجرى تستلزم استدعاء السوريين . وفى يوم ١٦ مارس ، توجه اثنان من قادة الكتائب هما : كريم بقرادونى وجورج سعده لمقابلة الرئيس الاسد الذى اعطاهم كافة الضمانات المنشودة . وبالفعل كان الاسد حسب ما ذكر المراقب

---

(١) تم القبض عليه بواسطة السوريين فى يناير عام ١٩٧٧ واستبدل بمحمد سليم الذى ابدى تعاطفا اكثر مع سياسة دمشق .

السياسى الامريكى جوناثان راندال ، اول من تفاعل مع هذا النداء : « ففى يوم ٢٢ يناير عام ١٩٧٦ ، بناء على اتفاق سابق مع اسرائيل بمباركة الولايات المتحدة الامريكية ،ارسل السوريون حملة الى بيروت شملت القوات النظامية لجيش تحرير فلسطين ،الخاضعة لاشرافهم وتحت الحاح الجانب الامريكى ، بدا دخول العسكريين السوريين فى لبنان ينفذ ابتداء من يناير عام ١٩٧٦ ببراعة شديدة لدرجة انه استلزم مرور فترة من الزمن ليفهم التقدميون اللبنانيون ومنظمة التحرير الفلسطينية مغزى ماكان يدور حولهم » . وفى نفس الفترة ، استقبل كيسنجر وفدا اسرائيليا واعطى لهم النور الاخضر لمساعدة الميليشيات المسيحية . وكان هذا بمثابة اتفاق ثنائى بين اسرائيل وسوريا تحت اشراف عال من الامريكيين ، وبخاصة من كيسنجر وهكذا « وبمنتهى الغرابة وجد ثمة تحالف بين اسرائيل وســوريا واصبحت لهم حرية التحالف ضد الفدائيين الفلسطينيين وطيلة الجزء الاكبر من عام ١٩٧٦ ، اخذت وحدات كل من الأسطول الاسرائيلى والاسطول الســورى تقوم بدوريات فى مختلف قطاعات الســاحل اللبنانى لتحرم الفلسطينيين من اى فرصة للتزود بالمؤن والذخيرة اثناء حصار تل الزعتر وفى نفس الوقت لم تتوان اى منهما فى توفير السلاح والذخيرة للميليشيات المسيحية » . وسوف تتكرر فى وقت لاحق ، اى بعد بضع سنوات ، صورة طبق الأصل من هذه الدسيسة التى دبرها كيسنجر ، وذلك اثناء تطويق مركز منظمة التحرير الفلسطينية فى طرابلس .

واثر اللقاء الذى دار بين الاسد وقادة الكتائب فى شهر مارس عام ١٩٧٦ ، اقتنع الرئيس السورى أن الساعة قد حانت لتدخله بصفة رسمية فى لبنان . وكانت الاوضاع الآخذة فى التفاقم تهيىء الجو لاطماعه . حيث أضطر الرئيس سليمان فرنجيه ، صديقه الحميم ان يلوذ بالفرار من مقر الرئاسة بقصر بعبدا ، وانقسمت بيروت الى قطاع تقدمى (فى الغرب) وآخر فى قبضة الميليشيات المارونية (فى الشرق) ، واشرفت البــلاد على الانفجار والتمزق

وكان يمكن ان يتغلب ، فى النهاية ، التقدميون المتحالفون مع منظمة التحرير الفلسطينية . وهو الامــــر الذى لم يكن من الممكن أن يتحمله لا الاسد ، ولا واشنطن ، ولا الاسرائيليون .

ففى يوم ٣١ مارس بادر انصار دمشق بالهجوم ، واعتبروا جمبلاط « خائنا » واكدوا أن الحركة الوطنية هى « جماعة ماجورة » وفى اليوم الاول من ابريل ، وجهت سوريا انذارا اخيرا لوضع حد للمعارك . وفى يوم ١٢ ابريل تمركزت قوات الصاعقة على طريق بيروت ــ دمشق ، وهو اكبر محور استراتيجى فى لبنان ، فى مواجهة قوات الحركة الوطنية اللبنانية التى قال عنهم الاسد انهم « من تجار الثورة والتقدمية » وبدءا من هذه اللحظة بدا الرئيس الاسد ، الذى عثر اخيرا على سبب وجيه للتدخل فى لبنان وضد المقاومة الفلسطينية ، على اتم استعداد لتجاوز هذه المرحلة الى المرحلة التالية . ومع حلول شهر مايو ، عرفت البلاد ثمة هدنة ، حيث انصب اهتمام الجميع حول المعركة الانتخابية من اجل اختيار رئيس للجمهورية ، وأعلن رشيد كرامى رئيس الوزراء ، نبأ ترشيح الياس سركيس لهذا المنصب ، فى حين ردت عليه الكتلة الوطنية بأن رشحت ريمون اده وحظى الياس سركيس بمساندة الجميل والجبهة اللبنانية ، كما حظى ايضا بمساندة المبعوث الامريكى دين براون وراحت سوريا تعضده بدورها ، وحتى يحصل على النصاب المطلوب (تصويت ٧٠ نائبا من ٩٩ فى صفه) نلقد حمل ناخبو غرب بيروت « تحت الحراسة » حتى مكان الاقتراع وبهذه الطريقة تم انتخاب الياس سركيس يوم ٨ مايو . وقد اكدت المعارضة « أن جميع الاساليب اتبعت من اجل دفع النواب الى التصويت من اجل رئيس تم تحديده مقدما » .

ومنذ توليته ، على الرغم من أن مدة تفويض الرئيس فرانجيه ماكانت ستنتهى قبل شهر سبتمبر ، حاول الرئيس سركيس اجراء مصالحة بين الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية والسوريين ،

بيد ان الوضع اخذ يتدهور بسرعة مذهلة عندما تعرض خصوم سوريا لسلسلة من الاعتداءات والاغتيالات . ونجا ريمون اده باعجوبة من المحاولة التى استهدفته ولكن شقيقة كمال جمبلاط لقيت حتفها ضمن ضحايا الاعتداءات .

وشكل يوم ٣١ مايو نقطة تحول جوهرية فى الوضع . ففى هذا اليوم قررت دمشق ان تتدخل رسميا فى لبنان . وعبر ٢٠٠٠ جندى سورى الحدود فى اعقاب مناورة زائفة لجيش لبنان العربى (الوثيق الصلة بالحركة الوطنية) . وفى اليوم الاول من يونيه دخل ٤٠٠٠ رجل آخرين وبصحبتهم طابورا مدرعا قوامه ٢٥٠ دبابة فى سهل البقاع مما اثار سخط واستنكار قطاع كبير من اللبنانيين ودعا ريمون اده المواطنين اللبنانيين (للمقاومة) واعلنت الحركة الوطنية عن بدء اضراب عام فى البلاد ، وطلبت تدخل جامعة الدول العربية . اما الجبهة اللبنانية فقد التزمت وحدها بالصمت ، وفى يوم ٥ يونيه اعطى المسئولون الموارنة مساندة كاملة للتدخل السورى الذى شعر من أن وجوده اصبح « مشروعا » فى البلاد بعد ما اقرته احدى الطوائف السياسية اللبنانية ووافقت عليه ضمنا الحكومة الشرعية فى البلاد وبخاصة الرئيس فرنجيه الذى كان لا يزال يباشر مهام منصبه لحين بداية فترة ولاية الياس سركيس ..

وفى بيروت شن مناضلو الحركة الوطنية اللبنانية بعض العمليات الوقائية ضد الجماعات الموالية لسوريا امثال الصاعقة واتحاد قوى الشعب العامل .. وفى صيدا ابيد طابور مدرع سورى على يد القوات المشتركة التابعة للحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية . وفى صوفر (طريق بيروت ــ دمشق) ارغمت القوات السورية على التقهقر وردا على ذلك فرض الجيش السورى حظرا غذائيا على العاصمة بيروت .

ولوضع حد لهذه الاشتباكات التى هددت بالتفاقم فى اى لحظة اجتمع مجلس وزراى عربى فى القاهرة ، وقرر وقف اطلاق النار

مورا ، وارسال قوات سلام عربية بدلا من القوات السورية . لكن الجبهة اللبنانية رفضت قرارات الجامعة العربية ، فى الوقت الذى واصلت فيه هذه الاخيرة المهمة التى اخذتها على عاتقها للتوفيق بين الأطراف المتصارعة فى لبنان ، وتكلفت بعض الدول (الجزائر وليبيا) للضغط على اهم الاطراف المعنية فى هذه المشكلة — اى الحكومة السورية — وفى منتصف شهر يونية ، بدا ان جميع الأطراف وافقت على صيغة الاتفاق المقترح الذى استهدف فك ارتباط تدريجى للقوات السورية لتحل محلها فرق قوة السلام العربية . وفى هذا الوقت بالذات ، اغتيل فرانسوا مللوى السفير الامريكى لدى لبنان على يد المنشقين الفلسطينيين الموالين لسوريا . وقامت منظمة التحرير الفلسطينية بالتحقيق فى هذا الصدد وتمكنت بمقتضاه من القاء القبض على القتلة لكن الامريكيين صمموا على ترحيل رعاياهم على الفور . فغادر هؤلاء لبنان على متن سفن الاسطول السادس الامريكى تحت رعاية منظمة التحرير الفلسطينية ومتحينا فرصة هذه الفوضى عين الرئيس فرانجيه كميل شمعون فى منصب وزير الخارجية والخطة والتعليم ونائب لرئيس الوزراء . وشكل هذا الاجراء استفزازا صريحا لقوى المعارضة وبخاصة الجالية الاسلامية التى بدات تتحدث عن « محاولة للتقسيم » . وبادر رئيس الوزراء كرامى باخطار كل من سكرتير عام الامم المتحدة وجامعة الدول العربية مطالبا باعتبار القرار الرئاسى لاغيا .

وفى ظل هذا السياق الحافل بالتوترات ، وصلت اولى فرق قوات السلام العربية الى بيروت ، ولكن سرعان ماتكشف السراب: فبدلا من الـ ٥ر٥٠٠ جندى المتفق عليهم ، لم يصل غير الف جندى فقط تحت قيادة احد اللواءات المصريين وشمل هذا العدد ايضا نحو ٥٠٠ جندى سورى . ومن ناحية فان الميليشيات المسيحية لم تتأثر بوصول هذه القوة ، بل خططت لهجوم واسع ضد معسكرين فلسطينيين يقعان فى القطاع المسيحى هما معسكر جسر الباشا ،

وتل الزعتر والذى يقطنهما اساسا حشد غفير من الفلسطينيين المسيحيين .

وفى يوم ٢٢ يونيه بدا الهجوم الذى وقفت تتصدى له القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة ، وكان هدف الجبهة اللبنانية هو حث سوريا على معاودة التدخل . ولقد ادى سقوط معسكر جسر الباشا تحت وطأة هذا الهجوم الى فشل المفاوضات التى كانت تجرى فى ذلك الوقت تحت كنف جامعة الدول العربية . ولم يعد اى طرف يستمع لنداءات وقف اطلاق النار الموجهة للمتحاربين من قبل جامعة الدول العربية والجماعات المعتدلة وبخاصة من قبل جبهة الوحدة الوطنية التى كانت تجمع بعض كبار الشخصيات المسيحية والاسلامية امثال ريمون اده، ورشيد كرامى، وصائب سلام

واستمرت عمليات حصار وقصف معسكر تل الزعتر ، واتهم كمال جمبلاط الجيش السورى بمساعدة الكتائب والاشتراك فى عمليات القذف . ورغم زيارات المكوك التى اجراها القادة الفلسطينيون فى دمشق امتنع النظام السورى عن قبول اى فكرة حل وسط طرحت عليه .

وسقط معسكر تل الزعتر فى يوم ١٢ اغسطس فى اعقاب الحصار الذى ضرب حوله لمدة اثنين وخمسين يوما متصلة واعلنت الحركة الوطنية اللبنانية : « ان اى تفاوض مع الكتائب والنظام السورى أصبح مستحيلا الآن » .

وفى يوم ٣١ اغسطس ذهب الرئيس سركيس ، الذى كان من المقرر ان يبدأ فترة ولايته فى يوم ٢٣ سبتمبر ، الى دمشق ليقابل حافظ الاسد . وفى يوم ٢٣ سبتمبر حلف الرئيس المنتخب اليمين الدستورية فى شتورة تحت حماية الدبابات السورية . وبعد خمسة ايام فقط من توليته ، شنت قوات الجيش السورى هجوما واسع النطاق ضد قوات منظمة التحرير الفلسطينية وقوات الحركة الوطنية

البنانية فى منطقة جبال المتن . ووفقا لتنسيق سابق ، قامت القوات
اللبنانية (الميليشيات المسيحية) بدورها بشن هجمة مماثلة
عالية وقضى هذا الهجوم المزدوج نهائيا على كل امل للعثور صوب
سياسى للازمة اللبنانية .وفى القاهرة التقى كمال جمبلاط على حل
السادات وطلب منه ان يطالب بعقد مؤتمر قمة عربى مع الرئيس
السرعة .. واجرت فرنسا من جانبها ثمة اتصالات على وجه
الاسد وسركيس ، لتحثهما على معاودة العمل من اجل مع الرئيسين
السلام فى لبنان . ورد الاسد بانه لن يوقف تدخله اقرار عملية
الحل الشامل للمشكلة اللبنانية لكنه لم يحدد ما هو حتى يتحقق
الحل . وفى يوم ١٣ اكتوبر شن هجوما ثانيا فى مفهومه لهذا
لكن المملكة العربية السعودية تدخلت بدورها الجنوب اللبنانى،
— المتنازعة لحضور مؤتمر قمة محدود فى ودعت الاطراف
فامر الاسد بوقف اطلاق النار واتجه الى الرياض يوم ١٥ اكتوبر
كان الرؤساء سركيس والسادات وعرفات قد العاصمة السعودية حيث
وتوصلت قمة الرياض التى انتهت فى ١٨ سبقوه اليها ،
سلسلة من القرارات بوقف المعارك على اكتوبر عام ١٩٧٦ الى
العربية بقوة ردع عربية قوامها ٣٠،٠٠٠ الفور واستبدال قوة السلام
الرئيس اللبنانى . وكانت هذه القمة رجل تخضع لاوامر
الجانبين السورى والفلسطينى . وبعد علامة على المصالحة بين
قمة موسع فى القاهرة من اجل التصديق اسبوع واحد ، عقد مؤتمر
التوصل اليه فى الرياض وتقرر انشاء على التفاهم الذى تم
الردع العربية التى سيتم تجديد صندوق خاص لتمويل قوة
الرئيس اللبنانى غير ذلك . ولكن مدتها كل ستة اشهر الا اذا راى —
ستتكون منه هذه القوة ، وفى راى احدا لم يحاول الاستفسار عمن
ان الرئيس السورى قد عثر على ريمون اده انه قد « ظهر بوضوح
لبنان » . حل يتيح تمويل وجود قواته فى

وبالفعل من الـ ٣٠،٠٠٠ رجل المشتركين فى قوة الردع
العربية كان بوجد نحو ٢٥،٠٠٠ جندى سورى ، والف جندى

سودانى والف سعودى ، و ٢٠٠ر١ من الامارات ونحو الف جندى
يمنى . وعين الرئيس اللبنانى العقيد احمد الحاج (١) ليشمل هذه
القيادة الرمزية لجيش تحول فى نهاية الامر الى جيش سورى صرف
يستطيع ان ينتقل بمنتهى الحرية من سهل البقاع الى المتن والى جميع
الضواحى البيروتية . وقد افلت النائب ريمون اده الذى ندد بهذا
اللون الجديد من التدخل السورى باعجوبة من محاولة لاغتياله . كما
نددت الحركة اللبنانية ايضا « بالغزو السورى الذى تم تحت ستار
قوة الردع العربية التى لم تكن عربية الا بالاسم فقط والتى لم تتمركز
الا فى المناطق التى يسيطر عليها التقدميون » . وفى يوم ١٥ نوفمبر
عام ١٩٧٦ ، قام ١٠،٠٠٠ جندى سورى تساندهم ٢٥٠ دبابة بغزو
بيروت الغربية وقطاع الميناء الجوى . وهكذا وفى اقل من السنة ،
استولت دمشق على لبنان بخطوات متتالية : فى يناير عام ١٩٧٦ ،
حين دخلت تحت ستار جيش تحرير فلسطين ثم عندما عبرت الحدود
فى يوم ٣١ مايو حصلت على شرعية وجودها تحت ستار قوة الردع
العربية فيما بين اكتوبر ونوفمبر واصبحت البلاد منذ ذلك التاريخ فى يد
الرئيس الاسد الذى لم يلق غير تشجيع من واشنطن وتل ابيب
شريطة الا يتجاوز حدا معينا سمى « الخط الاحمر » واستطاع
الرئيس سركيس كما نجح فى الحصول على قدر ادنى من تعاون
الميليشيات المسيحية معه فى حدود عدم تعرضه — لقطاعهم ، وهكذا
اصبح السيد المهيمن على قطاع بيروت الغربية حيث اضطر
الفلسطينيون والحركة الوطنية فى التعامل معه « والسيف على
الرقاب » حسب تعبيرهم . وتم اغتيال اقدر رجل يستطيع ان
يتصدى للعبة السورية ، بتعبئة اللبنانيين التقدميين ضدهم وهو
كمال جنبلاط فى يوم ١٦ مارس عام ١٩٧٧ . وقد اغلقت الصحف
المعادية لسوريا او دمرت وهذا ما حدث بالفعل لجميع الصحف
اليومية التى كانت ترحب بفكرة وجود رابطة وطنية عربية موالية

---

(١) استبدل فى اغسطس ١٩٧٧ بالعقيد الخطيب .

للفلسطينيين ، ومن بين هذه الصحف صحيفة « النداء » وصحيفة « بيروت » الناطقة بلسان حزب البعث الشرعى : وصحيفة « اليوم » لصاحبها وفيق طيبى والمعروفة بميولها الوطنية الموالية للفلسطينيين (وتم تدمير مقرها فى اغسطس عام ١٩٧٥) .. وفى صيف عام ١٩٧٧ ، وضح تماما ان الذى يتقلد الدور الرئيسى فى الازمة اللبنانية هو النظام السورى . وكان هذا بداية طريق العذاب والآلام بالنسبة للبنان .

ثم جاء الدور على اسرائيل لتوضيح نواياها . فبعد ان حصل النظام السورى على مطلبه وتعهد بعدم تجاوز الخط الاحمر ، تولى الاسرائيليون مهمة تلقين ضربات قاضية للفلسطينيين فى جنوب لبنان . وبالفعل ، فى يوم ١٤ مارس شنوا هجوما واسع النطاق بهدف « تصفية قواعد الفدائيين الموجودة على طول خط الحدود » . ولكى تكون الامور واضحة ، صدر بيان لهم يؤكد انهم لا يعتزمون مهاجمة السوريين وقوة الردع العربية . وهذا هو بالتقريب نفس سيناريو الاحداث التى وقعت فى وقت لاحق خلال صيف عام ١٩٨٢ ، ووقف الفلسطينيون مع حلفائهم اللبنانيين يواجهون بمفردهم ترسانة هائلة من مختلف الاسلحة والغارات المركزة(١) . وازاء ذلك اكتفت سوريا رغم عدد جنودها الـ ٢٥٫٠٠٠ الموجودين فى لبنان بأن طلبت من أعضاء مجلس الامن أن « يتحملوا مسئولياتهم » . وفى الحقيقة كان العراق هو البلد الوحيد الذى أرسل جنودا ووافق على تزويد الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين بمعونات مادية . وأعلنت الجزائر وليبيا ايضا عن ارسال شحنات كبيرة من الاسلحة . وعندما أمر الاسرائيليون بوقف اطلاق النار ، قدرت الخسائر بما يزيد عن ألف قتيل من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين ، ومائة وخمسين

---

(١) استخدمت القنابل العنقودية ضد الأهداف المدنية خاصة فى مدينة تير . وحتى الآثار الرومانية نفسها لم تسلم من عمليات القذف . ودمرت تحف « الموزاييك » القديمة عن عمد .

الآخرين من رجال منظمة التحرير الفلسطينية . وقيل ان الاسرائيليين خسروا نحو خمسين رجلا . واخطر نتيجة استهدفت من وراء هذا الاشتباك كانت تشريد ونزوح عشرات الآلاف من اللاجئين الى العاصمة بيروت (نحو ٢٠٠٫٠٠٠) وقد ساهم وجود هذه الحشود الجديدة المكونة فى الغالب من عناصر شيعية وفلسطينية فى تصعيد الوضع السياسى(١) .

وبالفعل اخذ هذا الوضع يتدهور بدون توقف . وفى داخل الجبهة اللبنانية ادت اطماع بشير الجميل فى رغبته الانفراد بزعامتها الى انسحاب سليمان فرانجيه منها . وفى يوم ١٣ يونيه عام ١٩٧٨ ، لقى ابنه « طونى » مصرعه هو وزوجته وابنته واثنان وثلاثون شخصا من انصاره ، على يد كتائب الجميل تحت قيادة سمير جعجع . ويجدر ان نذكر هنا بأن فرنجية كان افضل حليف لنظام دمشق فى قلب التكتل المسيحى وعلاوة على ذلك كان صديقا حميما للرئيس الاسد الذى يعضد موقفه ضد الجبهة اللبنانية التى ظلت تواصل ابتعادها عن سوريا لما ايقنت انها اخطأت عندما « دعت الذئب ليحرس الحظيرة » واصبح الشاب بشير جميل بعد تزايد نفوذه فى

---

(١) لقد ندد الجميع بالغزو الاسرائيلى باستثناء الولايات المتحدة الامريكية . فقد ادان القرار رقم ٤٢٥ لمجلس الامن العدوان وقرر تكوين قوة تتبع الامم المتحدة تتمركز فى جنوب لبنان للاشراف على عملية الانسحاب الاسرائيلية واعادة السلام والامن ومساندة الحكومة اللبنانية لاستعادة سلطاتها . وقد تمت عمليات الانسحاب الاولى للقوات الاسرائيلية فى شهر ابريل وانتهت يوم ١٣ يونيه ١٩٧٨ . ولكن الاسرائيليين لم يسلموا جميع المواقع لقوة الامم المتحدة فقد اقاموا ما اسموه « بحزام امن » يتراوح عرضه من خمس الى عشر كيلومترات فى منطقة مرج عيون وتركوه لعميل لهم هو العقيد حداد .

داخل الجبهة ، وتصفية خصومه المحرك الاول لها ، واخذ من ثم يعيد النظر فى سياسة كبار الاعيان الذين تواطاوا مع لعبة دمشق. وابتدات من شهر يناير عام ١٩٧٧ ، وبدأ يعترض على انتشار القوات السورية فى القطاعات الشرقية ، وفى ١٩٧٨ لم يتردد فى ان يطالب « بانسحاب قوات الاحتلال السورية » . وفى صيف عام ١٩٧٨ اكتملت القطيعة بين دمشق والميليشيات المسيحية ، وعلى نقيض المالوف نجد الحركة الوطنية اللبنانية تعرب عن املها فى استبقاء قوة الردع العربية ، وتضامن معها فى هذا الراى سليم الحص رئيس الوزراء الجديد وفى نفس الوقت احد الزعماء التقليديين لطائفة السنة . وفصل الرئيس سركيس الموقف فى يوم ٢٢ سبتمبر بان طلب « مد عمل فترة انتداب قوة الردع العربية فى لبنان » .

وفى شهر اكتوبر التالى ، اشتعلت المعارك بين قوة الردع العربية والميليشيات المسيحية وبخاصة التى تتبع كميل شمعون ، وعادت الاوضاع تسوء وتتفاقم من جديد . وفى الحقيقة فان جميع الشواهد دلت على ان كميل شمعون هو الذى اثار هذه القلاقل حين تاكد من وقوف اسرائيل بجانبه نتيجة للمحادثات السرية التى اجراها معها فى شهر سبتمبر ، وكان يهدف الى اعطاء الاسرائيليين الذريعة التى تبرر تدخلهم ، وحتى يعيد احياء فكرة التقسيم تحت ستار تدويل الازمة لكن هذه الخطة احبطت عندما صرح لوى دى جيرانجو وزير الخارجية الفرنسى فى مؤتمر صحفى امام المراسلين يوم ١٦ اكتوبر بقوله « ان ميليشيات كميل شمعون هى التى تتحمل كل وزر عمليات العنف التى عرفتها البلاد خلال الاسابيع الماضية .. ومن البدهى ان الميليشيات المسيحية لا يمكنها ان تامل ، فى مثل هذه الظروف فى الحصول على المساندة الدولية . واكد الوزير الفرنسى « ان الميليشيات المذكورة حصلت على دبابات من اسرائيل فى سبتمبر عام ١٩٧٨ » .

كما ادان « حلم تقسيم لبنان السخيف » واقترح لوى دى جيرانجو اعادة نشر قوات الردع العربية وارساء قوة عازلة بينها

وبين الميليشيات « ولا يخلو هذا الاقتراح من التناقض اذا اخذنا فى الاعتبار ان قوة الردع العربية هى ، نظريا ، « قوة عازلة » وهكذا جمعت المشكلة اللبنانية بين عنصرى الكوميديا والتراجيديا .

وكان اكبر الخاسرين سياسيا هو الرئيس سركيس والدولة اللبنانية اللذان لم يعد لهما اية سلطة لدرجة ان شمعون شبه الرئيس اللبنانى بـ « لافال » او « كويزلنج » حيث يكتفى رئيس الدولة بنشر ما تبقى له من الجيش على الطريق المؤدى الى قصر الرئاسة . وفى شهر ديسمبر عام ١٩٧٨ ، جددت المدة مرة اخرى لقوة الردع العربية .

وظل الرئيس الاسد هو المتحكم فى الاحداث بينما اخذ الاسرائيليون يترقبون اللحظة المناسبة لتكرار عملياتهم فى لبنان . وتظاهروا بالفعل بالاستغراق فى عمليات التحضير اللازمة قبل التوقيع على معاهدة السلام المنفصلة مع مصر التى كان من المقرر ان تتبع اتفاقات كامب ديفيد التى وقع عليها السادات فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٧٨ وحتى لا يعرضوا هذه العملية الجوهرية للفشل نتيجة لتيقظ ضمير الرئيس المصرى ، فضل القادة الاسرائيليين تاجيل اى عملية واسعة النطاق فى لبنان .

وتميزت سنة ١٩٨٠ بظهور طرف جديد فى النزاع الاسرائيلى — السورى — اللبنانى — الفلسطينى . ففرنسا التى كانت تنتهج سياسة نشطة من اجل اقرار سلام عادل ودائم فى الشرق الاوسط منذ عهد الجنرال ديجول ، حددت لنفسها بعض الاختيارات الرئيسية ان تحليل الحكومة الفرنسية بالنسبة لاحلال السلام فى الشرق الاوسط يختلف اختلافا جذريا عن تفاصيل اللعبة الامريكية . فباريس ترى ان منظمة التحرير الفلسطينية بزعيمها المعتدل الواقعى والمستقل ياسر عرفات يجب ان تشترك فى المفاوضات وهى بذلك تعترف بحقها فى تمثيل الشعب الفلسطينى ولم تكن هذه

الدبلوماسية بغيضة بالنسبة لاسرائيل فقط بل كانت مكروهة من الاسد ايضا لانها كانت تناقض وجهات نظره الخاصة بوضع المقاومة الفلسطينية تحت سيطرته . وفيما يخص المشكلة اللبنانية ، عارضت فرنسا كافة مشاريع التقسيم الاسرائيلية المارونية او الامريكية . وتعددت مساعيها لكن تطمئن الحكومة اللبنانية بأنها تساندها حفاظا على وحدة لبنان وسيادته ، الامر الذى حال دون انفراد دمشق بالقيام بالدور الاول فى بيروت . وكان هناك فى العاصمة بيروت رجل تقع على عاتقه بوجه خاص مهمة اجراء الاتصالات اللازمة مع منظمة التحرير الفلسطينية والطوائف اللبنانية المختلفة ، وكان هذا الرجل يعتقد اعتقادا راسخا بالدور الذى كان على فرنسا ان تؤديه فى هذه الاحداث المؤسفة ، وكان يحظى بتقدير كبير من جميع الاطراف وكان هذا الرجل هو لوى ديلامار سفير فرنسا لدى لبنان ، الذى يتميز بالحنكة والدهاء ، والاسلوب العملى والحوار المفتوح . وكان لوى ديلامار يعتبر من الشخصيات المؤثرة فى الشئون اللبنانية . ففى اغسطس عام ١٩٨١ نظم لقاء بين الرئيس عرفات وكلود شيسون ، وفى نفس الوقت كان يقوم بمهمة مصالحة بين الاتجاهات اللبنانية المختلفة كما كان على علاقات ممتازة مع الرئيس سركيس .

ووقع اختيار المخابرات السورية على هذا الرجل لتصفيته ونحن نعرف بقية الاحداث .

ففى يوم ٤ سبتمبر ، قام فريق كوماندوز والالوية الخاصة السورية بمحاولة اختطاف السفير ولكن لسرعة الاحداث ، قرر الفريق أن يقضى عليه بدلا من تسليمه حيا . وكانت هذه هى المرة الاولى التى تعاونت فيها المخابرات السورية مع

رجال قريبى الصلة من ايران الخومينى فى عملية من هذا النوع (١) ولم تكن الاخيرة .

وبعد مرور بضعة اشهر ، فى يوم الاربعاء الموافق ٢١ ابريل عام ١٩٨٢ ، اذاع التليفزيون الفرنسى على القناة الاولى تحقيقا لميشيل اونوران حول ظروف موت السفير ديلامار . وابرز التحقيق مسئولية النظام السورى فى الواقعة . وبالاضافة الى هذا ، فقد دل هذا البرنامج الذى لم تمانع الحكومة فى اذاعته ، على ان فرنسا لن تستسلم لعمليات التهديد التى قد توجه ضدها فى لبنان حيث يتوقع المراقبون قرب وقوع عدوان اسرائيلى ولم يتأخر رد الفعل فى الواقع ، ففى يوم ٢٢ ابريل ، فى الساعة التاسعة ودقيقتين صباحا ، وقع انفجار عنيف امام مقر جريدة « الوطن العربى » اللبنانية والسبب الكامن وراء هذا الانفجار هو أن آخر عدد من هذه المجلة الاسبوعية تضمن تفاصيل حول جريمة الاعتداء على ديلامار ، ونشر ايضا دراسة حول مذبحة حماة . وقال احد المحققين الصحفيين فى هذا الصدد : « كانت القنبلة الموقوتة التى وضعت فى سيارة على قارعة الطريق ، قد ضبطت بحيث تنفجر فى موعد وصول الجماهير العاملة الى المكاتب المجاورة . ومن الواضح حسب ملاحظة المحقق أن الجالية الفرنسية هى المستهدفة فى هذه العملية . وكان الانذار صريحا ويعنى أن السوريين يدعون الحكومة الفرنسية بعدم معارضة سياستهم فى لبنان » .

---

(١) يعيب نظام الخومينى على فرنسا مساعدتها للعراق فى الحرب التى بدأتها ايران فى ٤ سبتمبر ١٩٨٠ ، وفى الواقع فان المساعدة التى تقدمها فرنسا لحماية استقلال العراق لا تنفصل عن سياستها التى تهدف الى اقرار الاستقرار والسلام فى الشرق الاوسط .

وفى الساعة الثانية عشرة من نفس اليوم قررت الحكومة الفرنسية طرد المحرضين على هذه الجريمة : الملحق العسكرى السورى ، العقيد على حسن (من طائفة العلويين) والملحق الثقافى ، ميشيل كسوحة . واتهم هذا الاخير فى محاولة اعتداء بالمتفجرات على مقر جريدة « الوطن العربى » فى ديسمبر عام ١٩٨١ . ولاحظ واحد من قيادات منظمة التحرير الفلسطينية « ان سوريا عبرت من الارهاب المحلى الى الارهاب الدولى » .

وفى عام ١٩٨٢ ، تطورت الاوضاع بشكل درامى . فبعد اغتيال السادات ، اظهرت الحكومة المصرية الجديدة انها شريك متشدد . وبناء على اتفاقات كامب ديفيد ، كان من المقرر ان يعيد الاسرائيليون سيناء للمصريين فى فصل الربيع . وكان الجلاء عن هذه الاراضى قاسيا ومريرا بالنسبة لبيجين وشارون فراح كلاهما يفكر فى (الاستعاضة عن هذه الخسارة) بتقدم ارض اخرى للعرب ، ومن ناحية اخرى ، شعرا بالقلق نتيجة لتدعيم مركز منظمة التحرير الفلسطينية على الصعيد السياسى وقد ادت ــ سياسة ريجان المتشددة ، ووجود الجنرال هيج فى منصب وزير الخارجية بالولايات المتحدة ، تاديب المعارضة السورية على يد النظام السورى بعد مذابح حماه ، التفاف الكتائب حول بشير جميل بعد تصفية خصومه ، ادت كل هذه العوامل الى ايجاد ظروف مواتية ، لمعاودة التفكر فى احياء مشروع بن جوريون القديم . وفى المرة كان الهدف مزدوجا : تصفية منظمة التحرير الفلسطينية كقوة عسكرية وسياسية والعمل على تحقيق تقسيم لبنان بالاتفاق مع سوريا التى ستسيطر بالاضافة الى ذلك على ما سيتبقى من كيان منظمة التحرير الفلسطينية .

وشكل العدوان الاسرائيلى على لبنان والحرب التى اندلعت فى صيف عام ١٩٨٢ استطرادا « لسيناريو » الاحداث الماضية

ولكن اسرائيل اعتزمت ان تلجا الى جميع الوسائل فى هذه المرة لتضمن نجاح عمليتها . وتم اعداد كل شىء بمنتهى العناية بين الاسرائيليين والكتائبيين ، وابلغت سوريا بالضمانات التى تكفل لها عدم تجاوز الاسرائيليين خطا معينا .

وبعد مضى عدة اسابيع ، اى فى ٦ يونيه ، شن الجيش الاسرائيلى هجوما على لبنان وحاصر القطاع الغربى من بيروت . وفى شهر اغسطس اتخذت فرنسا سلسلة من المبادرات التى تسمح بترحيل رجال المقاومة التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية فى وقار . واشتركت مع الولايات المتحدة وايطاليا فى قوة الطوارىء المتعددة الجنسيات المسئولة عن الفصل بين المتحاربين فى بيروت وعن حسن سير عمليات الانسحاب (فى المدة ما بين ٢١ اغسطس الى اول سبتمبر) .

ولكن ابتداء من يوم اول سبتمبر ، توسط الاسرائيليون لدى الولايات المتحدة حتى تسحب القوات المشتركة فى القوة المتعددة الجنسيات فى اقرب فرصة لانهم قد عقدوا النية على انتهاك اتفاقات فض الاشتباكات المعقودة « وتمشيط » غرب بيروت بالكامل . وفى يوم ١٣ سبتمبر ، غادرت آخر عناصر هذه القوة المظليون الفرنسيون العاصمة اللبنانية وذلك قبل عشرة ايام من انتهاء المدة المقررة لتفويض هذه القوة .

ولم يفقد الاسرائيليون الوقت فقد اقام شارون جسرا جويا فى المنطقة المحتلة من ميناء بيروت الجوى . وسرعان ما وصلت المركبات المجنزرة والجنود . وقد كتب امنون كابليوك الصحفى الديمقراطى الاسرائيلى الذى روى تفاصيل مذبحة صبرا وشاتيلا فى كتابه المعنون بـ « تحقيق حول مذبحة » الذى صدر عن دار نشر « لى سى » فى باريس عام ١٩٨٢ كتب يقول : « فى يوم ١٤ سبتمبر اتخذت القوات الاسرائيلية آخر استعداداتها ودرس الجنرال ايتان

رئيس الاركان الاسرائيلى مقومات الخطة التى وضعت لاحتلال الجزء الغربى من بيروت » . بالاشتراك مع القيادات العسكرية للقوات اللبنانية (المارونيون المتطرفون) ولم تعوزهم سوى الذريعة ليبداوا فى تنفيذ مخططهم .

وتوفرت الذريعة المنشودة وكانت حقا على قدر الخطة المرسومة . ففى يوم ١٤ سبتمبر عام ١٩٨٤ وفى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وصل الرئيس المنتخب بشير جميل فى يوم الثلاثاء كما جرت العادة منذ خمس سنوات ماضية ، ليراس اجتماع الكتائب الاسبوعى فى مقر الحزب بحى الاشرفية وبعد وصوله بدقائق معدودات وقع انفجار مروع دمر مبنى المقر بالكامل . وعسترت فرقة الانقاذ المذعورة من هول الحادث على خمس وعشرين جثة تحت الانقاض ، من بينها جثة بشير .

وغلف الغموض الكامل هوية مدبرى هذه الجريمة لان نطاق الشبهات حول المتهمين الاساسيين المحتملين فيها كان على درجة كبيرة من الاتساع وقد حامت الشبهات حول اطراف كثيرة بدءا من المعارضة التقدمية والسوريين الى الاسرائيليين الذين اكتشفوا فى بشير الجميل متحدثا متشددا بدرجة اكبر مما صورته لهم ظنونهم (١) . ولم يتردد بعض المحللين السياسيين ايضا فى ادراج الكتائبيين المتصلين باسرائيل فى هذه القائمة . وبالذات الذين راحوا يعدون بشكل مدروس لمذبحة اخرى لابادة المدنيين الفلسطينيين فى معسكرى صبرا وشاتيلا .

وفور وقوع نبأ الهجوم الذى اودى بحياة رئيس لبنان المنتظر ، هجمت فلول الجيش الاسرائيلى على بيروت الغربية

---

(١) لقد عزم بشير الجميل مثلا على ابعاد سعد حداد من جنوب لبنان الذى يحتله بمساعدة الاسرائيليين .

رغم المقاومة اليائسة التى قامت بها « القوات الوطنية » وبطريقة مدروسة ومنظمة ، مارس الجنود الاسرائيليون كافة اشكال الاعتداءات الجائرة من اعتقالات وتصفيات ونهب . واحتلوا بصفة مؤقتة مبنى السفارة السوفيتية . وفى ليلة ١٥ سبتمبر ، انقطع التيار الكهربائى فى القطاع الغربى ، واصبحت بيروت من ثم اول عاصمة عربية تقع تحت وطاة الاحتلال الاسرائيلى . وفى نفس الفترة كان الجنرالان « ايتان » « ودرورى » (قائدا الجبهة الشمالية) يعدان للهجوم على معسكرى صبرا وشاتيلا بالتفاهم مع الزعيم الكتائبى فادى فريم .

وفى يوم ١٦ سبتمبر ابرق الجنرال درورى رسالة غامضة لوزير الحرب (الدفاع) شارون قال فيها : « لقد دخل اصدقاؤنا المعسكرات بالتنسيق معنا » الامر الذى يفيد انه يمكن ان تبدا المذبحة .

واخذ رجال فادى فريم « الذين ثبت انهم من اسوا المناضلين وينصرفون بلا دافع او هدف » حسبما وصفهم امنون كابلبوك فى كتابه السابق ذكره ، يهاجمون النساء والاطفال العزل بدون تمييز . وكما ذكر التليفزيون الاسرائيلى فان جميع ضباط فادى فريم كانوا موجودين على مشارف المعسكر او بداخله كى يشرفوا على سير العملية : الياس حبيقة رئيس المخابرات الكتائبية ، واميل اده ، ومشيل زعين ، وديب انسطاز ، ومارون مشعلانى ، وجوزيف اده ... واستغرقت العملية يومان . وخلال هذه الفترة احكم الجنود الاسرائيليون مراقبتهم فى ضواحى المعسكر منعا لتسرب اى نبا مما يحدث بداخله وفى مساء يوم ١٧ سبتمبر امكن احصاء الضحايا فوصل عددهم لما يزيد عن ٣ر٥٠٠ نفس ، وذلك بالاضافة الى السيدات والفتيات اللواتى انتهكت اعراضهن او الذين شوهوا . وعلى حد قول دبلوماسى فرنسى فان الميليشيات المارونية والاسرائيلية نفذوا معا ابشع جريمة فى هذه الحرب البغيضة . ان مذابح صبرا وشاتيلا هى المرادف

لمذبحة « الجيتو » (حى اليهود) فى مدينة وارسو ، ومما يزيد من بشاعة الجريمة انها تمت بالاشتراك مع اسلاف ضحايا مذبحة وارسو، ولكن ما هو السبب الذى ادى الى القيام بهذه العملية ؟ لقد اوضحه ياسر عرفات عندما قال : « ان هذه المذبحة — المتعمدة اراد ان يرهب الاسرائيليون بها شعبنا ليحثوه على الفرار من بيروت تماما شأن مذابح عام ١٩٤٧ ، وبخاصة مذبحة دير ياسين ، التى نظمها اليهود تمهيدا لرحيل الفلسطينيين من ديارهم » . ورغم لجنة تقصى الحقائق الاسرائيلية لم توقع ابدا اية عقوبة على المدنيين الرئيسيين فى تلك المذابح . اما عن قادة الميليشيات المارونية فقد لعبو دورا سياسيا خطيرا فى ظل عهد امين الجميل الذى عجز عن وضع حد لنفوذهم فى « بلدهم المسيحى » .

والبقية معروفة . ففى ٢٠ سبتمبر اتصل الرئيس ميتران بريجان واسفر الاتصال عن ارسال قوة فصل متعددة الجنسيات جديدة الى بيروت ، واشترك فيها الايطاليون وقوة رمزية من الجنود البريطانيين .

وكررت باريس املها فى ان يبقى لبنان بلدا موحدا ومستقلا وفى ان ترحل جميع الجيوش الاجنبية عن اراضيه : الاسرائيليون من الجنوب والسوريون من سهل البقاع وكانت هذه السياسة على النقيض تماما من مشاريع التقسيم التى حركت تصرفات الجيش الاسرائيلى بتواطؤ من الميليشيات المارونية والرئيس حافظ الاسد واصبحت فرنسا والمظليون التابعون لها يواجهون موقفا فى غاية الحرج لمساندتهم ، طوعا او كرها ، لحكومة لبنانية(١) عاجزة عن

---

(١) انتخب امين الجميل يوم ٢٣ سبتمبر بدل شقيقه بشير وكان يفتقر الى النفوذ الذى يمكن ان يسيطر به على العناصر المسلحة فى الميليشيات المارونية التى سرعان ما كونت دولة داخل الدولة .

كبح جماح اطماع الكتائبيين الذين اعتبروا انفسهم اسياد الموقف وراحوا يستولون شيئا فشيئا على جهاز الدولة وتقلص هامش المناورة بالنسبة للقوة المتعددة الجنسيات لتباين اهداف الدول المكونة لها : فماذا كانت فرنسا وايطاليا تعملان من اجل الحفاظ على وحدة لبنان وسيادته ، فان دور الامريكيين كان اكثر غموضا . وتوتر الجو بسرعة وراود القلق الطوائف الاسلامية فى البلاد — السنة والشيعة — رغم ثقتها المبدئية فى امين جميل ، حين تأكد لها عجزه فى تحقيق حكومة وحدة وطنية فى البلاد .

وتعددت الاخطاء فى الواقع ، فهجم الكتائبيون المتمسكون بحلم التقسيم ، على الدروز فى جبل الشوف حيث كان الاسرائيليون قد عززوا الطرفين بالسلاح قبل اندلاع المعارك بينهما ، وقبل ان ينسحبوا بشكل مباغت فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ من الساحة ليتركوا المجال مفتوحا للمواجهة بين المتصارعين . وبعد معارك ضارية طرد الكتائبيون بقيادة سمير جعجع من الشوف تماما بعد هزيمتهم فى حمدون يوم ٦ سبتمبر ومحاصرتهم فى دير القمر وفى نفس الفترة بدات المخاوف تجتاح الشيعة فى جنوب بيروت من احتمال ان تصاحب عمليات اعادة انتشار الجيش اللبنانى فى البلاد باجراءات انتقامية ضدهم . وفى ظل هذا السياق عاد الرئيس الاسد يمسك بزمام المبادرة ، بعد هزيمته على الصعيد الدبلوماسى واهتزاز صورته فى صيف عام ١٩٨٢ . فثار ضد الحكومة اللبنانية التى رفضت تجديد الانتداب لقوة الردع العربية فى يوليو عام ١٩٨٢ ، وادرك ان ساعة تدخله قد دنت ، فراح يمد المعارضة اللبنانية بمساعداته ، ووجد المبرر اللازم فى رفض الاتفاقية الاسرائيلية اللبنانية المبرمة فى ١٧ مايو عام ١٩٨٣ (تحت ضغط من واشنطن) وكان ذلك خطا جديدا مضافا الى جملة اخطاء امين جميل الذى قرر ان يعتمد فى جميع الامور على الولايات المتحدة الامريكية ظنا منه انها « ستاتيه بلبنان على صينية

من الفضة » . وبالفعل بدلا من اتخاذ التدابير اللازمة لعقد حوار قومى تشترك فيه جميع الاطراف اللبنانية ، تنازل الجميل تحت ضغوط امريكا والكتائبيين المتصادقين مع اسرائيل ، ووافق على اتفاق كانت نتيجته ضم صفوف المعارضة وارتمائها فى احضان الرئيس السورى الذى لم يرض باى ثمن ان يطرا سلام منفصل جديد يحول دون اشتراكه فى المفاوضات الشاملة . وحقا كان اتفاق ١٧ مايو بمثابة مساس بالسيادة اللبنانية ونبذا لاتفاقية هدنة عام ١٩٤٩ التى تعتبر اجدى بالنسبة لهذا البلد .

ومنذ هذا التاريخ ، عثرت المعارضة اللبنانية التى كانت تخوض معركة يائسة ضد « الدولة المنعطفة فى سبيل كتائبى » على اسباب دبلوماسية جعلتها تقبل التحالف مع حافظ الاسد الذى عاد يقود اللعبة من جديد فى الساحه اللبنانية ، — ونتيجة لذلك استطاعت سوريا ان ترسل وزير خارجيتها ليحضر كمراقب مؤتمر الطوائف اللبنانية الذى انعقد فى جنيف فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٨٣ . واصرت جبهة المعارضة ، كشرط مسبق لاى تفاهم ، على ان يتجه امين الجميل الى الولايات المتحدة ليبحث معها امكانية الغاء اتفاق ١٧ مايو الامر الذى رفضه ريجان وهكذا حامت المخاطر حول المصالحة الوطنية . وفى يوم ٤ فبراير عام١٩٨٤ ارتكب امين جميل غلطة قصوى حين اصدر الاوامر للجيش بالهجوم على الضاحية الشيعية ببيروت . الامر الذى دفع نبيه برى زعيم حزب — امل — الى اعلان انضمام حركته الى صفوف المعارضة والى دعوة الجنود الشيعة لهجرة صفوف الجيش النظامى ، والى عقد اتفاق مع وليد جمبلاط زعيم جبهة السلام الوطنى . وفى يوم ٥ فبراير تقدم السيد شفيق الوزان استقالته وفقد امين جميل آخر سند كانت تعضده به طائفة السنة المعتدلة. واصبح من الآن فصاعدا « رئيس الكتائب » فقط على حد تعبير وليد جمبلاط . ومعتمدة على مساندة دروز الشوف والمدفعية

السورية لها ، استطاعت ميليشيات المعارضة فى بيروت (امل والحزب الاشتراكى الوطنى التابع السيد رعد ، والمرابطون الناصريون) ان تجبر الجيش ، (الذى انضم اكثر من ثلث رجاله الى صفوفها) على التقهقر حتى حدود بيروت الشرقية ، واصبح القطاع الغربى من العاصمة تحت سيطرة المعارضة وبخاصة فى قبضة حركة امل التابعة لنبيه برى . وفى يوم ٦ فبراير بعث امين جميل ، الذى لم يعد يحكم الا فى حدود قطاع محدود حول بيروت الشرقية وجونيه ، برسول الى الاسرائيليين ليستنجد بهم ، لكن حكومة تل ابيب التى يتكبد جنودها المتمركزون فى جنوب لبنان — وقوامهم ٢٠ر٠٠٠ رجل — خسائر شبه يومية (١) فى الاوراح ، لم تلب هذه الاستغاثة .

وفى يوم ٨ فبراير ، فرت القوة البريطانية الرمزية من بيروت واعلنت الولايات المتحدة التى كانت فى اوج عامها الانتخابى ، انها قررت ان تسحب قوتها قبل نهاية الشهر . وفى يوم ١٠ فبراير ، رحل الايطاليون بدورهم . وبدات عملية الانسحاب الامريكى تتم فعلا فى يوم ٢٥ فبراير على متن وحدات الاسطول السادس الامريكى ، اما فرنسا التى تركت بمفردها راحت تجرى محاولة اخيرة فى مجلس الأمن لتحصل منه على موافقة بشأن ارسال قوه طوارىء دولية . ولكن هذا الاجراء اتخذ فى ظروف سيئة نظرا لان رحيل الامريكيين المتسرع لم يدع الفرصة للتفاوض فى اى حل مع موسكو . واستخدم الاتحاد السوفيتى حق الفيتو فى يوم أول مارس فى منظمة الامم المتحدة . واضطرت باريس التى فعلت كل ما فى وسعها بغية انقاذ استقلال لبنان ، والتى لم تكن تريد ان تورط نفسها فى هذه الحرب

---

(١) وخسر الاسرائيليون بالاضافة الى ذلك رجلهم بجنوب لبنان سعد حداد الذى توفى فى يناير عام ١٩٨٤ .

الاهلية ، اضطرت أن تقنع باجراء مباحثات مع الجماعـــات اللبنانية المختلفة عملية انسحاب قواتها فى اواخر شـهر مارس عام ١٩٨٤ (١) وتوجه كلود شيسـون الى بيروت فى يوم ٤ مارس عام ١٩٨٤ حيث استقبله الرئيس جميل الذى راح يكثر من تنازلاته للرئيس الاسد الذى التقى معه فى دمشق فى ٢٩ فبراير وفى اول مارس . ولم يكتف امين جميل بتكريم واليه الجديد بل راح ايضا يزيد من عزلته بفقدانه مساندة المتطرفين المسيحيين (شمعون وفادى فريم ....) الذين لا موه على نقضه للاتفاق المبرم مع اسرائيل فى ١٧ مايو عام ١٩٨٣ . ووقف لبنان من جديد على شفا التقسيم بعد فشل ثانى مؤتمر للطوائف اللبنانية انعقد فى لوزان فى المدة من ١٢ الى ١٩ مارس عام ١٩٨٤ . وعاد الوضع فى البلاد الى ما كان عليه قبـل صيف عام ١٩٨٢ ، واصبح مصيرها فى يد الرئيس الاسد الذى عاد يتصرف فى شئونها كالوالى المعظم .

ولا شك ان الاسد هو اهم شخصية فى المنطقة والتى ربما يتعين على الولايات المتحدة ان تتفاوض معه فى أعقاب انتخابات الرئاسة الامريكية فى نوفمبر عام ١٩٨٤ .

---

(١) فقدت القوة الفرنسية خلال الثمانية عشر شهرا التى قضتها فى لبنان ٨٨ جنديا . وقد اتم الجنود الفرنسيون عملهم بهيبة وشرف وشجاعة .

الفصـل السـادس

« القتـلة »

فى نهاية القرن الحادى عشر انشا احد الايرانيين المتصوفين والذى ينتمى لطائفة الشيعة الاسماعيليين ، اسمه حسن الصباح ، طائفة متعصبة وملهمة ، فى جبل فارس بالقرب من قزوين .

وكانت رسالة اعضاء هذه الطائفة تتمثل فى انجاز مهمات فى غاية الخطورة : القضاء على الذين يعينهم لهم « المعلم الكبير » الذى يعيش عيشة النساك المتوحدين ، ويعتبر فى نظرهم بمثابة اله حقيقى .

وحتى تسلب ارادة هؤلاء المشايمين ولا يجزعوا من التضحية بارواحهم ، كانوا يدمنون المخدرات والحشيش بصفة خاصة ، ولهذا السبب عرفوا فيما بعد باسم « الحشاشين » او القتله . وراحت هذه الطائفة تقوم بتصدير مبادئها وطرقها ، واتجهت عناصرها نحو الغرب . ولاقت مقاومة عنيفة فى العراق لكنها نجحت مع ذلك فى تكوين شبكة هامة لها فى جبل انصارية الذى تسكنه طائفة اخرى من الشيعة كانت تشكل اقلية وسط هذه المنطقة السنية . ويملك العلويون او القتلة فى القرن الثانى عشر نحو اثنى عشر معقلا حصينا . واهمها على الاطلاق هو مقر المعلم الكبير رشيد السنان الذى لقب باسم « شيخ الجبل » وعلى مر عشرات السنين كون القتلة السوريون ــ الايرانيون ــ شبكة دولية ارهابية حقيقية تزاول نشاطها البغيض فى كافة اركان الشرق الاوسط . وبصفة اساسية كان ضحايا هذه الطائفة من السنيين (المسلمون التقليديون) وكذا من المسيحيين . ولم تسقط هذه الطائفة فى ايران الا فى عام ١٢٥٦ تحت وطاة ضربات المغوليين ، فى حين انها ظلت مستمرة فى سوريا حتى غزو المماليك لاراضيها فى عام ١٢٧٢ .

لاشك ان هذه اللمحة السريعة حول « القتلة » التى يذكرنا بها التاريخ بعد مرور اكثر من سبعة قرون على نشأتهم ، تعد فريدة للغاية وكان من الواجب التنويه بها. ولكن استمرار بعض التحالفات المسينة يتجاوز اطار الاقصوصة ويذكر المرء بأن حركة التاريخ ابطأ بكثير مما تؤكده بعض الفلسفات السياسية .

وفى الوقت الحالى ، يؤكد انغماس الميليشيات المواليه لايران وحتى بعض الاعوان الذين جاءوا راسا من ايران فى الشئون اللبنانية الى اى حد لاتزال خيوط الماضى تتداخل وتؤثر على مجريات الامور فى الشرق الأوسط . وفى ضوء ذلك ، يعتبر التحالف الشاذ القائم بين الخومينى وحافظ الأسد مثالا حيا لهذا التناقض . ان المنطق السليم يوحى بأن جميع الأسباب القائمة لابد وان تؤدى الى التباعد الكامل بين الرجلين : فحافظ الاسد لا يؤمن بالمثاليات لانه فى الحقيقة رجل عملى داهية يحرص على النتائج الملموسه ولا يحفل بالاساليب المستخدمة لتحقيقها . فى حين أن آية الله الخومينى رجل دين يعتبر نبى جديد ، ولا يفهم من حقائق اللعبة السياسية الا القليل ، وكان يجب ان يشعر بالازدراء تجاه نظام دمشق المادى . وقد يكون من العبث البحث عن جذور هذا التحالف نظرا لان طائفة العلويين فى الواقع هى احد الفروع المنشقة عن الشيعة ولكن حافظ الاسد يكاد لا يحفل بمثل هذه الاعتبارات ، كما أن الخومينى لا يكن ادنى تعاطف لطائفة العلويين التى تعتبر فى نظره طائفة منشقة — بيد ان الرئيس السورى وآية الله الخومينى — يتفقان معا فى الواقع حول نقطة واحده لكنها اساسية هى ولعهما الجامح بالسلطة . وبما ان سلطة كليهما مزعزعة بشكل خطير على الصعيد الداخلى فقد حاول كل منهما ان يدعم مركزه عن طريق الانخراط فى مغامرة خارجية .

فكانت هذه المغامرة فى لبنان بالنسبة للاسد ، وفى الحرب مع العراق بالنسبة للخومينى . وفى نطاق اهدافهما كان لهما نفس الخصوم ونفس الحلفاء او الشركاء . وبينما يقود الاول — الاسد — لعبته بدهاء مع جيرانه الاسرائيليين ، يحصل الثانى من نفس هؤلاء الاسرائيليين على جزء ضخم من العتاد العسكرى الذى يحتاجه لمواصلة الحرب ورغم مبالغة كل منهما فى انتقاد الولايات المتحدة والتنديد بها ، فانهما يعتبرانها المتفاوض الوحيد ... والامر واضح فى حالة سوريا ، كما أخذ يتضح اكثر فاكثر بالنسبة لايران .

ومن الملاحظ بالفعل ان العلاقات التجارية بين ايران والولايات المتحدة لم تكف عن التزايد منذ الافراج عن رهائن السفارة الامريكية المحتجزين لديها . أما القاسم المشترك لهذين النظامين فيتلخص فى خصومتهما لنفس العدو المشترك : العراق وحكومة الرئيس صدام حسين البعثية .

لقد سبق ورأينا (١) كيف تمخض انقلاب اللواء حافظ الاسد على تجربة حزب البعث الشرعى فى سوريا . وابتداء من عام ١٩٧٠ ظهر خلاف خطير بين الادارة البعثية فى بغداد وبين النظام السورى . وعلاوة على النزاع الايديولوجى هناك صراع الدولتين من اجل الاستئثار بالزعامة الاقليمية .

فالرئيس السورى مقتنع بان ميزة موقع بلده الجغرافى تخول له الحق فى زعامة الصف العربى ، وهذا السبب يفسر محاولته لاحتواء منظمة التحرير الفلسطينية وتدخله فى لبنان . وفى مقابل هذا ، يعتقد العراق البعثى انه الوحيد القادر على ممارسة سياسة استقلال وطنى حقيقى الامر الذى يؤهله ليكون درع الامة العربية .

وعلاوة على الحوار الايديولوجى بين البعثيين التاريخيين والبعثيين الشرعيين الملتفين حول ميشيل عفلق والنظام السورى دبت مواجهة بين الدولتين وتدهورت العلاقات السورية — العراقية بشكل خطير ابتداء من عام ١٩٧٥ لثلاثة اسباب رئيسية .

والسبب الاول يكمن فى المعونة التى قدمها النظام السورى للثورة الكرديه المندلعة شمالى العراق فى اعقاب التوقيع على اتفاق الجزائر فى ٦ مارس ١٩٧٥ والذى ساعد بغداد وطهران فى التغلب على جزء من الخلاف القائم بينهما . والتزم الشاه بمقتضى هذا الاتفاق امام صدام حسين بوقف المعونة التى كان يقدمها لثوار مصطفى برزانى

(١) انظر ماجاء فى الفصل الاول .

زعيم طائفة الاكراد الذى كان يبيع نفسه لمن يدفع له اكثر والذى امضى بقية عمره فى واشنطن حيث كان يتقاضى معاشا من الحكومة الامريكية . وفى عام ١٩٧٤ ، تلقى برزانى من ايران واسرائيل والولايات المتحدة ، شحنات ضخمة من السلاح ساعدته فى اشعال عمليات التمرد ضد حكومة بغداد والتى كان حرصها الشديد على استقلالها الوطنى لا يروق كثيرا لحكومة واشنطن (١) . وفى محاولة لتهدئة ثورة الاكراد التى كان يقودها برزانى فكرت الحكومة العراقية فى طريقة لتطبيق نظام الحكم الذاتى على الاكراد ، وتقررت بالتالى ان تتفاوض مع ايران . وكان المقصود من وراء التوقيع على اتفاق الجزائر هو التوصل الى تسوية فعلية للمشكلة . يقول مراسل صحيفة واشنطون بوست فى المنطقة انه :

« ابتداء من اواخر شهر مارس ، امر الشاه بسحب المستشارين العسكريين والمعدات التى سبق ان قدمها للاكراد . وفى غضون اسابيع معدودة انهارت حركة الثورة التى كان يتزعمها برزانى ، وانضم اكثر من ٨٠٪ من المتمردين لبغداد » .

وكان هذا هو بالتحديد الوقت الذى اختاره النظام السورى ليحل مكان طهران وقد ابرزت صحيفة الفاينانشيال تايمز فى عددها الصادر فى ٢٣ يونيه عام ١٩٧٥ الدليل الدامغ على ان سوريا تمد الثوار الاكراد بمعونتها . وبالنسبة لبغداد كان هذا التصرف بمثابة طعنة فى الظهر . فقد ادلى صدوم حمادى وزير الخارجية العراقى فى عام ١٩٧٦ بقوله : « من الغريب ان نلاحظ ان نظام دمشق يوفر المعونة للثوار الاكراد تماما كما يفعل الامريكيون والاسرائيليون . ان هذا التصرف يعتبر خيانه حقيقية للقضية العربية » .

---

(١) اممت العراق بترولها عام ١٩٧٢ وحققت بذلك استقلالا اقتصاديا حقيقيا .

وتدور النقطة الثانية من الخلاف حول تقسيم مياه نهر الفرات . فبعد تشييد سد طبقا على نهر الفرات فى عام ١٩٨٤ ، عرض العراق على سوريا اتفاقا لتقسيم مياه النهر وتنسيق السياسة الزراعية بين البلدين .

ورغم وساطه عدد من الدول العربية وتشكيل لجنة مختصة رفضت الحكومة السورية كل حل وسط عرض عليها . اما نقطة الخلاف الثالثة فتتعلق بمشكلات الشرق الاوسط السياسية . فابتداء من عام ١٩٧٥ ، اتهمت بغداد سوريا بتضييق الخناق على نشاط المقاومة الفلسطينية وبمحاولة السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية من اجل التفاوض مع الولايات المتحدة الامريكية .

وفى ابريل عام ١٩٧٥ ، اجرى النظام السورى حركة تطهير جديدة لابعاد المناضلين البعثيين المؤيدين للعراق . وفى ١٣ مايو ، اغلق مجاله الجوى فى وجه الطائرات العراقية ومنع وصول البضائع الصادرة والواردة من العراق واليها الى ميناء اللاذقية . وفى شهر ديسمبر ، بدات الحكومة العراقية تنتقد بشده السياسة السورية فى لبنان ، تلك السياسة التى اعتبرتها بمثابة « موقف موال وصريح للميليشيات المارونية وكطعنة خنجر فى ظهر المقاومة الفلسطينية (طبقا لما جاء فى صحيفة الثورة الناطقة بلسان حزب البعث العراقى فى عددى ٦ و ٢٢ ديسمبر عام ١٩٧٥) . وفى يوليو عام ١٩٧٦ اتهم صدام حسين الذى كان آنذاك نائبا للرئيس العراقى سوريا بالعمالة لحساب الولايات المتحدة كما قام وزير الخارجية العراقى ، سعدون حمادى ، بجولة اعلامية حتى يطلع اقرانه العرب على « تلق العراق بسبب الدور الذى تلعبه سوريا فى الساحة العربية » .

وفى الوقت الذى جددت فيه سوريا هجمات قواتها على التقدميين اللبنانيين ، اعضاء الحركة الوطنية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، ارسل العراق بقوات من قواته الى صور فى شهر

سبتمبر ، وندد بعد ذلك بقرار قمة الرياض الخاص بانشاء قوة ردع عربية باعتبار ان هذه القوة ليست فى الواقع سوى « قناع لتغطية الوجود السورى فى لبنان » . وخلال احداث لبنان ، قدم العراق بلاتحفظ مساندته للقوات الفلسطينية ــ التقدمية . وردا على ذلك صعدت دمشق حركة اغتيالاتها ضد اللبنانيين البعثيين (خاصة النائب عبد المجيد الرافعى) . وفى العراق ، نجا صدام حسين من محاولة استهدفت اغتياله . وفى ١٤ ابريل عام ١٩٧٦ القيت قنبلة فى مسجد كربلاء ، كما وضعت قنبلة اخرى فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٦ فى ميناء بغداد الجوى .. ولم يتوقف هذا التصعيد الا مع زيارة السادات لاسرائيل وماتبعها من توقيع اتفاقات كامب ديفيد (فى ١٧ سبتمبر عام ١٩٧٨) ولاسباب متباينة ولكن قوية اعترض البلدان على هذه الاتفاقات . فسوريا لا تطيق ان تجد نفسها مبعدة عن المفاوضات ، اما العراق فانه يعتبر هذه الاتفاقات بمثابة تصفية للمشكلة الفلسطينية . وحاولت العاصمتان ، كل منهما على حدة ، ان تمسك بزمام المعسكر العربى . وبينما دعت دمشق الى تكوين جبهة للرفض رد العراق بقوله : « ان المشكلة لا تتمثل فى رفض او قبول اى شىء كان . ان المشكلة الحقيقية فى الواقع هى دعوة العرب لاعادة تنظيم انفسهم بجدية فى مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والعسكرية وصولا الى عرض مشروع متجانس كفيل بان يعطى دفعة للمقترحات العربية والوصول الى حل مقبول » .

ونجحت بغداد فى فرض وجهة نظرها حيث تم عقد مؤتمر قمة عربى ، فى الفترة من ٢ الى ٥ نوفمبر عام ١٩٧٨ ، حضره معظم الرؤساء العرب وجلسوا جنبا الى جنب على مائدة واحدة : الرئيس الاسد ، والملك حسين ، والرئيس عرفات ، والامير فهد . ولكن فى عشية انعقاد هذه القمة ، تمت مصالحة تتسم بالغرابة بين الحكومتين السورية والعراقية اللتين وقعتا فى ٢٥ اكتوبر على ميثاق عمل وطنى يقضى بتطبيع العلاقات بين الدولتين .

وتقضى الميثاق ايضا بتشكيل اربع لجان متخصصة لمتابعة الشئون السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية . كما تم انشاء لجنة عليا مشتركة تخضع لرئاسة كل من الرئيسين البكر ، والاسد ، من اجل دراسة ظروف الوحده بين البلدين . وحول هذه المصالحة كتب الصحفى بول مارى دى لاجورس على صفحات جريدة لوفيجارو الفرنسية (عدد ٢٧ اكتوبر عام ١٩٧٨) : « من المحتمل ان تؤدى هذه المصالحة الى تغير ملحوظ فى الوضع فى منطقة الشرق الاوسط كما انها تشكل فى الواقع مرحلة هامة فى مجال السياسة العربية .

وفى شهر يناير عام ١٩٧٩ توجه صدام حسين لزيارة دمشق نيابة عن السيد احمد حسن البكر رئيس الجمهورية العراقية وتوقع الجميع اعلان نبأ الوحدة بين الدولتين لكن الاجتماع الذى عقد على مستوى القمة اقتصر على تبادل الاتفاقات الفنية والتجارية بين الطرفين . وقبل ذلك ببضعة ايام ، سافر صدام حسين الى باريس وتقابل مع الرئيس جيسكار دستان الذى صرح بقوله : « ان فرنسا تؤيد الجهود التى يبذلها العراق من اجل توحيد الامة العربية » .

وفى الحقيقة لم يكن يوجد اى تطابق من حيث النوعية بين الجهود المبذولة من جانب كل من الطرفين . لقد اتيحت لى فرصة زيارة العاصمتين فى الثلاثة اشهر الاولى من عام ١٩٧٩ ، ولا حظت فارقا محسوسا فى اللهجة التى يتحدث بها كل من القادة العراقيين والسوريين . ففى بغداد أكد السيد طارق عزيز أن المسيرة نحو الوحدة هى أهم حدث منذ نشأة الجمهورية العربية المتحدة بين سوريا ومصر . وقد لمست نفس الثقة فى لهجة سعدون حمادى وزير الخارجية حينما صرح بقوله : « ورغم الصعاب الناتجه عن سوء التفاهم الطويل ، فان صالح هذين البلدين الشقيقين المشترك من الاهمية بحيث يجعل عدم التفاهم بينهما كارثة حقيقية » .

وفى الجانب الآخر ، بدا الحماس اقل حده . لقد تفادى السيد خدام وزير الخارجية السورى الخوض فى الموضوع واكتفى بقوله :

« ان معالجته ستحتاج بعض الوقت » . اما احمد اسكندر ، وزير الاعلام (الذى توفى فى يناير عام ١٩٨٤) فقد اكد على « وجود عراقيل من كل نوع . الامر الذى يحتم عدم التسرع ومعالجة المشكلات الواحدة تلو الأخرى . وعلى اى حال ، فان المباحثات لا تهدف الا الى توثيق التعاون بين البلدين » ويبدو فى الحقيقة ان سوريا لا تمانع فى قبول الوحدة بشرط ان يكون حافظ الاسد هو « رقم واحد » ويكون الرئيس الكهل احمد حسن البكر نائبا له ، وبشرط ايضا ان يتم ابعاد صدام حسين ، النائب الشاب للرئيس العراقى . وعلاوة على ذلك اعترض السوريون على فكرة توحيد حزب البعث ووضعه تحت زعامة ميشيل عفلق كما اعترضوا على هيمنة قيادة البعث باعتبار انها اكثر تقاربا للعراقيين . وفى ظل هذه الظروف كلها اجتمعت اللجان المتخصصة لكنها لم تتوصل لاى نتائج ملموسه باستثناء المجال الاقتصادى حيث حاول السوريون ان يستفيدوا باقصى قدر من جيرانهم الاثرياء . وسرعان ما ايقن المراقبون السياسيون ان حلم الوحدة فى سبيله لان يتلاشى .

وبعد فترة وجيزة تحطم هذا الحلم تماما . حيث علم الرئيس الاسد ، فى دمشق ، ان المشير حسن البكر لديه نية التنازل عن السلطة لاسباب صحية وان مراسم تسليم السلطات لصدام حسين تقرر ان تتم فى شهر يوليو عام ١٩٧٩ ، فى مناسبة الاحتفال بعيد العراق القومى . ولم يكن بلوغ هذا الرجل الشاب الطامح الى السلطة يروق ابدا للرئيس السورى الذى بدا يفكر جديا فى تصفية هذا الخصم المحتمل . وانتهز فرصة الذهاب والعودة من والى جلسات اللجان المتخصصة ، وقام بعدة اتصالات مع عدد من القيادات العراقية . واحيط هؤلاء علما بأن اختفاء صدام من شأنه ان يسهل عملية الوحدة ، وابلغوا « بكافة الضمانات » بشأن الدور الذى يمكن أن يقوم به حزب البعث بزعامة مشيل عفلق .

وفى شهر يوليو عام ١٩٧٩ ، استدعى صدام حسين الذى كان قد ابلغ بهذا المخطط احد الوزراء الذين حامت الشكوك حول اشتراكهم فى المؤامرة . وكانت المقابلة مثيرة حقا . ولما كانت الشكوى قد استبدت بصدام حسين فقد قام بعقد اجتماع على مستوى كوادر الحزب القيادية . واثناء الاجتماع ، حاول ذلك الوزير ان يمرر ورقة الى جاره ، لكنها احتجزت منه . وكان مدونا فيها : « لقد انكشف كل شىء » . .

وفى يوم ١٧ يوليو ، اصبح صدام حسين رئيسا لجمهورية العراق ولكن فكرة الوحدة بين سوريا والعراق ظلت قائمة . وبالاضافة الى الصراع القائم بين حزب البعث الشرعى والنظام السورى ، والى الخلاف القائم بين الدولتين ، تفجرت الضغينة والمرارة فى نفس كلا الرئيسين .

وهكذا ، عندما اندلعت الحرب ، بعد عام ، بين العراق وايران ، فى ٤ سبتمبر ١٩٨٠ ، نتيجة لسلسلة من الاستفزازات من قبل نظام طهران الجديد ، وبينما وقفت العديد من الدول العربية الى جانب العراق الذى يمثل الحاجز الوحيد ضد توسع وهيمنة الخومينى فى منطقة الخليج ، وبينما حاولت بعض الدول (مثل الجزائر) التوسط بين المتحاربين ، كانت سوريا هى الدولة العربية الوحيدة التى ناصرت ايران ضد العراق . وقد صرح طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقى فى هذا الصدد بقوله : « ان الاسد يفضل خومينى على العراق » . .

وهكذا حدثت القطيعة بين هذين البلدين العربيين اللذين كان بوسعهما أن يلعبا دورا بالغ الاهمية فى منطقة الشرق الاوسط . وقدم النظام السورى مساندة سياسية ومادية للخومينى ،

واستغل نفوذه على الصعيد الدبلوماسى ليحول دون حدوث اية تسوية سلمية لهذه الحرب .

ان الرئيس الاسد لا يتمنى حقيقة حدوث انهيار عراقى يؤدى الى تجزئة أراضى جاره الشرقى وقيام جمهورية اسلامية على باب بلاده ، ولكنه يهدف الى استمرار وضع يستنزف قوى وامكانيات الخصمين واحباط كافة المحاولات التى تبذل لتوصيلهما الى المفاوضة . وهذا هو السبب الذى جعل الشبهة(١) تحوم حول احتمال ان يكون السلاح الجوى السورى مسئولا عن موت وزير الخارجية الجزائرى بن يحيى ، اثناء قيامه بمهمة وساطة حميدة فى عام ١٩٨٢ .

وللضغط على العراق من الناحية المادية ، اغلقت سوريا حدودها معه ، وقطعت خط انابيب كركوك — بانياس الذى يوصل بترول العراق الى البحر الابيض المتوسط ، فى شهر ابريل عام ١٩٨٢ . مما اسفر عن انخفاض حاد فى حجم الصادرات العراقية . وفى مقابل ذلك يبدو ان آية الله الخومينى تعهد بأن يمنحها كبديل مكاسب عشر سنوات من ثمن البترول الايرانى . ورغم الوعد الذى قطعه على نفسه خلال مؤتمر القمة العربى الذى انعقد فى فاس فى ٩ سبتمبر عام ١٩٨٢ حيث تعهد الرئيس الاسد باعادة فتح خط الانابيب مقابل صفقة مالية ضخمة من المملكة العربية السعودية فانه لم يف بهذا الوعد . فكما قال الرئيس صدام حسين « لقد اخذ المال ولم يعمل على تشغيل الخط » بل وان بلاده تستخدم كمحطة ترانزيت « للعتاد العربى الواصل من بعض دول الشرق » . وهكذا ، يحظى الخومينى ، من جانب ، بمساعدة حافظ الاسد له ، ومن جانب آخر بمساعدة الاسرائيليين

(١) لم يكن من الممكن تدعيم هذا القول بالادلة .

الذين يزودونه باسلحتهم المحلية أو الامريكية الصنع وفى هذه الاثناء لا يكف العراقيون عن الحديث عن وجود ثمة تواطؤ بين الاسد وواشنطن .

ومع ذلك ، فان الصراع مع العراق لا يمثل نقطة الالتقاء الوحيده بين حافظ الاسد وآية الله الخومينى . صحيح أن العلاقات بين سوريا وايران لم تبدأ مع قيام ثورة آية الله الخومينى فى ايران . فمنذ عهد الشاه كانت الاتصالات متعددة فى كافة المجالات .

وفى السبعينيات اقام الرئيس الاسد علاقات ممتازة مع الامام الشيعى الايرانى موسى الصدر الذى كان يركز نشاطه للتأثير على الشيعيين اللبنانيين ، وكون محورا علويا — شيعيا ، تجسد فيما بعد بزيارة الزعيم الدينى العلوى لطهران فى عام ١٩٧٤ .

وفى اعقاب حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، تمثلت خطة كيسنجر فى أن يتولى الشاه تقديم المعونات لسوريا حتى يسهل ابعادها عن القضية العربية ، وحثها بالتالى الى « مزيد من التفهم » . وبدأت المعونات تتدفق عليها فى الفترة من عام ١٩٧٤ الى عام ١٩٧٧ ، هكذا كانت توجد حتى عام ١٩٧٩ مزرعة نموذجية كبيرة فى منطقة حماة ، كانت تعرف باسم « مزرعة الشاه » وكان وزير الخارجية السورى ، السيد خدام ، هو المسئول الرئيسى عن التحالف الغريب بين نظام يزعم أنه تقدمى وبين النظام البهلوى الملكى . وبعد سقوط الشاه ، استمرت العلاقات مع آية الله خومينى ، واخذت شكلا متطرفا بانشاء دولية ارهابية اختارت لبنان ليكون مسرحا لعملياتها وبسرعة ادرك الاسد وخومينى أن ضعف الديمقراطيات والنظم المعتدلة يكمن فى اعتمادها على الرأى

العام وان اهمية الدور الذى يلعبه هذا الراى يحول دون انتهاج سياسة خارجية متصلة او تكتنفها « المخاطرات » خاصة فى الفترة السابقة للانتخابات . ولقد صمم الدكتاتوران على ان يستغلا الوضع قدر طاقاتهما .

واول دليل دامغ على وجود ثمة تعاون بين ايران وسوريا فى مجال الارهاب ظهر جليا فى يوم ٢٣ اكتوبر عام ١٩٨٣ بوقوع الاعتداء الغادر على العسكريين الفرنسيين والامريكيين التابعين لقوة الطوارىء المتعددة الجنسيات فى بيروت ولقد نشرت صحيفة « واشنطن بوست » فى عددها الصادر فى يوم ١ فبراير عام ١٩٨٤ ببعض البيانات الخاصة بهذا الاعتداء . واكدت الصحيفة الامريكية ، بناء على مصادر وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، والموساد — المخابرات الاسرائيلية — ان ضابطا سوريا ورجل دين لبنانيا متطرفا تورطا فى هذه العملية المزدوجة . وقد توجه حسين موساوى زعيم حركة امل الشيعية الثورية (المنشق المتطرف عن حركة امل التابعة لنبيه برى) الى بيروت قبيل ايام معدودة من وقوع الاعتداء ، وتورط فى توريد الشاحنتين اللتين استخدمتا فى القيام بالاعتداء .

وفى الحقيقة فان التعاون الوثيق بين الاجهزة السورية والايرانية ترجع لحادثة اغتيال لوى ديلامار لكن تفشى ظاهرة عمليات الكوماندوز الانتحاريين خلال عام ١٩٨٣ اضفى طابعا مميزا على هذا التعاون الذى سرعان ما تجاوز حدود منطقة الشرق الاوسط . وهكذا حدث فى الليلة الفاصلة بين يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٨٣ ويوم اول يناير عام ١٩٨٤ ، ان انفجرت قنبلة فى محطة سان شارل بمارسيليا ، مسقط راس وزير الداخلية الفرنسى ، وفى القطار السريع الذى يربط بين باريس ومارسيليا . وتسبب هذا الاعتداء المزدوج فى قتل العديد من الافراد ولقد دبرت هذه العملية على يد شخص سورى يدعى رشيد محسن بدوى ، احد رجال كارلوس

الذى يقال انه بدوره يعمل لحساب دمشق وطهران . وفى يوم ٢١ ديسمبر ، قامت جماعة ارهابية ايرانية معروفة باسم « الجهاد الاسلامى » بشن عملية انتحارية ضد مركز الجنود الفرنسيين فى بيروت ، وادلى متحدث رسمى فى طهران بهذا التصريح : « سوف يتعرض الفرنسيون لزلزال ارضى اذ لم يغادروا لبنان ويغيروا من سياستهم فى الشرق الاوسط » .

وجدير بالذكر ان المطالبة بانسحاب القوات الفرنسية من لبنان حيث تبذل مافى وسعها من اجل الابقاء على وحدته وسيادته ، وبتغيير الموقف الفرنسى خاصة حيال العراق هى مطالب مشتركة لكل من دمشق وطهران . فلقد اصبحت فرنسا بالنسبة لهاتين العاصمتين العدو رقم واحد ، علاوة على ذلك فانها تأوى المعارضين الايرانيين مثلما اوت خومينى من قبل . وفى يوم ٧ فبراير عام ١٩٨٤ قامت حركة الجهاد الاسلامى بضرب اثنين من المعارضين الايرانيين فى فرنسا انقضت على الجنرال اوفيسى وشقيقه .

وفى يوم ٨ فبراير : جاء الدور على سفير دولة اتحاد الامارات العربية ، السيد خليفه المبارك ، وهى الدولة التى تقدم مساعداتها للعراق .

وحركة الجهاد الاسلامى ليست منظمة واضحة المعالم انما هو اللقب النوعى الذى يطلق على التنظيم الارهابى الايرانى — السورى برمته ، والذى يتولى عملية التنسيق له الملا العراقى الاصل محمد بكر الحكيم فى طهران ، والعقيد رفعت الاسد فى دمشق ويتولى السوريون امداد — الحركة بالمستشارين المتخصصين ، وبتوفير معسكرات التدريب للمتطوعين فى سهل البقاع بلبنان ، وعلى مقربة من دمشق ، فى حين يقوم الايرانيون بتعبئة الرجال فى ايران او فى لبنان ، وبتوفير العلماء الدينيين لهم لترسيخ التعصب فى قلوبهم . وتقول مجلة « جين افريك » الاسبوعية فى عددها الصادر

فى ٢٥ يناير عام ١٩٨٤ من المرجح ان اسايد عمير حلو الذى يوجد مقر قيادته العامة فى دمشق هو المسئول الاول وان احد المراكز الهامة لهذه الحركة يوجد فى بعلبك حيث مقر منظمة امل الثورية التابعة لموساوى ، والتى يشرف عليها الجيش السورى واجهزة المخابرات السورية والتى تقوم ايضا بحماية عملية بيع الحشيش المزروع فى المنطقة .

وربما تكون كلمة رقابة « اليق من كلمة حماية » المستخدمة لان تعاطف الرئيس الاسد مع هؤلاء الرجال الذين يؤكدون دوما نيتهم فى اقامة جمهورية اسلامية فى لبنان والعراق تعاطفا محدودا والرئيس السورى الذى يستغل فقط تعصب حلفائه لا يفكر قط فى اطلاق العنان لهم ، اذ انهم فى نظره مجرد عامل مساعد او ورقة اضافية فى لعبته . ولكن هذا لا يمنع من وجود نقطة التقاء بين الخومينى والاسد : فى الاساليب وفى فكرة الاستخدام المخطط المدروس للارهاب كسلاح سياسى طبقا للمفهوم التقليدى لطائفة « القتلة » ولهذا فان تعاونهما كاملا فى هذا الميدان .

ويبدو ان الايرانيين يقومون بتوفير الايدى العاملة ، بينما يستغل السوريون ، المكلفون بعملية التنظيم الفعلى لتحركاتهم (١) هذا التعصب لتوجيههم كيفما ارادوا . ومما لا شك فيه أن الاجهزة

---

(١) كان الايرانيون ابتداء من شهر يناير ١٩٨٤ يسافرون بجوازات سفر ديبلوماسية سورية مزوره وحينما يهبطون بمطار أورلى الفرنسى يستقبلهم رجال السفارة السورية ويدخلون البلاد تحت سمع وبصر البوليس الفرنسى العاجز عن اخذ اية مبادرة بسبب التقليد الديبلوماسى وقد نشرت صحيفة باريس فى عددها الصادر يوم ١٠ فبراير عام ١٩٨٤ نبأ مضمونه أن العقيد السورى عز الدين سليمان يراس جماعة من القتلة تهدف الى تتبع خطوات المعارضين السوريين والايرانيين فى فرنسا .

السورية تتمتع بفعالية كبيرة فى عملها ، وتتلقى مساعدة — من جهاز المخابرات السوفيتى — الذى لا يجد استياء فى المساهمة فى اى عملية تستهدف زعزعة الاستقرار فى البلاد الغربية . وفى ضوء هذا الكلام من الواضح بدون شك ولا ريب ان موسكو ودمشق يسعيان نحو هدف واحد فى هذا الميدان .

ويتزعمه شبكة ارهاب دولية حقيقية (الا يقال ان «ابو نضال» و « كارلوس » متمركزان فى دمشق ؟) كان ينبغى ان يعامل الرئيس الاسد بمثابة العدو رقم واحد للولايات المتحدة الامريكية التى تزعم انها سريعة التمييز بين الصالحين والاشرار ووضع القوائم السوداء لمن يمارسوا ارهابا دوليا . وبصفة عامة ، تمتنع واشنطن عن اجراء اى اتصال وخاصة عن الارتباط باى علاقة تجارية مع مثل هذه البلاد ومن الغريب ان نظام حافظ الاسد ، الذى خصه كيسنجر بالتكريم فيما مضى ، لم يدرج ضمن قائمة « الاشرار » على الصعيد الدولى . بل يمكن القول ان العلاقات السورية الامريكية تعتبر علاقات طيبة بدليل ان الحوار بين البلدين لم ينقطع ابدا .

«يسألوننا كثيرا ماذا كان حافظ الاسد — عدوا للولايات المتحدة أو مصالحه الذاتية التى تتباين حتى عن مصالح الشعب السورى اء مصالحه الذاتية التى تتباين حتى عن مصالح الشعب السورى وسوريا . ومن السهل جدا أن نفسر كل افعاله بانها مؤامرات ودسائس خفية . ولكننا نفضل الالتزام بالوقائع . فما هى هذه الوقائع ؟ حيال منظمة التحرير الفلسطينية ، خدم نظام الاسد اهداف اسرائيل والولايات المتحدة ، هاتان الدولتان لا تريدان باى حال وجود حركة فلسطينية مستقلة وقوية . وفى لبنان ، من عام ١٩٧٤ حتى يومنا هذا ، عمل ولا يزال يعمل النظام السورى من اجل تهيئة الجو لتنفيذ مخطط بن جوريون الذى يستهدف تقسيم هذا البلد ، وابتداء من عام ١٩٧٤ ، تعاون بشكل وثيق مع هنرى كيسنجر الذى تزعم هذه السياسة . وليس من الغريب

اذن ان نجد كيسنجر يخص بالتكريم الاسد فى مذكراته وفيما يخص العراق ،يساند الاسد الخوميني ويشارك من ثم فى اضعاف موقف المعسكر العربي . وليس سرا بالنسبة لاى انسان ان طهران تتلقى السلاح من اسرائيل وسوريا حيث تتجمع كميات الاسلحة القادمة من بلاد الكتلة الشرقية لترسل بعد ذلك الى طهران .. هـذه هى الحقائق » .

ان الرجل الذى اعد قائمة الاتهام هذه هو واحد من زعماء فتح التاريخيين ، وقريب الصلة بياسر عرفات واثناء حديثى معه فى مقر مكتبه بتونس كان يفتح ادراج المكتب ليخرج منها قصاصات الصحف والملفات ، والوثائق التى كان يطلعنى عليها لتعضيد اقواله . وختم حديثه بقوله : « اذا كان المستشارون السوفييت موجودين بالفعل فى سوريا ، فان الاسد يتبع نصائح الامريكيين . وهو يحرص ان تظل كفتا ميزان الدولتين العظميين عند نفس المستوى . ولكن يبدو ان الاسد هو الذى يستغل الاتحاد السوفيتى فى هذه اللعبة وليس العكس » .

والحقيقة ان ما يستحق وقفه عند دراسة دبلوماسية الرئيس الاسد هو سياسته ازاء الولايات المتحدة . ان الغموض يغلف بكثافة هذا الموضوع لأن الرئيس السورى نجح فى ان يجعل الامريكيين يصفونه بانه « عميل للسياسة السوفيتية فى الشرق الاوسط » . كما نجح فى جعل المعارضين فى داخل البلاد وكذا عدد من القادة العرب يصفونه بانه « ماجور لحساب الامريكيين والاسرائيليين » .

ولو التزمنا بالحقائق هنا ايضا سيتلاشى الغموض فالعلاقات السورية ــ الامريكية التى مرت بفترات توتر شديد فى عهد حكومة البعث الشرعى فى الفترة ما بين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٦٦ ، ثم فى عهد صلاح جديد فى الفترة من عام ١٩٦٦ الى عام ١٩٧٠ ، اخذت تتحسن ابتداء من انقلاب حافظ الاسد فى عام ١٩٧٠ . وعلى الصعيد

الدبلوماسى ، لمح الرئيس السورى الجديد ، ابتداء من عام ١٩٧١ ، انه لن يعترض على تطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذى وضعه الامريكيون شرطا اساسيا لفكرة اى تسوية لنزاع الشرق الاوسط(١) وبانه مستعد لمعاودة العلاقات الدبلوماسية مع واشنطن .

وكانت حرب اكتوبر بمثابة نقطة تحول هامة . ففى يوم ١٥ ديسمبر عام ١٩٧٣ ،اتجه وزير الخارجية الامريكى هنرى كيسنجر الى دمشق . وفتحت هذه الزيارة الباب لعدة اتصالات دبلوماسية كانت احدى نتائجها : تبادل اسرى الحرب بين اسرائيل وسوريا . واستؤنفت الاتصالات بعد ذلك ، وفى يوم ١٠ ابريل عام ١٩٧٤ ، التقى رئيس جهاز المخابرات السورية اللواء حكمت شهابى مع كيسنجر فى واشنطن من اجل التحضير لمفاوضات فك ارتباط القوات الاسرائيلية فى سوريا . واضطر كيسنجر ان يقوم بدور المكوك بين تل ابيب ودمشق خمس عشرة مرة ذهابا وايابا قبل ان يتوصل الى نتيجة ملموسة فى ٢٨ مايو عام ١٩٧٤ .

وكنتيجة لهذا الاتفاق استؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين دمشق وواشنطن ، وزيارة الرئيس الامريكى نيكسون لسوريا فى يومى ١٥ ، ١٦ يونيه عام ١٩٧٤ . وظلت سوريا طويلا مع مصر السادات من الدول العربية الوحيدة التى زارها رئيس دولة امريكى .

والحقيقة ان حافظ يبنى نشاطه الدبلوماسى على اساس اقتناعه العميق بان الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة المتحكمة فى لعبة الشرق الاوسط . وفى يوليو عام ١٩٨١ ، اكد لى الرئيس السورى : « ان الامريكيين وحدهم هم القادرون على تحريك الامور فى المنطقة

---

(١) ترفض منظمة التحرير الفلسطينية هذا القرار كاساس لحل شامل لانه يشير للمسالة الفلسطينية كمسالة لاجئين .

فنحن اذا نظرنا مثلا للمبادرة الاوربية . فسنجد ان الحديث يتطرق لها احيانا ولكن لا يستطيع احد ان يشعر بوجودها . لدرجة ان المرء يشك حتى فى احتمال ان يكون لدى اوروبا اى اســـتعداد لمزاولة نشاطها فى المنطقة » . وحتى اذا توافر ذلك الاستعداد فهل لديها الوسائل والامكانيات ؟

فى حين ان الامريكيين يمسكون بمعظم اوراق اللعبة وخاصة بالورقة الاسرائيلية . ولما كانت سياسة الرئيس السورى سياسة واقعية فانها تعمل على التاقلم والتكيف مع هذا الواقع بدلا من محاولة تغيير معطيات ميزان القوى فيه . ولهذا فيجب الابتعاد عن اى مبادرة من شأنها مضايقة واحراج واشنطن لفترة طويلة ، وخاصة اتباع سياسة معادية لاسرائيل تتصف « بالفاعلية والنشاط » واذا اخذنا فى الاعتبار بهذه الفكرة منذ البداية ، تلك الفكرة التى لا تستبعد فى نفس الوقت احتمال تبادل الشتائم بل والقذائف فى لبنان — فيمكننا القول بأن السياسة السورية تمثل لعبة توازن بارعة بين الخضوع والتسليم بواقع التفوق الامريكى ، وبين استخدام لهجة فى التعبير اكثر « قومية » واكثر « تشددا » تصلح للاستهلاك على الصعيدين الداخلى السورى والمحلى العربى . ومنذ عام ١٩٧٠ نجح الرئيس الاسد فى تحقيق هذا التوازن الحساس وبالتالى عدم قطع صلاته مع الامريكيين .

ويقول أكرم حورانى فى هذا الصـــدد : « نادرا ما وقف الاسد فى طريق السياسة الامريكية ، الا عندما حاولت هـــذه السياسة اقصاء النظام السورى بعيدا عن تسوية المشكلة ، وبالفعل بمجرد ما كاد يشعر الزعيم السورى بانه من المحتمل ان يستبعد من اللعبة ، حتى بدأ يلعب على وتر العداء — الامريكى فجاهر باعتراضه على مبادرة ريجان التى تقترح فكرة تحقيق التسوية فى المدى البعيد على ان يبدأ حوار مشترك بين الاردن والفلسطينيين ليس لدمشق اى دور فيه ، وهكذا ايضا ندد —

بالاتفاق الاسرائيلى اللبنانى الذى وقع فى ١٧ ابريل عام ١٩٨٣ ، عندما ظن الامريكيون ان الضعف الذى اصاب موقف سوريا على الصعيد الدبلوماسى فى اعقاب حرب صيف عام ١٩٨٢ ، ربما يتيح لهم الفرصة بتقديم اتفاق لدمشق لا يؤثر قبوله او رفضه من جانبها فى شىء من مجريات الامور . ولكن ذلك كان يعنى الجهل بطبيعة حافظ الاســد الذى لــم ينتظر طويلا ليظهر رد فعـله ، حتى تحين هذا الاخير فرصة الاتفاق المخزى «ليكتل المعارضة اللبنانية حوله — ويجرى مزايدات مدروسة بمساندة السوفييت .

وجدير بالذكر ان لعبة السوفييت فى سوريا تتسم هى الاخرى بالحساسية والدقة . « لقد وجدوا انفســهم بين فكى الرحى لوقوفهم الى جانب الفلسطينيين من جهة ومراعاة — مصالحهم فى سوريا من جهة اخرى الامر الذى جعل دورهم صعبا للغاية » على حد تعبير ياسر عرفات ابان الحصار الذى فرض حول طرابلس . ومنذ ان طردوا من مصر بقـــرار من السادات فى عام ١٩٧٧ ، لم يعد للسوفييت غـــير مركزين فى الشرق الاوسط : ليبيا وسوريا . والحقيقـــة انـــه اذا كان « التعامل » مع العقيد القذافى ، ايسر نسبيا ، خاصة وان كلا من موسكو وطرابلس يسعيان لتحقيق نفس الهدف المتمثل فى زعزعة الاستقرار فى منطقة المغرب وفى جزء من افريقيا فـــان التعايش مع اللواء الاسد اصعب بكثير . ولكن اللعبـــة السوفييتية تهدف فى المقام الاول بالتمسك بمواقعها الحاليـــة بجميع الوسائل الممكنة وذلك خشية ان يفقدوا نفوذهم وتاثيرهم فى — اى تسوية شاملة محتملة لنزاع الشرق الاوسط .

ولقد قال احد الصحفيين السوفييت فى دمشق فى هـــذا الصدد : « نحن نعرف اننا نلعب هنا بورقة » مغشوشة ولكنها على اى حال افضل من لا شىء » الحذر قائم اذن بين الطرفين : فالسوفييت لا يجراون على تسليم عتادهم المتطور للسوريين ولا

يعطوه لغير خبرائهم فى سوريا ، بينما يضرب الجانب السورى عرض الحائط بمخططات الدبلوماسية الروسية . وفضلا عن ذلك هناك ضغينة قديمة بين الاسد والسوفييت ، فهو لا ينسى انهم منعوه فى فبراير عام ١٩٦٩ من قلب نظام الاتاسى وصلاح جديد (الموالى لروسيا) . ومع هذا فان اول زيارة رسمية يجريها الاسد كانت لموسكو فى فبراير عام ١٩٧١ . ومنذ هذه الفترة بدا الجانب السوفييتى يلح عليه ليعقد معاهدة صداقة وتعاون معه لكنه رفض وظل على هذا الموقف اكثر من تسع سنوات . واستمر تردده طوال عام ١٩٧١ مما ادى الى فتور العلاقات الثنائية بين البلدين . ولكن فى يوم ٧ مارس عام ١٩٧٢ ، قرر الاسد لما راى ان جناح المحافظين (خاصة المتطرفين منهم ؛ تحول الى صفوف المعارضة ، ان يضم الحزب الشيوعى للجبهة الوطنية التقدمية . وبعدها ببضعة اسابيع جاء المارشال جريتشكو وزير الدفاع السوفيتى،فى زيارة لدمشق حيث كان مصمما تماما على ان يحصل منها على موافقة لتدعيم العلاقات الثنائية بينهما خاصة فى المجال العسكرى . وفى عشية الليلة السابقة لحرب اكتوبر عام ١٩٧٣ اغفل السادات والاسد ابلاغ موسكو بنيتهما فى شن الحرب . وبعد انتهاء الحرب ، اخذ السوفييت يلحون على الحكومة السورية لقبول الحل بالتفاوض املا منهم فى ان يتم هذا الحل — فى اطار مؤتمر جنيف الذى كان سيبدأ اعماله فى ديسمبر عام ١٩٧٣ . واشترك الاتحاد السوفيتى مع واشنطن فى رئاسة هذا المؤتمر وبذل قصارى جهده من اجل الوصول الى حل يضمن له الاشتراك فى التسوية الشاملة وشهدت هذه الفترة ثمة « تعاون » بين الجانبين السوفييتى والامريكى فى الشرق الاوسط ، حيث لعبت الدولتان الاعظم على سبيل المثال دورا هاما للتوصل لتوقيع اتفاق فك ارتباط القوات فى هضبة الجولان فى يونيه عام ١٩٧٤ . لكن الاتحاد السوفيتى قرر فى نفس الوقت ان يعيد تسليح سوريا

التى يوجد بها حسب تقديرات البنتاجون اكثر من الفى خبير روسى .

وكرر الاسد زيارته لموسكو مرة آخرى فى عام ١٩٧٥ حيث تمكن من الحصول على صفقة من طائرات الـ « ميج » ٢٣ ، ولكن الخلاف تجدد بينهما ابتداء من عام ١٩٧٦ بسبب تدخل سوريا العسكرى فى لبنان ، الامر الذى لم يرض عنه بريجنيف مما دعاه الى توجيه مذكرة شديدة اللهجة للرئيس الاسد يطالبه فيها بانهاء المعارك ضد الفلسطينيين واللبنانيين التقدميين وفى اغسطس عام ١٩٧٦ ، اوقف الروس معوناتهم العسكرية لسوريا بالكامل حتى عام ١٩٧٧ . وبعد استقرار الوضع فى لبنان بدات العلاقات تتحسن بين البلدين لكن سوريا رفضت ان تمنح تسهيلات عسكرية « لصديقها » السوفيتى الذى حاول بشتى الوسائل ان يعوض ما فقده نتيجة تباعد مصر التى قررت طرد جميع الخبراء الروس منها فى عام ١٩٧٧ . وبعدها ببضعة اشهر ، قام السادات بزيارة القدس وبدا انه اتجه نهائيا صوب الولايات المتحدة وسياسة كيسنجر . ولم تكن عملية المفاوضات الاسرائيلية — المصرية تحت اشراف الجانب الامريكى ،لتروق لقادة كل من دمشق وموسكو .فشعور السوريين بانهم ابعدوا عن هذه العملية كان مريرا ولكن الاسد كان من الذكاء بحيث أدرك بسرعة ان السوفييت يمكن أن يوفروا له الذريعة لمعاودة الاشتراك فى اللعبة حتى لا يكون « السلام امريكيا صرفا »، ويحول من ثم دون اشتراكهم بأى دور فيه ولم يقر السوفييت من جانبهم بان تنتهى هكذا عملية المفاوضات المتعددة الاطراف التى تدور فى اطار مؤتمر جنيف تحت اشراف الدولتين المعظمين . وكان من الطبيعى اذن ان يتقارب كل من الجانب السورى والسوفيتى اللذين احسا بنفس خيبة الامل ازاء توقيع اتفاقية كامب ديفيد فى سبتمبر عام ١٩٧٨ ، خاصة وان سياسة الاستقلال الوطنى المتشددة التى

انتهجها العراق قد حدت كثيرا من دور الاتحاد السوفيتى ف المنطقة .

وف يوم ٨ اكتوبر عام ١٩٨٠ سافر الرئيس الاسد الى الاتحاد السوفيتى ، ووقع أخيرا معاهدة صداقة وتعاون لتكون ردا لكلا البلدين على التحالف المصرى — الامريكى واتفاقيات كامب ديفيد ولقد تم هذا التصرف من جانب الرئيس السورى ، على خيبة أمله ف الامريكيين المرتبطين ارتباطا وثيقا باسرائيل والعاجزين بالتالى عن اتباع سياسة عادلة او حتى معقولة ف المنطقة . ومرة أخرى ، ادى تحيز الجانب الامريكى للجانب الاسرائيلى وحده الى ارتماء الاطراف المعنية الاخرى بين احضان موسكو .

وهذا ما اكده السيد مروان فارس ، سكرتير عام الحزب الاشتراكى الوطنى الذى يعتبر من انشط القادة الوطنيين التقدميين اللبنانيين ، حينما قال : « ان السياسة الامريكية ف الشرق الاوسط غبية ، لانها تعتبر اسرائيل افضل المفاوضين ، ولا تفكر ف تسوية المشاكل الاقليمية الا بعد مطالبة العرب بالرضوخ للشروط الاسرائيلية — الامريكية المهينة — ويساند الامريكيون بشكل اعمى جميع مغامرات اسرائيل ف حين ان ف مقدورهم تهدئة اللعب ، وعندما تستعمل سوريا اسلحة روسية او توقع اتفاقيات مع موسكو نجدهم يصيحون مستنكرين » .

ان معاهدة اكتوبر عام ١٩٨٠ كانت بمثابة رد الفعل المعبر من استياء الجانب السورى ، لكنها ربطتها بموسكو وسمحت لها بتدعيم وجودها العسكرى ف المنطقة . وبسرعة فائقة وصل عدد من المستشارين والخبراء « من كل نوع الى عدة آلاف شخص وف مقابل هذا اكتفى الاتحاد السوفيتى بقصر التزامه على ترديد اساليب البيانات الرسمية « كادانة الصهيونية »و« الالتزام بالدفاع عن سوريا ف حالة ما اذا هددت اسرائيل اراضيها » . وتنص المادة

السادسة من المعاهدة بالتحديد على انه « ف حالة نشوب اوضاع مهددة للسلام او امن اى الطرفين وتعرض السلام للخطر ... تبدأ الاتصالات على الفور بين الطرفين المتعاهدين من اجل تنسيق مواقفهما واوجه التعاون بينهما ... » ولمزيد من الوضوح اضافت المادة العاشرة ما نصه : « يواصل الطرفان المتعاقدان التعاون فيما بينهما على الصعيد العسكرى، طبقا للاتفاقات الخاصة المعقودة بينهما ف هذا الصدد من اجل تدعيم قدرتهما الدفاعية » . فالحدود واضحة اذن ومعناها ان الاتحاد السوفيتى لا يلتزم الا بالدفاع فقط عن الاراضى السورية ، وهذا الالتزام المقيد الذى يستبعد فكرة ان يقدم الجانب السوفيتى اى معونة مباشرة للجانب السورى ف حالة تدخله للرد على اى تدخل عسكرى اسرائيلى ضد لبنان والفلسطينيين قوبل باستياء كبير من جانب منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . « وف الحقيقة حسب ما قال لى ذات يوم واحد من قادة المرابطين (الناصريين اللبنانيين) فان هذه المعاهدة . تمكن الاتحاد السوفيتى من تكوين ترسانة حقيقية ف سوريا ف سهل البقاع كفيلة بان تشيع دوافع للقلق قد تستغلها اسرائيل لتبرير اعتداءاتها على لبنان،بدون ان تحقق اية ميزة لمساعدة الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية » .

وقد تفجر بالفعل ذلك الغموض الذى يغلف هذا الالتزام ابان العدوان الاسرائيلى على لبنان ف صيف عام ١٩٨٢ . حيث وقفت سوريا مترددة فترة قبل ان تقحم نفسها ف اشتباكات محدودة لم تستغرق اكثر من ثلاثة ايام ثم وافقت على وقف محدود لاطلاق النار ف الوقت الذى حاصر فيه الجيش الاسرائيلى بيروت . وقد اشارت بعض المصادر بان موسكو طلبت من الاسد اغاثة الفلسطينيين مطمئنة اياه انه يستطيع ان يعتمد عليها وبغير حدود ف مجال المعونة المادية باستثناء اشتراك المستشارين السوفييت المباشر ف المعارك . وتؤكد المصادر ان الرئيس السورى رد بقوله انه غير قادر على

خوض الحرب فى لبنان وان معاهدة اكتوبر عام ١٩٨٠ لا تضمن له الاعتماد على ارتباط السوفييت فى مثل هذا الاطار .

ومع ذلك ، وبعد ان انتهت المعارك فى لبنان ، عادت سوريا تطلب (وتحصل) على شحنات جديدة من العتاد الحربى السوفيتى. وفى عام ١٩٨٣ وصل حجم ترسانة الاسلحة السورية الى ارقام لم يسبق لها مثيل وزود الجيش السورى باسلحة متطورة شديدة التعقيد ، وخاصة صواريخ سام ٥ ، طائرات التجسس ، وحتى بطائرات اس . اس ٢١ . ولكن كل هذا العتاد بقى تحت تصرف الخبراء السوفييت او خبراء دول الكتلة الشرقية وعندما شن الرئيس حافظ الاسد العملية التى استهدفت تصفية منظمة التحرير الفلسطينية لم تتحرك موسكو ورات انه من الافضل المراهنة على العنصر الاقوى. وعلى عكس ذلك كشفت موسكو معونتها العسكرية لتدعيم القوة السورية فى سهل البقاع اثناء انسحاب الاسرائيليين الجزئى من الشوف والجنوب اللبنانى ، تحت ضربات المقاومة الشعبية . وعندما اندلعت احداث شهرى يناير وفبراير عام ١٩٨٤ ، وباحتدام الصراع بين امين الجميل والمعارضة اللبنانية — الدروز فى الشوف والقوات التقدمية (امل والحزب الاشتراكى الوطنى السورى ، والناصريين ...) فى بيروت الغربية — قدمت سوريا مساندة عسكرية ذات قيمة بفضل مساعدات السوفييت الذين كانوا يعتقدون ان اعادة تصعيد الحرب الاهلية فى العاصمة اللبنانية من شانه اشاعة الفزع لدى الامريكيين قبيل شهور معدودة من انتخابات الرئاسة فى واشنطن . وبالفعل ، بدأ مشاة البحرية الامريكية يبحرون من جديد على متن ناقلة الجنود « نيوجرسى » ابتداء من ٩ فبراير ، كما اخذت القوة المتعددة الجنسيات تتفكك بدورها وتبدا فى سحب قواتها بالتدريج فيما عدا الفرنسيين الذين لم يتسرعوا فى اعلان رحيلهم من المدينة التى اصبح جزؤها الغربى فى قبضة التقدميين وجزؤها الشرقى تحت سيطرة ميلشيات الكتائب التى تعد سلطة الرئيس

جميل عليها محدودة للغاية وهكذا نجحت موسكو ودمشق فى زعزعة الثقة فى السياسة الامريكية فى لبنان ، والتاكيد بانه من المستحيل ان تحدث اى تسوية بدون اشتركهما . ورغم صرامة اللهجة الرسمية لحكومة ريجان ، واسلوب تعبيراتها الذى يعيد الى الذاكرة جو التوتر الذى ساد فى فترة الحرب الباردة فانه يبدو ان الولايات المتحدة تبلت بسهولة فكرة عدم تحمل مخاطر تفوق حدا معينا من اجل امين جميل واعوانه . لذلك نجدها تكتفى بعمليات قصف عشوائية — ادانتها الحكومة الفرنسية — ضد جبل الشوف فى محاولة لتغطية تخليها عن لبنان تحت ستار دخان القنابل التى كانت تطلقها وحدات الاسطول السادس الامريكى وبدا واضحا ان الولايات المتحدة كانت لا تعتبر احتمال سقوط حكومة الجميل او تقييد السيادة اللبنانية بمثابة كارثة . ومرة اخرى ، لم يسع الذين سلموا مصيرهم للولايات المتحدة سوى الشعور بالمرارة والندم . وكانت نتيجة انقياد الولايات المتحدة لعدائها الاعمى للاتحاد السوفيتى ، ومساندتها المتحمسة للمخططات الاسرائيلية التى تدعمت اثر الاتفاق الاستراتيجى المبرم مع شامير فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٣ ، ورفضها النظر الى مشكلة الشرق الاوسط بطريقة شاملة ، كانت نتيجة ذلك كله ان وضعت الولايات المتحدة نفسها مرة اخرى فى موقف ارغمها على التفاوض مع الرئيس الاسد . ولكن هل كانت الولايات المتحدة مرغمة حقيقة على ذلك ؟ ام ان كل شىء قد تم بالصورة التى ارادها سرا كل من الطرفين ؟

ان الحوار لم ينقطع فى اى وقت من الاوقات بين واشنطن ودمشق . لقد صرح جاسبار واينبرجر وزير الدفاع الامريكى بعد اعتداء ٢٣ اكتوبر عام ١٩٨٣ ضد الفرقة الثامنة من مشاة البحرية الامريكية والالاى الاول من الفيلق الفرنسى ، بقوله ان العدوان تم « بمعرفة الحكومة السورية وتحت اشرافها . ووقف

العالم كله حابسا انفاسه ترقبا لرد الفعل الامريكى . ترى ماذا سيحدث ؟ لم يحدث شىء . ففى يوم ٤ ديسمبر التالى ، قام الطيران الامريكى بطلعة لقصف القوات السورية بسهل البقاع . وسقطت ثلاث طائرات واعتقل طيار امريكى وتحدث اللواء طلاس وزير الدفاع السورى ، عن ارسال طائرات انتحارية للاغارة على وحدات الاسطول السادس الامريكى . وبعد ذلك ببضعة ايام قامت بطاريات الجيش السورى بقصف مشاة البحرية الامريكية فى بيروت ، واسفر ذلك عن مقتل اثنى عشر شخصا فى الجانب الامريكى . ومرة اخرى ترقب العالم ما سوف يحدث نتيجة لذلك . ولكن هذه المرة ايضا لم يحدث شىء بل على النقيض تماما ، حدث فى يوم ٣ يناير عام ١٩٨٤ ، ان حصل الاب جيس جاكسون (الزنجى) مرشح الحزب الديمقراطى فى انتخابات الرئاسة ، حصل بدون مقابل ، على موافقة الاسد باطلاق سراح الطيار المحتجز جودمان . وفى اليوم التالى اقترح ريجان مقابلة مع الاسد ، وفى يوم ١٢ يناير ، استقبل الرئيس الاسد جونالد رامسفيلد ، المبعوث الامريكى فى الشرق الاوسط . وبعد ذلك بعدة اسابيع حدث هجوم — المعارضة اللبنانية فى بيروت بمساندة السوريين وعمليات القصف الامريكية ضد مواقع السوريين . وهنا يحق التساؤل : اين المنطق فى كل ذلك ؟

يقول ديبلوماسى فرنسى فى هذا الصدد « ان سوريا فى الحقيقة هى التى تستخدم سياسة اللين والعنف مع الولايات المتحدة وانها نجحت حتى فى التدخل فى حملة انتخابات الرئاسة التمهيدية .

وفى مارس عام ١٩٨٤ ، وصل الاسد الى منتهى حلمه بان فرض نفسه كمفاوض متميز فى المنطقة . وكانت الظروف ملائمة لاغراضه . حيث لم يكن ريجان يعرف كيف يخلص جنوده من ورطة لبنان ، حتى بعد تجميعهم على وحدات الاسطول السادس

الامريكى ، وبعد تخليه عن كل شىء وعين امين جميل الذى اضطر الى تقديم اعتذاره لدمشق . ومع اقتراب موعد الانتخابات الامريكية ، لم يشأ رونالد ريجان ان يورط نفسه فى « مسألة قذرة » فهو لا ينسى ان مسالة احتجاز الرهائن الامريكيين فى طهران هى التى اطاحت بكارتر ولم يشأ ان يرث عبء تواجد مئات من مشاة البحرية الامريكيين « كرهائن » فى بيروت .

وفى الحقيقة كانت الولايات المتحدة فى حاجة للرئيس الاسد حتى تتفاوض معه بشأن حل يمكنها من الانسحاب بهدوء من بيروت لقد نجح الاسد باساليبه « الميكيافيلية » وبثمن مئات القتلى ، فى « ربط » المسئولين الامريكيين باحداث لبنان . ولكن يخشى الا تتناسب التسوية التى ستنجم عن مثل هذه الاوضاع الا بشكل متواضع جدا مع غاية الابقاء على وحدة لبنان وسيادته . اما ان يجعل الامريكيين يعتبرونه بمثابة سادات جديد — اى ذلك الذى يمكن ان يوقع معهم على « سلام امريكى » — فان هذا كان يمكن ان يدفع بكيلنج الى ان يقول : « انه موضوع آخر » .

ماذا يمكن ان يكون عليه مستقبل نظــام حافظ الاســد ! ..
جميع الاحتمالات قائمة فى الشرق الاوسط ، من الممكن ان يتحــول
اعداء الأمس الى اصدقاء اليوم ، كما يمكن ان تنهاراتوى التحالفات
وتتفتت بسرعة . والحقيقة ان الشعب العربى وطموحاته الكبيرة
« فى تحقيق التنمية والاستقلال هو الشىء الوحيد غير المتغــير .
لذا يتعين ان يؤخذ هذا الشعب فى الاعتبار لانه الوحيد الذى يملك
المستقبل . وعليه فانه يجب ان تقيم النظم بميزان وطنيتها وبقدر الدور
الذى تؤديه من اجل النهوض الواجب بالأمة العربية .

اننى حريص على عدم الادلاء باى حكم حول الرئيس السورى ،
ولقد اقتصرت على سرد الوقائع ، المنسية احيانا . وتحليلها تحليلا
موضوعيا . منذ عام ١٩٧٠ كانت جميع تصرفات الرئيس الاســد
تستهدف اثبات انه لا يوجد حل ممكن لمنطقة الشرق الاوسط بدونه.
وهو يسعى — لهذا الهدف مستغلا علاقاته مع الاتحاد السوفيتى
بطريقــة من شانها ان — تستقطب اهتمام الولايات المتحــدة .
واذا ارادت هذه الأخيرة اغفاله (اتفاقيات كامب ديفيد ، ومبادرة
ريجان ، والاتفاق اللبنانى — الاسرائيلى فى ١٧ مايو عام ١٩٨٣)
فانه عندئذ لايتردد فى اللجوء الى جميع الأساليب حتى اكثرها تناقضا
فقد دفعه تحالفه مع موسكو الى ادخال اكثر من ٥٠٠٠ خبير روسى
او من اوروبا الشرقية فى بلاده ، وهذا الوجود لم ينجم عن ثمــة
تقارب خاص بين الجانبين ولكنه نتج عن حساب دقيق وجد فيه كل
من الشريكين مصلحته ومن المرجح ان الرئيس الســورى سيتابع
المضى فى هذا السبيل لحين تحقيق — مطالبه وبعد ذلك ستكون ايام
الاتحاد السوفيتى معدودة فى سوريا ، لان القوى المحلية فــان

سوريا او اسرائيل لديها لعبتها الخاصة ولا تملك واشنطون او موسكو
الوسائل لارغامها على انتهاج سلوك مرسوم ومفروض عليها .

ويرى مسئول لبنــانى سابق « ان الشىء المخيف فعــلا هو
ان الأسد ممكن ان يفعل اى شىء انه يكثر من المتناقضات فى الوقت
الذى ينسج فيه ، سرا بيتا من بيوت العنكبوت لصيد اعدائه .
انه من غير شك قمة فى القفز العالى . ولكن سياتى اليوم الذى تدل
فيه تدمه ويهوى » .

ويبلغ هذا الأسلوب قمته — فى علاقاته مع موسكو وواشنطن
حيث نجح الرئيس السورى فى ان يفرض نفسه عـــلى الدولتين
العظميين اللتين اضطرت كل منهما ان ترسم جزءا من لعبتها فى ضوء
الدور الذى يلعبه هو « ان قدرة سوريا على الاضرار ، تلك القدرة
التى تحول دون الوصول الى اى اتفاق او تسوية .. هى التى
لا تؤهل دمشق بالقيام بدور هام » .

وويل لمن يقف فى طــريق دمشق . وهذا هــو الدرس الذى
استوعبته فرنسا تماما . فمنذ عهد الرئيس ديجول انتهجت فرنسا
سياســـة نشطة وعطاءة فى الشرق الأوسط استهدفت موازنة
صداقاتها مع دولة ، والسعى وراء سلام عادل ودائم فيه . وبمواصلة
اتباعها لهذه الدبلوماسية ظلت فرنسا الدولة الغربية الوحيدة التى
تجرات وحددت اختياراتها ، الخطرة بالتاكيد ، لكنها ضرورية وايجابية
وهكذا نجدها تساند سيادة العراق واستقلاله ازاء مخططــات
الخومينى التى ادت الى اندلاع حرب الخليج ، كما انها من ناحيــة
اخرى تؤمن بان منظمة التحرير الفلسطينية فى ظل زعامة ياسر عرفات
الواقعية والمعتدلة من حقها الاستقلال فى العمل ، والمشــــاركة
فى المفاوضات التى تجرى من اجل اقرار السلام الشامل .

واخيرا بذلت فرنسا كل المساعى من اجل الابقاء على وحدة
لبنان . فقد صممت ، رغم حجم المخاطرة على ابقاء قواتها فى بيروت

الى آخر مدى حفاظا على استمرار الصــلة بين جميع الطــوائف اللبنانية .

وهكذا نرى أن موقف فرنسا يعد ايجابيا لانه يخلخل الصراع الدائر بين الدولتين العظميين واذا قررت اوروبا اتباع سياسة موحدة والتعبير عن ارادتها الخاصة تمشيا مع السياسة التى نادت بها فرنسا فان من شان ذلك مساعدة العرب على التخلص من اضرار المواجهة الخطرة الدائرة بين الشرق والغرب . ولكن وعندما يقاوم حافظ الأسد السياسة الفرنسية اكثر مما يقاوم السياسة الامريكية ، فانه بهذا يحرم بلاده وسائر العرب من فرصة العثور على بديل لمخططات الدولتين العظميين وربما كان هذا هو السبب فى استمرار الأسد سياسيا حتى الآن ، بخلاف ناصر او صدام حسين اللذين رفضا التسليم بأن مصير العرب يعتمد على موسكو او واشنطن ، اما الاسد فيقر بالامر الواقع ويشترك فى لعبة المواجهة الدائرة بين الاتحاد السوفيتى ـ وأمريكا محاولا الاستفادة منها بأقصى قدر ممكن .وعلى الرغم من براعته فان الاســد لم ينجح مــع ذلك فى كل مشاريعه لقد فشل على سبيل المثال فى تصفية منظمة التحرير الفلســطينية وفى القضاء على نفوذ ياسر عرفات . وعرض نفسه بهذا السلوك لنفور الفلسطينيين الذين يعيشون فى المهجر منه ، وضم اسمه الى القائمة السوداء لقد اصدر الشيخ سعدالدين العلمى ، مفتى مدينة القدس فتوى فى شهر يونيه عام ١٩٨٣ قال فيها :

« من واجب كل مسلم ان يستحل دم الاسد الذى هو عدو المسلمين » . وكان تدخل الدوائر الفلسطينية المحلية فى الحقيقة هو الذى ادى الى قطع المعونة المالية الكويتية عن سوريا فى خريف عام ١٩٨٣(١) .

---

(١) حدثت فى يــوم ١/٢ عام ١٩٨٣ سلسلة من الاعتداءات الموجهة من دمشق وطهران ضد بعض الأبنية العامة فى الكويت .

كما عرض الرجل القوى فى دمشق نفسه ايضا للمخاطر عندما اجج نيران الثورة الشيعية الايرانية وعندما راح يتعاون بشكل وثيق مع انصارها فى لبنان . ولا شك انه يمسك بالورقة اللبنانية لكنه يمسك بها كحليف للقوى الاسلامية الثورية(٢) وبخاصة الشيعة .

وهكذا نجد أن الذى قام بتصفية المسلمين التقليديين فى بلده، برغم على التفاهم مع قوى دينية اخرى ، فى لبنان ، وليست اللعبة سهلة فى هذا المجال لأن الشيعين ماضين فى البزوغ كواحدة من اهم القوى السياسية فى البلاد والكثيرين منهم يميلون الى التشبه بالمثل الايرانى ، وطهران تحلم بالفعل بتصدير ثورتها للعرب كما تثبت الحرب التى شنها آية الله الخومينى ضد العراق . ويمكن ان يصبح الشيعة اللبنانيون نقطة الانطلاق العربى ـ الأمر الذى أنتقــده الخومينى ـ وتصل التلاقل الى دول عربية اخرى مثل : مصر والأردن أو المغــرب ولكن من الواضح ان مثل هذا التيــار لابد أن يصطدم بسوريا ايضا ، وليس من المؤكد ان يستطيع الاســد اســتثماره لصالحه .

فى حالة تفوق هذه الحــركة ، فان نظــامه الضعيف المرتبط بشخصه وبعملية القمع لابد وان ينهار .

وجدير بالذكر ان سياسة حافظ الاسد تحدها ايضا بعض الحقائق الأخرى . فهو يعلم انه لا يمكنه ان يغالى فى تورطه مع الشيعة والايرانيين لأن ذلك وان يؤدى الى ردود فعل عنيفة من جانب طائفة السنيين المسلمين الذين يمثلون الغالبية فى الأمة العربية . وفى مشكلة لبنان لايستطيع الرئيس السورى أن يوافق جهارا على مبدأ التقسيم لانه لا يخفى عليه أن المشروع الاسرائيلىالخاص بتقسيم جاره ـ الصغير ، يتضمن شقا ثانيا ـ خاص بتقسيم سوريا

---

(٢) والتى لا يجب خلطها بالقوات المتطرفة والســنيون التقليديون .

الى دولة سنية ودولة علوية ودولة درزية موحدة مع الدروز اللبنانيين . واخيراً فان الرئيس الاسد يعلم — لفرط ذكائه انه يستمد قوته من ضعف بقية العرب .

فاذا عاودت مصر الرئيس مبارك انضمامها لجامعة الدول العربية وفقا لأمانى الغالبية العظمى من العرب ، واذا انتهت حرب الخليج ، وعاد العراق يتقلد دوره النشط فى الساحة الاقليمية مرة اخرى ، واذا تفاوض الرئيس عرفات مع القاهرة وعمان ودفع من ثم بعض الدول المعتدلة (بغداد والرياض ، وامارات الخليج العربى) الى تبنى نفس الاتجاه السياسى لابد وان تضطر سوريا الى تخفيض حجم مطامعها .

ولهذا السبب صمم حافظ الاسد ان يتصرف بسرعة فى عام ١٩٨٣ ضد منظمة التحرير الفلسطينية .

وفى لبنان ، وفى بداية عام ١٩٨٤ كان واحدا من اقوى الرجال فى المنطقة ولكن لا تستقر ابدا بشكل نهائى فى منطقة الشرق الاوسط . فالمرض الذى يعانى منه بدأ يؤثر ايضا على مستقبل نظامه مثلما دلت احداث يوم ٢٧ فبراير عام ١٩٨٤ بين رفعت الاسد والعسكريين . واصبح مستقبل النظام يتوقف على نتيجة هذا المرض ، وفى المدى القصير على قدرة الرئيس الاسد الذهنية والبدنية التى تؤهله على ممارسة سلطته بقوة وحزم ومواصلة العمل على صعيد المنطقة . وتوجد فى مواجهة لاعب « البوكر » الخطير هذا على الصعيد الدبلوماسى ، قوى لا يستهان بها وخاصة تلك التى تتبنى فكرة معينة للأمة العربية ، وتطورها ، ووحدتها واستقلالها . وفى الواقع ان هذه هى حالة الذين يؤمنون بأن التفاهم الدائم بين سوريا والعراق من شأنه ان يضمن للعرب مستقبلهم ويمهد طريق الوحدة الضرورية للعرب .

وردا على اسلوب الاسد « الميكافيلى » هناك حديث مواطن سورى آخر ، وهو ميشيل عفلق ، يطلق صيحة الأمل هذه : لو نحن قارنا مابين — الذين يمسكون بزمام السلطة من اجل السلطة ، ويرغمون برغم ما أوتوه من قدره ، على الانسياق وراء كل الوان الحلول الوسطى ، ومابين — الذين يتابعون السير وراء — هدف يطابق للآمال المشروعة لشعبنا فلا شك هناك ان المستقبل سيكون للمجموعة الثانية . لأن المستقبل هو ملك للقومية العربية » .

طرابلس (لبنـــان) نوفمبر ١٩٨٣

تونس ، ينـــاير ١٩٨٤

باريس ، مارس ١٩٨٤

مراجعة مطبعية : على كامل دسوقى

مطابع الهيئة العامة للاستعلامات